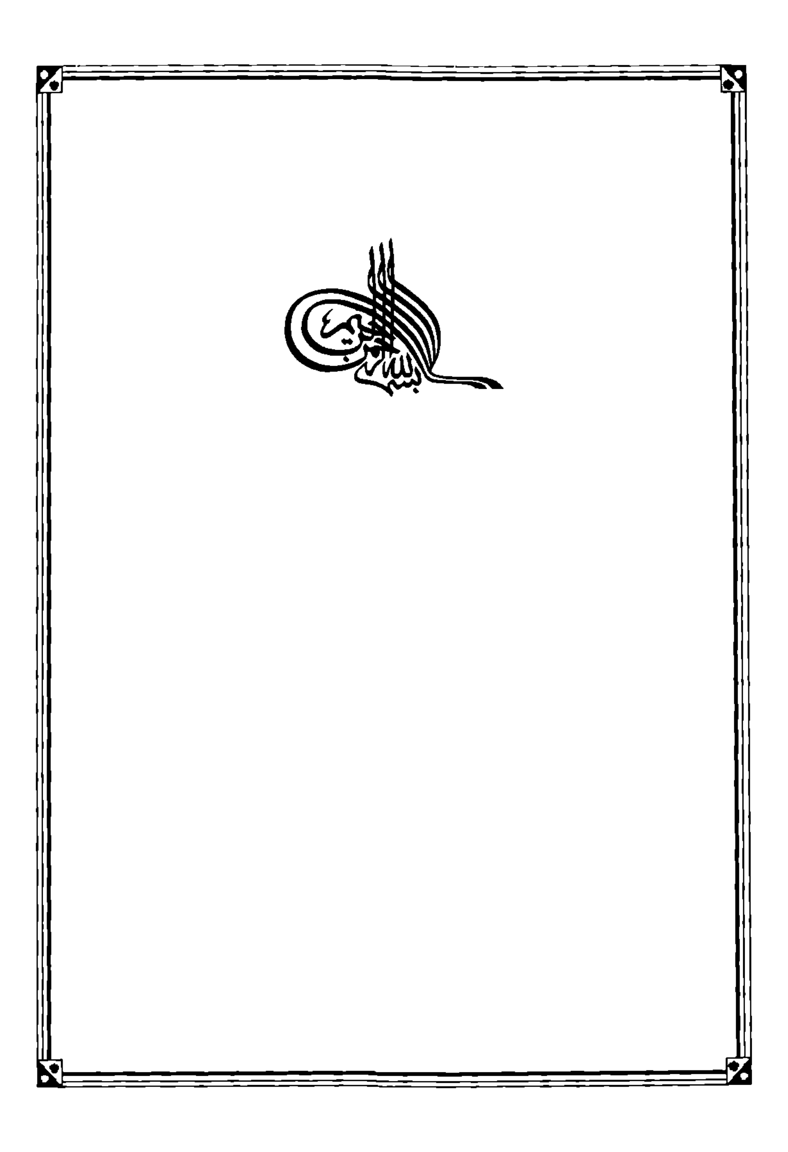
روضة الورد

(گلستان)

سعدي الشيرازي

ترجمة: محمد الفراتي


بسم الله الرحمن الرحيم

روضة الورد

(گلستان)

تأليف

سعدي الشيرازي

ترجمة

محمد الفراتي

سعدی، مصلح‌بن عبدالله، - ۶۹۱؟ ق.
[گلستان. عربی]
روضه الورد (گلستان)/ تالیف سعدی الشیرازی؛ ترجمه محمد الفراتی.— تهران: فرهنگ مشرق زمین، ۱۳۸۲.
۳۳۹ ص.
ISBN 964-8241-18-x
فهرستنویسی براساس اطلاعات فیپا.
عربی.
۱.نثر فارسی -- قرن ۷. -- ترجمه‌شده به‌عربی. الف.فراتی، محمد، مترجم. ب.عنوان.

PIR۵۲۱۱/ی۸۳ ۱۳۸۲ ۸فا۸/۸۳ ۸

کتابخانه‌ملی‌ایران ۸۲-۲۵۷۶۰م



اسم الكتاب: روضة الورد (گلستان)
المؤلف: سعدي الشيرازي
المترجم: محمد الفراتي
الناشر: المشرق للثقافة والنشر
الطبعة: الاولى — ١٤٢٥ هـ.ق ٢٠٠٤ م
الكمية: ٣٠٠٠ نسخة
المطبعة: فجر الاسلام
السعر: ١٨٠٠ تومان
ردمك: ٩٦٤ - ٨٢٤١ - ١٨ - X ISBN: 964 - 8241 - 18 - x
العنوان: الجمهورية الاسلامية في ايران ـ طهران ـ ص. ب: ١٨١١ ـ ١٩٣٩٥

الفهرس

مقدمة الناشر

افصح المتكلمين سعدي الشيرازي

هو الكاتب والشاعر الايراني المعروف وكان من أعاظم المتكلمين واستاذاً دون منازع في الأدب والفصاحة.

اسمه كما هو مشهور الشيخ مصلح الدين عبدالله الشيرازي والمعروف بالشيخ سعدي او سعدي الشيرازي. عاش في الفترة ما بين نحو ٦٠٠ ـ ٦٩٤ للهجرة ومثواه في شيراز. من معالم حياته بما هو مؤكد اصبح يتيماً ابان طفولته حيث يقول في هذا الجانب بما معناه:

اتحسس أنا بما يعاني منه الأطفال

إذ كنت طفلاً مات ابي ءساءت بي الاحوال

فكان ينحدر من اسرة وقبيلة جلهم من علماء الدين

قبيلتي من علماء الدين كلهم وهواك معلمي الذي علمني الشعرا

غادر مدينة شيراز بعد تحصيل المقدمات متوجهاً الى بغداد واختار الإقامة في مدرسة النظامية واكمل دراسته هناك.[1]

إن ما يجب قوله حول سعدي هو عذوبة كلامه ومقدرته على النظم والنثر فكان سعدي على علم بمنزلته الرفيعة في الكلام وقد أشاد مرات بشعره ونثره وفصاحته وعذوبة كلامه:

لا يرقى حديثي وحسنك شخص　　　هذا هو حد البلاغة والجمال

وقد كان من قلة المتكلمين ممن بلغ صيت بلاغته في حياته كافة ارجاء العالم، إذ يقول في ديوانه المعروف بـ (كلستان) بات الذكر الجميل لسعدي في افواه عامة الناس وصيت كلامه منتشراً في الأصقاع ويؤكل قصب الحبيب حديثه كالسكر ورقعة منشآته تشترى كما يشترى ورق الذهب ...).

تعرف كلامه كافة الفئات منذ ايام حياته وحتى يومنا هذا وتقرأ أشعاره بالتذاذ وتستخدم كلماته على شكل الأمثال والحكم.

كان سعدي عالماً كبيراً، ملتزماً بأصول الديانة متعبداً ومولعاً بالزهد ومتقياً مهيمناً على كافة العلوم الدينية وكان راسخاً في التدين والعبادة؛ وفقيهاً

---

١ ــ الموسوعة الكبيرة لمصاحب.

وزاهداً وعارفاً وواعظاً وعارفاً بالاجتماع وكان يحتل مرتبة سامية في هذه الفنون كافة لكن منزلته الشعرية تفوق باقي كمالاته. ولم يطغى في ذات الوقت اي جانب من شخصيته على الجوانب الأخرى .. فسعدي الشاعر هو سعدي الواعظ وهو الفقيه القدير وهو العارف الزاهد.

من آثاره الموجودة في المتناول تم تجميعها في مجموعة تحمل اسم كليات والتي تشمل ديواني كلستان وبوستان وغزليات وقصائد فارسية وعربية ورباعيات. كانت قدرته فائقة في الشعر في العربية وجاء تبحره في الآداب العربية نتيجة تأثره بآثار كبار الشعراء العرب والإفادة منهم وتشهد بذلك قصائده العربية وملمعاته في هذا الجانب والتي تعكس سيطرته والمامه بالأدب العربي.

وقد عكس سعدي فنه في كل كلام سواء من الشعر او النثر. ويمثل نثره المسجع في كلستان قدوة يحتذي بها المتكلمون وذووا البلاغة.

وغزلياته تثير حسد منظمي الغزل كما تثير حدة طبعه الاعجاب وتسمو دقته وفطنته على الحد المألوف لدى العارفين بعلم الكلام. ويكون منقطع النظير في حسن البيان والجمال وقول البديع.

وتشير غزلياته الى عدم تمكن منافسته في بيان الصداقة ومراتب الشوق ويعجز عن بلوغ حده في معرفة الجمال ووصف جمال الإنسان والكون.

ينطوي ديوان كلستان على مجموعة من علم الاجتماع والمورفولوجيا ويعكس تماماً اخلاق واطباع الايرانيين آنذاك وحتى في يومنا هذا.

كما ينطوي بوستانه على الحكمة العملية ودروس للحياة الكريمة والفاضلة.

ترجمت اثاره الى معظم اللغات السائدة في العالم. ويعرف سعدي في العالم اجمع بإلمامه بفن الخطابة والمعرفة.

مقبرته في شيراز في قرية اسمها (سعدي) وهي مزار العاشقين والفضلاء.

تشم رائحة الحب من تراب سعدي وإن مضى الف عام على موته

الترجمة العربية الموجودة أمام القارئ الكريم لديوان كلستان هي من افضل الترجمات لهذا الديوان والتي قدمها الدكتور محمد الفراتي نرجو ان نكون بذلك مسدين خدمة للآداب والثقافة الايرانية ولعرض هذا الكتاب العرفاني والأدبي والأخلاقي القيم.

روضة الورد «گلستان» وما | كـ«گلستان» كتاب في العظات
فيه عن شيراز نفح عطر | وشذاً من كلّ أزهار الحياة

بسم الله الرحمن الرحيم

روضة الورد

المنةُ لله عزَّ وجلَّ الذي طاعتُه توجبُ التقرّب منهُ، وبشكره تزداد النِّعَمُ.

كلّ نَفَسٍ واردٍ مددٌ للحياة، وكلُّ نفَسٍ صادرٍ راحةٌ للذّات، إذن في كلِّ نفَس له عليكَ نعمتان، علىٰ كل نعمة منهما شكرٌ واجب.

بـيت

بأيّ لسانٍ أو يـدٍ أنت عامل لتخرجَ في مَرْماكَ عن عُهدة الشكر

اعملوا آلَ داوودَ شكراً، وقليلٌ من عبادي الشكور.

قطعـة

الخيرُ للعبد أن ينقادَ ـ معتذراً عن القصور ـ إلىٰ أعتاب سيدهِ
لِمْ لا وكل امرئ ـ عما يَليقْ بهِ أَقَرَّ بالعجزِ ـ في منحى تعبُّدهِ

غيوثُ رحمته التي لا تحصىٰ تَعُم سائرَ الأكوان، ومـوائـدُ نـعمته بدونِ حرمان مبسوطةٌ بكل مكان، لا يَهتِكُ سترَ عباده بأفحش الذنوب، ولا يقطعُ رزقهم بما اقترفوه من منكر الخطايا والعيوب.

قطعـة

يا من خزائن رزقه من جودهِ حَبَتِ المجوسَ وعابدي الأوثانِ
أعدى عداكَ شملْتَهُ برِعايةٍ أفتقْتُلُ الأحبابَ بالحرمانِ

أذِنَ لفراشِ نسيم الصَّبا أن ينشر علىٰ البسـيطة زرابـيَّ الزبـرجـد

الخـــضراء، وأمـــر (دايـــةَ) سُـــحبِ الربـيـع أن تُـربيَ بـناتِ النباتِ بمهد الغبراء.

وزيّنَ بأردِيـة الأوراق السُّـندُسية ـ مـن حُـلل النـيروزِ ـ أعـطافَ الأشجار، ووضع علىٰ رأس أطفال الأغصان ـ لقدوم موسم الربـيع ـ تيجان الأزهار، وأصبحتْ بقدرته عُصارةُ القصب شهداً فائقاً، ونواة التّمر بتربيته نخلاً باسقاً.

قطعـة

الريحُ والغيثُ والأفلاكُ سخَّرها   لتأكلَ الخبزَ بالتقوىٰ وتشكرَهُ
والكلُّ أصبح منقاداً إليكَ فهل   من المروءةِ أن تَغْشى فتنكرَهُ

وفي الخبر عن سيد الكائنات وفخر الموجودات، المبعوثِ رحمة للعالمين، وصفوةِ الأولينَ والآخرينَ، صـاحبِ الأوان المـتمِّمِ لدورةِ الزمان، محمد المصطفىٰ صلّى الله عليه وسلم.

شعر عربي الأصل

شفيعٌ مطاعٌ نبيٌّ كريمْ   قسيمٌ جسيمٌ بسيمٌ وسيمْ

قطعة

تُرىٰ أيُّ غم قد يَحيقُ بأمةٍ لها أنتَ في الدنيا ظهيرٌ ومِعوانُ
وما الخوفُ من موج البحارِ إذا طغىٰ ونوح علىٰ ظهر السفينة رُبانُ

شعر عربي الأصل

بلغ العلىٰ بكمالهِ كشف الدجىٰ بجمالهِ
حَسُنَتْ جميعُ خصالهِ صلوا عليه وآلهِ

إنَّ الواحدَ من العبيد المذنبينَ الخطّائينَ المتحلّلينَ تُسلّمه يدُ الحيرة إلىٰ الإنابة رجاءَ الإجابةِ، ينتصِبُ واقفاً في أعتاب الحق جلَّ وعلا، فلا ينظر اللهُ إليه؛ فيعودُ ضارعاً، فيُعرِضُ عنه، ثم يعودُ فيتضرعُ ويبكي، فيقولُ الحقُّ سبحانه: «يا ملائكتي قد استحييتُ من عبدي وليس له ربٌّ غيري فقد غفرتُ له» أي أجبتُ دعوته وقضيتُ حاجتَه؛ لأنني استحيَيْتُ من عبدي لزيادةِ تضرّعه وكثرةِ توجُّعه.

بيت

العبدُ يُمعنُ بالذنوب فهل تَرىٰ كرمَ المهيمن كيف منه يستحي

العاكفون في كعبة جلاله بتقصيرهم بالعبادة معترِفون: «ما عبَدناك حق عبادتك»، والواصفون حلية جماله بأودية الحيرة هائمون: «ما عرفناك حق معرفتك».

قطعة

يا من يُحاولُ مني أن أُجيدَ له وصفاً ومِن أينَ للمضى الفؤادِ هَدى

العاشقونَ قتيلو حبِّ مَنْ عَشِقوا فليسَ يَرْجعُ من ميت الغرام صَدى

اتّفقَ لبعض أرباب القلوب أنه حنا رأسه لجَيْبِ المراقبة، وغرق في بحر المكاشفة، وحين أفاقَ مِن استغراقِهِ قال له أحدُ صَحَابته بطريقة الانبساط: أيّ تحفة جلبتها لنا من ذلك البستان الذي كنتَ تتنزّهُ به؟ فقال: خطر ببالي أنني متىٰ وصَلتُ إلىٰ شجرةِ الورد أملأ ذيلَ ثوبي هديةً للأصحاب، ولمّا وصلت وجمَعتُ الوردَ أسكرَتني رائحتُه الذكية، فوقعَ ذيلُ ثوبي من يدي.

قطعة

أبلبلَ الدوح ما في الحب من طربٍ فكيفَ تَهتِفُ بالأسحارِ جَذْلانا

إن كـنتَ صـباً فأصلِ الروحَ مُحتذِياً حـذوَ الفـراشـة دونَ الشكْـو نـيراناً
تـعلَّمِ العشـقَ مـن تـلكَ التـي فَنِيَتْ ومـا سَـمْعنا لهـا جِساً بـدُنيانا
كـم مـدعٍ حبَّ ليـلى مـاله خـبرُ بـها ولم تُـولِه فـي الحب سـلطاناً
شَـدا بـها وتَـغَنَّى فـي مَـبـاذِلِه وراحَ يـملأ سـمعَ الدهـرِ ألْـحاناً
ومُـدنَفٍ بـاتَ مِـن لَـيلاهُ فـي شُغُلٍ قَـضَى ومـا أقـلَقتْ شكـواهُ إنسـاناً

قطعـة

يـا مَنْ سَموتَ عنِ الخـيا لِ وَوهـم أقـيسةِ العـقولِ
وعـن الذي كُـنا قَـرَاْ نا عنكَ مِنْ ضافي الفصولِ
قـدْ تـمَّ مـجلِسُنا وَوا فـى الْـعُمْرُ منزلةَ الأفولِ
وكـما بـدأنا لم نَـزَلْ بـنهايةِ الوصـفِ الجميلِ

محامد ملك الإسلام خلّد الله ملكه

لقد وقعَ جميلُ ذكر السعدي بأفواه الأعوام، وتغلغل صيتُه بآفاق البسيطةِ، لِما أبداه من بليغ الكلام، وذاق النـاسُ مـن حـديثه المـقطَّر ما يشبه حلاوةَ السكّرِ، ورفعوا رُقَعَ إنشائه إلىٰ رُتـبة الأوراق الذهـبية، ومع كلّ ذلك فلا يليق به أن يحملَ هذا علىٰ فضله وبلاغته الأدبية، بَيْدَ

أنَّ ملِك الأوان وقُطبَ دائرةِ الزّمان، القائِمَ مقامَ سليمان، الناصر أهل الإيمان، ملك الملوك المعظم، الأتابك الأعظم، مظفر الدين أبا بكر سعد بن زنكي، ظلَّ الله في أرضه ـ ربِّ ارْضَ عنه وأرضِهِ ـ لما لحظه بعين عنايته، وأيّده ببليغ رعايته، وأظهر له صادقَ إرادته، كان ذلك الاحترامُ موجباً لإقبال جميع الأنام من الخواص والعوام، ولا جرمَ «فالناس علىٰ دينِ ملوكِهم».

رباعية

متىٰ ما شملتَ العبدَ منكَ بنظرةٍ
تَفُقْ في الورىٰ آثارُهُ شهرةَ الشمسِ
وإن يك لا يسطيعُ حصر عيوبهِ
فعطفُك يمحو كلَّ عيبٍ مِنَ النفسِ

قطعة

وبَيْنايَ في الحمامِ إذْ وصَلَتْ إلى
يَدي طينةٌ فَوّاحةٌ مِن يَدَيْ حبّي

فقلتُ أ مِسكُ أنتِ أم أنتِ عنبرُ
فنفحُكِ هذا قدْ تَعَشَّقَهُ قلبي
فقالتْ ترابٌ لستُ شيئاً وإنما
جلَستُ بظل الوردِ حيناً على العُشبِ
فَصُحْبَتُهُ أعلَتْ مَقامي كما تَرى
وإن كنتُ طيناً لا أزالُ مِن التُّرْبِ

اللّهمّ متِّع المسلمين بطولِ حياتِه، وضاعفْ ثوابَ جميلِ حسناته، وارفع درجات أوِدَّائِهِ وولاته، ودمر علىٰ أعدائه وشِناتِهِ، بما تُلِيَ في القرآن من آياته، اللهم آمِنْ بلدَه واحفظ ولدَه.

شعر عربي الأصل

لقد سعد الدنيا به دام سعدُه وأيّده المولىٰ بألوية النصرِ
كذلك تَنشا لِينةٌ هو عِرْقها وحسنُ نبات الأرض من كرم البذرِ

يا من تعالىٰ وتقدّسَ احفظ خطة شيراز الطاهرةَ، بهيبةِ الحكام العادلين وهمة العلماء العاملين، واجعلها إلىٰ يوم القيامة في أمان وسلامة.

قطعـة

أتدري لماذا طوحت بي يدُ النوى
فأمسيتُ في نجوى بعيداً عن الصحبِ
لِما نظرت عيني من الترك إنها
ملاحمُ خزي كدت أقضي بها نحبي
قد اشتبكت فيها الأنامُ بحالة
تشابُه شَعْرَ الزنج في مأزِق صعبِ
إلىٰ آدم تُنمى التتارُ وإنها
ذئابُ وُلوغ نابُها مُرهف الغربِ
وإذا تركت تلك الفهودُ طباعها
رجعتُ قريرَ العين تواً إلىٰ صحبي
فألفيتُ شعبي في أمان وغبطة
وألفيتُ جندَ الشعب كالأسد في الحربِ
كذا كانت الدنيا تموج بفتنة
وتشويشِ أفكار وتُفعم بالكربِ
فعادت بأيام ابن زنكي رضيةً
أبي الأمراءِ المَلْكِ سعدِ الفتى الندبِ

قطعـة

إقليمُ فارس لم تصِف به فتنٌ
مادام مثلُك يحميهِ من الفتنِ
فاليومَ لم‌تر عين مثلَ بابكَ في
هذي الربوع لأمن الروح والبدنِ
عليك حفظ الرعايا وهي تشكر ما
تُولي ويجزيك عنها اللهُ بالمننِ
ربِّ احمِ فارسَ من عطف الزمان ومن
كيد الطغاة وخلدها علىٰ الزمنِ

تأملتُ بإحدىٰ الليالي أياميَ الماضية، فتأسفتُ علىٰ عـمري الذي ذهب سدى، فثقبتُ حجر قلبي الصلدَ بماسِ دمع عيني، ونظمتُ هذه الأبياتَ بما يناسب حالي.

رجـز

في كل آن نفَس من عمري   يمر والباقي ضعيف الأثرِ
يا مُذهبَ الخمسينَ بالنوم سدى   أيامكَ الخمسُ قريبةُ المدى
يا حيرة الساري وما سوى الحـمولْ   والركبُ قد خف علىٰ قرع الطـبولْ

فما ألذَّ النومَ في صبح الرحيلْ   وضيعةَ الراجل في تلك السبيلْ
فكل من جاء وجدَّد البنا   يُسلِمُه لوارث بعد الفَنا
وغيره يمضي بهذا الهوسِ   وللمحاق رأسُ مال المفلسِ
لا تتخذ غير الوفي صاحباً   وإن ترَ الغدارَ فاذهب جانباً
بالموت ما تفعلُ من خير وشَرْ   يمضي ويا طوبىٰ لمن زانَ المَقرْ
فاحمل إلىٰ قبرك أنوارَ الهدىٰ   فليس ما يُنجيك من بعدِ الردىٰ
فالعمرُ ثلجُ وبتمّوزَ الأُفقْ   نارٌ فأمسك ما تبقي من رمقْ
يا من مضى للسوقِ فارغَ اليدِ   أخشىٰ بأن ترجعَ خِلواً فاقعدِ
من أكل السنبلَ قبل نضجهِ   فالتبنُ عند الحصد مِلء خرجهِ
بأذُن القلب استمعْ نصيحتي   وامضِ كإنسان علىٰ طريقتي

وبعد أن تأملتُ معنىٰ هذه المصلحة، رأيتُ أن أستقر بمجلس العزلة، وأضم ذيل ثوبي عن محاذير الصحبة وأمحو من صحيفتي ما رقمتُه من الهذيان، وجزمت ألّا أنبِسَ ببنتِ شفةٍ، ولا أدعي بعد ذلك المعرفة.

بيت

أصمَّ أبكمَ كُنْ واقبعْ بزاويةٍ   ولا تكن رجلاً في الحكم خطّاءا

حتىٰ دخل عليَّ من الباب حسب العادة القديمة أحدُ الأصحاب وكان أنيساً لي بمحفتي، وجليساً لي بحجرتي، وبقدر ما أبدى نشاطاً في الملاعبة، وما تبسط فيه من المداعبة، لم أُسعفْه بجواب، لاستغراقي في العبادة، فنظر إلي متألماً، وأنشد مترنماً.

قطعـة

ما دمتَ تمتلك الكلامَ فقل ولا   تبخل بجيّده علىٰ من يَسْمَعُ
فغدا رسولُ الموتِ يعقد مِقولاً   قد كان يرتع بالبيان فيُمتِعُ

فأطلعه أحدُ المتعلقينَ بي على حقيقة الأمر قائلاً: إن فلاناً وطد العزمَ وعقد النية علىٰ أن يقضيَ بقيةَ عمره في الدنيا معتكفاً، واختار الصمتَ مادام حياً، وأنت أيضاً إن تستطعْ فاكبحْ جِماحَ نفسك، واسلُكْ مثله طريقَ الانقطاع، فأقسمَ بعزة الله العظيم، وبعهد الصحبة القديم، لا أُصعِّدُ نفساً ولا أنقل قدماً إلا أن يتكلم حسب عادته المألوفة وطريقته المعروفة، وإن إغاظة الأصدقاء جهل، وكفارة اليمين أمرها سهل، وخلاف طريق الصواب وعكس رأي أولي الألباب أن يغمد حسام علي ذوالفقار، وأن يتوارىٰ لسان السعدي عن الانظار.

قطعة

أخا الفهم تدري ما اللسان فإنه   لَمفتاحُ كنز مُغلَق عند ذي الفكرِ
ومادام لم يُفتح فلم تدر ربه   أبائعُ در أم هَنات من الصُّفرِ

قطعة

إذا ما دعاك النطق فانطق وإن يكن   سكوتُك بين الناس من كرم الخُلقِ
يعكر صفوَ المرء أمران فاعجبنْ   لنطق بلا داعٍ وداعٍ بلا نطقِ

وبالجملة ما أمكنني أن أمنع لساني عن مكالمته، ولا رأيت من المروءة أن أُعرض بوجهي عن محاورته، لأنه كان صديقاً موافقاً ومحباً صادقاً.

بيت

إذا ما دعا للحرب يوماً معاندٌ   فحاربْه مضطراً وإلّا فسالمِ

وبحكم الضرورة جارَيتُه بالكلام، وباريته في نزهة ربيعية، حيث سكنَتْ صولةُ البرد، وآن أوانُ دولة الورد.

بـيت

الورَق الأخضر فوق الغصونْ كحُلّةِ العيد علىٰ الموسرين

قطعـة

بأول نيسان إذِ العامُ حاملٌ بواكيرَ من نفح إلىٰ الزهر عاطرِ
سما لغصون الدوح في الصبح بلبلٌ فقام خطيباً فوق تلك المنابرِ
تصباه مَطلولٌ من الورد قانئٌ مُحلّاةٌ أوراقه بالجواهر
فمن عرق الحسناء في وجنَاتها به شَبهٌ إن تبدُ غضبى لناظرِ

واتـفق أن بتنا ليلة ببستان أحد الأصحاب، وكان بازدهاره والتفاف اشجاره يأخذ بمجامع القلوب، فإذا رأيتَه قلتَ: إن أرضه قد رُصعت بدقائق زخارف الميناء، وإن رؤوس أشجاره كُللت بِعقد الثريا.

قطعة

روضة ماء نهرها سلسبيلٌ دوحة سجع طيرها موزونُ

تلك فيها من الزهور صنوف وبهذي من الثمار فنونُ
وبظل الغصون ألقىٰ عليها صِبغَ ألوانه (أبو قلمونُ)

وحين أصبحنا وتغلب التفكيرُ بالعودة علىٰ الرأي بالإقامة، رأيته قد ملأ ذيل ثوبه بالورد والريحان والسنبل والضَّيمران، وعزم علىٰ التوجه بذلك إلىٰ المدينة، فقلت له: وردُ البستان كما تعلم ليس له بقاء، والروض كذلك ليس له وفاء، وقد قالت الحكماء: كل شيء ليس له ثبات لا يليق بالقلب أن يتعلق به، فقال: ما العمل إذن؟ قلت: لأجل نزهة النواظر وارتياح الخواطر باستطاعتي أن أصنف كتاب («گلستان»: الروضة) الذي لا تستطيع عواصف الخريف أن تمد يدها إلىٰ أوراقه، ولا تقدرُ زعازع الدهر بطيش الخريف أن تكدِّر صفو ربيعه وشبابه.

رجز

بروضتي ورد ندي بالورقْ فَلِمْ من البستان عَبَّأت الطبَقْ
فالورد عمره قصير الأمدِ وروضتي تزهو لأخرىٰ الأبدِ

فلما انتهيت من قولي ألقى الوردَ من ذيل ثوبه وتعلق بذيلي، وقال

لي متلهفاً: «الكريم إذا وعد وفى». واتفق في تلك الأيام القليلة أن بيِّض منه فصل أو فصلان في حسن المعاشرة وآداب المحاورة بصفة تَزيدُ في قوة المتكلمين وبلاغة المترسلين، ولم تنفَدِ البقية الباقية من ورد (البستان) حتىٰ انتهىٰ كتاب (گلستان) بعون الله الملك المنان. وفي الحقيقة لا يتم إلّا إذا شوهد مقبولاً بديوان ملك الأوان، ملجأ العالم وظل الله ولطفه في أرضه، ذخرِ الزمان وكهف الأمان، المؤيد من السماء، المنصور علىٰ الأعداء، عضد الدولة القاهرة، سراجِ الملة الباهرة، وجمالِ الأنام وفخر الإسلام، (أتابك) الأعظم، ملك الملوك المعظم، مالك رقاب الأمم، مولىٰ ملوك العرب والعجم، سلطان البر والبحر، وارث مُلك سليمان، مظفر الدين أبي بكر بن سعد بن زنكي أدام الله إقبالهما، وجعل إلى كل خير مآلهما، وذلك بأن تشمله لمحات أنظاره الملوكية، فيتفضل عليه بالمطالعة.

قطعة

يفوق إن يلقَ من عَطف المليك هوىٰ (أرْجَنْكَ ماني)[١] و (دارَ النقش)[٢] في الصين

١- اسم كتاب رسم فيه جميع ما صوره ماني المصور الشهير.

٢- هي (نكار خانه) اسم معبد في الصين رسم فيه أبدع الآثار الصينية.

وكل ما أبتغي ألّا يمل فما في (روضة الورد) ما يضني فتلحوني
وكيف لا واسم (سعد) فوق طرته مطرزٌ بأبي بكر فتى الدينِ

ذكر الأمير الكبير
فخر الدّين أبي بكر بن أبي نصر

كذلك عروس فكري لعدم جمالها لا تستطيع أن ترفع رأسها، ولا أن تحول عين يأسها عن ظاهر قدم خجلها، ولا أن تبدو مجلوة في زمرة ذوات الجمال إلّا إذا تحلت بحلى قبول الأمير الكبير، العالم العادل، المؤيد المظفر، ظهير سرير السلطنة، مشير تدبير المملكة، كهف الفقراء، ملاذ الغرباء، مربّي الفضلاء، محب الأتقياء، افتخار آل فارس، يمين الملك، ملك الخواص، فخر الدولة والدين، غياث الإسلام والمسلمين، عمدة الملوك والسلاطين، أبي بكر بن أبي نصر، أطال الله عمره، وأجَلَّ قدره، وشرح صدره، وضاعف أجره؛ فهو ممدوح أكابر الآفاق، ومَجمعُ مكارم الأخلاق.

بيت

من بات في ظل العناية حوله فخطاهُ هَدْيٌ والعدوُّ صديقُ

وحيث أنه جعل علىٰ سائر عبيده وحواشيه خدمةً معينةً، فإذا أجاز أحدُهم لنفسه أدنى تهاون أو تكاسل بأدائها، لابد أن يأتيَ في مَعرِض الخطاب ومحل العتاب ما عدا طائفةَ الدراويش فإن شكر نعمة الكبراء وذكرَ الجميل والدعاء بالخير واجب عليهم، فهؤلاء أداؤهم للخدمة في الغيبة أولىٰ من الحضور، إذ العمل في الحضور أدنىٰ إلىٰ التصنع، وفي الغيبة أبعدُ عن التكلف.

رجز

قومت باليمن اعوجاج الفلكْ	يا واحداً في الدهر لا ندَّ لكْ
وخصكَ الرحمان دون الورى	بالحكم إذ كنت به أجدرا
مَن يفعلِ الخير بهذا الوجودْ	يبقَ اسمُه حياً بظل الخلودْ
إن أوجز المُداح أو أطنبوا	فمَنْ بهذا الفضل لا يَعجبُ

بيان العذر عن التقصير في الخدمة وموجب اختيار العزلة

إن السبب بالتقصير والتقاعد عن المواظبة في خدمة سدة المولى

هو بناءً على ما أذكره، وذلك أن طائفة حكماء الهند كانوا يتكلمون بفضائل بُزَرْجَمِهْرَ، فما عرفوا له في النهاية عيباً سوىٰ أنه بطيء النطق إذا تكلم، يعني أنه يتأنّى كثيراً، فيلزم علىٰ المستمع أن ينتظر طويلاً حتىٰ ينتهي من تقرير كلامه، فسمعهم بزرجمهرُ فقال: إطالة الفكرة بما أريد أن أقول خير من غصة الندم علىٰ ما قلت.

رجز

لا يرسل القول جُزافاً ذو الحجى	ما لم يفكر فيريك المعجزا
إياك والنطقَ بلا تأملِ	فليس يغتم امرؤٌ لم يعجلِ
فكرْ طويلاً ثم أطلق النفس	من قبل أن تخزي إذا ما قيلَ بَسْ
بالنطق فُضلتَ علىٰ البهائمِ	فأحسنِ المنطقَ يا ابنَ آدمِ

فكيف الحال في نظر أركان حضرة مولاي وهو مجمع العارفين ومركز العلماء المتبحرين، فلئن تسرعتُ وسقتُ الكلام أكون قليل الأدب والاحتشام، وكيف أعرِض بضاعتي المزجاةَ بحضرة العزيز، والخرز في سوق الجوهريين لا يساوي قيمة حبة شعير، والسراج أمام الشمس لا يضيء له ذُبال، والمنارة العالية في سفح جبل (أَلْوَنْدَ[1])

١- الوند بفتح الهمزة والواو وسكون النون جبل شاهق جداً من جبال همدان، يضرب به

تظهر كالخِلال.

رجـز

من رفع الرأسَ وراز صحبَهُ   رام العدى من كل صوب حربَهُ
حُرِّرتَ يا سعدي من المثالبِ   أيُّ امرئً يطلب حرب الهاربِ
فكرْ كثيراً ثم إن شئت قلِ   إن الجدار بالأساس يعتلي
مَلكتُ نخلاً ليس في بستانِ   ولي حبيب ليس في (كَنْعانِ)

قالوا للقمان الحكيم: ممن تعلمت الحكمة؟ قال: من العميان؛ لأنهم لا يضعون أقدامهم بمحل حتىٰ يختبروه.

قدِّمِ الخروجَ قبل الولوج. مصراع (قبل الزواج حققِ الذكورَة).

نـظم

مهما يُرَ الديكُ ذا صَوْلٍ فليس لهُ   أيُّ اقتدار أمام الباز ذي الظفُرِ
فالهر ليث علىٰ الفئران قسورةُ   لكنه فأرة إن قيسَ بالنمِرِ

ولكن بالاعتماد علىٰ سَعة أخلاق الكبراء الذين يغضّون أبصارهم

المثل في العلو.

عـن عـيوب أتـباعهم، ولا يـجتهدون فـي إفشـاء أسـرار جـرائـم الصغار، قد درجنا نبذة مـن الكـلام فـي طـي هـذا الكـتاب، «نـوادر وآثار وحكايات وأشعار وسـيَر لملوك غـبروا مـن ذوي الاعـتبار». وبذلنا لذلك جزءاً من العمر العزيز، فهذا هو الموجب لتصنيف كتاب (گلستان)، وبالله التوفيق.

قطعـة

يبقىٰ طويلاً نظامُ الجسم مجتمعاً   وكل ذرّاته يوماً ستنتثرُ
وقصدنا أن سيبقىٰ ذكرنا أبداً   ولا خلودَ علىٰ الغبراء فاعتبروا
لعل دعوةَ ذي تقوىٰ ستشملُنا   إنا لعَطف رجال الله نَفتقِرُ

إن امعان نظري قد لاحظ المصلحة في ترتيب الكتاب وتـهذيب الأبواب، حتىٰ اتفق أن تجلتْ هذه (الروضةُ) الغناء والحديقة الغلباء في ثمانية أبواب كأبواب الجنة؛ ولهذا السبب جاءت مختصرةً حتىٰ لا تكون نهايتُها مملة.

الباب الأول في سيرة الملوك

الباب الثاني في أخلاق الفقراء

الباب الثالث في فضل ا لقناعة

الباب الرابع في فوائد السكوت

الباب الخامس في العشق والشباب

الباب السادس في الضعف والشيخوخة

الباب السابع في تأثير التربيَة

الباب الثامن في آداب الصحبة

قطعـة

ما بين رقمي ستة ضَعْ خمسةً   تجد بتاريخ الكتاب بهجةً
لقد أردنا النصح في هذا العملْ   ما خاب يوماً من على الله اتكلْ

الباب الأول:

في سيرة الملوك

١ـ حكاية

سمعتُ أن ملكاً أمر بقتل أسير، ولما عرف ذلك المسكين أنه هالك لا مَحالةَ أخذ يشتم الملك بلغة غريبة، وينال منه بأقذع الألفاظ. ومما هو معروف أن كلَّ من يقطع أمله من الحياة لا يبالي أن ينطق بما ينطوي عليه فؤاده.

شعر عربي الأصل

إذا يئس الإنسان طال لسانه　　كسنّور مغلوب يصول على الكلبِ

بيت

قد يمسك المرء مضطراً شَبا خَـذِم   إن لم يجد مهرباً في المأزِق الحرجِ

فسأل الملك عن معنىٰ ما يقول، فأجابه أحد الوزراء وكـان مـحباً للخير: أيها الملك، إنه يقول: «**والكاظمين الغيظَ والعافين عن الناس**» فأشفق الملك علىٰ ذلك المسكين وأمر بإنقاذه مـن مـخالب المـنون، وكان في المجلس وزيرٌ بينه وبين زميله خصومة، فقال: لا يليق بأمثالنا معشرَ الوزراء أن يتكلم أحدنا بحضرة المـلك إلّا بـالقول المسـتقيم، وإن هذا الأسير شتم الملكَ بما لا يليق. فاكفهرَّ عندئذ وجهُ الملك من كلامه وقال: إن ما ترجمه لي خصمُك وإن كان كذباً إلا أنه لقي عندي قبولاً أكثر من صدقك، لأن ذلك الكذبَ كان منه لغرض نبيل، وهذا الصدق جاء منك منطوياً علىٰ اللؤم، وقديماً قالت الحكماء: الكـذبُ الذي يجر من ورائه نفعاً خيرٌ من الصدق الذي يثير فتنة.

بيت

إن كنت للمليك قدوة فلا   تقل سوىٰ الصحيح وانف الدَّغلا

وكان مكتوباً علىٰ شُرفة إيوان أَفريدونَ هذه الأبيات:

أخي لم تكن دنياكَ دارَ إقامةٍ فعلّقْ إذن بالله قلبَكَ واستغنِ
ولا تنخدعْ فالمُلك ليس مخلَّداً ودنياك كم رَبَّتْ نظيرَك للدفنِ
سواءُ إذا ما الروحُ طارت لربها أتُدرجُ بالديباج أم كفنِ القطنِ

٢ـ حكاية

رُويَ أن أحد ملوك خُراسانَ رأىٰ السلطان محموداً بنَ سبكتكين في المنام بعد وفاته بمائة عام، أنَّ وُجودَهُ قد انحلَّ وصار تراباً ما عدا عينيه فإنهما ما تزالانِ تُبصرانِ وبمحجريهما تتحركان، وقد عجز سائرُ الحكماء عن تأويل هذه الرؤيا. غير أن درويشاً عبَّرهما خيرَ تعبير، فقال: هو ناظر الآن، فملكه باقٍ وإن انتقل بيد الآخرين.

قطعة

كثيرونَ مشهورونَ غابوا بحفرةٍ ولم يُلفَ ما بين الأنام لهم رسمُ
وشيخ ثوي في الرمس للدود طعمة فما بان من أشلاء رمته عظمُ
وطار أنوشِروانُ بالخير صيتُهُ وإن لم يكن يلفى له بيننا جسمُ
ألا فاغتنم يا ذا الحجىٰ الخيرَ قبلما يُعفّي علىٰ آثار أصدائك الردمُ

٣ـ حكاية

سمعت أن ابنَ ملك كان قصيرَ القامة دَميماً، بخلاف اخوته فقد كانوا طوالَ الأجسام حِسانَ الوجوه، فنظر إليه أبوه مرةً بحقارةٍ واستخفافٍ، فأدرك الغلامُ ذلك من أبيه بالفِراسة، فقال: أي والدي، القصيرُ العاقلُ خيرٌ من الطويل الجاهل، وما كلُّ مَن قامتُه عظيمةٌ تكون قيمتُه جسيمةً، فالشاة نظيفة والفيل جيفة.

نظم

قال عن خُبْرٍ نحيفٌ عاقلُ   لسمينٍ أبلهٍ لا يَعقلُ
أضعفُ الخيلِ علىٰ معلفهِ   ألف ألفٍ من حمارٍ أفضلُ

فَسُرَّ أبوه، وارتاح لذلك أركانُ الدولة، وإستاءَ اخوتُه.

نظم

كل امرئ ما لم يكن ينطقُ   عليه في حكمكَ لا تَصدُقُ
لا تَحسَبِ الغابةَ خِلواً دائماً   لعلَّ في الغابةِ نمراً نائماً

وسمعت أنه في زمن ذلك الملك ظهر عدوٌّ شديدُ البأس يُريد مناجزتَه، فلما التقىٰ الجمعان كان ذلك الغلامُ أولَ من ساق جوادَه إلىٰ الميدان، وقال:

قطعة

لم أكن في الحرب ممن يُدبرُ أنا في الحرب لظاها المُسْعَرُ
لا ترىٰ مني سوىٰ رأسي إذا ما تغشته الدما والعِثْيَرُ
بدمي أَلعبُ بالحرب ومَنْ ينهزمْ يُهزمْ وراهُ عَسكرُ

وكرَّ بأثر ذلك علىٰ جيش العدو، وفي مثل رجع الطرف جَدَّل جملةً من الأبطال المجرَّبين، ولما مثل بين يدي أبيه قبَّل الأرضَ وقال:

قطعة

أيا من رأى شخصي حقيراً لضعفهِ متىٰ قيسَ عقلُ المرء يوماً بجسمهِ
وإن ضعيفَ الخيل في حومة الوغى يُفيدُك لا كالثور تُزهى بشحمهِ

وقيل إن جيش العدو كان كثيراً، وهؤلاء نزرٌ يسيرٌ، فهمَّ طائفة منهم بالهرب، فصاح بهم الغلام: ارجعوا أيها الشجعان وإلا ارتديتم ملابسَ

النسوان، فتحمس الفرسان علىٰ أثر صيحته وحملوا حملةً رجل واحد، فسمعتُ أنهم في ذلك اليوم حازوا لواءَ الظفر، فقبَّل الملك ولده بين عينيه وقرَّبه إليه، وفي كل يوم كان يزداد اعتبارُه له حتىٰ جعله وليَّ عهده من بعده، فحسده إخوته ودسّوا له السمَّ في طعامه ورأت أختُه عملَهم من شباك غرفتها فنبهته لمكيدتهم، فرفع الغلامُ يدَه عن الطعام وقال: محالٌ أن يموت النبهاء ليحل محلهم البلداء.

بـيت

أي حر يلوذ في ظل بومٍ　　لو محا الدهرُ كل طير جميلِ

وعلم أبوه بما جرىٰ فدعا إخوته إليه وأنَّبهم علىٰ ما بدر منه، وعيَّن لكل واحد من أطراف المملكة حصةً تُرضيه حتىٰ نامت الفتنة وانحسم النزاع، وكما قيل: عشرة دراويش يضمهم بساط واحد وملِكان لا تُقلهما مملكة واحدة.

قطعة

بنصف رغيف يجتزي ذو قناعةٍ　　وزهدٍ ويُعطي النصفَ للبؤساءِ
ولو حاز إقليماً مَليكٌ لقادَهُ　　هوى الفتح للثاني بدون مراءِ

٤ـ حكاية

استولت عصابةٌ من صعاليك العرب علىٰ رأس جبل، فاعتصمت به وقطعت الطريق علىٰ القوافل التي تمر من شِعبه، فَروَّعتْ رعايا تلك البلدان، وقهرت جنود السلطان. ولما كان ذلك المكانُ من المناعة بحيث يصعب الاستيلاء عليه، تشاور مديرو تلك الناحية من المملكة بالطريقة التي تُنقذهم من أولئك الأشرار وقالوا: إذا استمرت هذه العصابة مدة طويلة علىٰ ما نراه منها، فعندئذ تستحيل عليها مقاومتها.

رجز

تستطيعُ نزع الغرسة الصغيرةِ بعد شهور دون أي كلفةِ
لكن متىٰ مدَّ الزمان جذرَها تعييك أن تنزع عنها قشرها
في البدء سدُّ العين سهلٌ بحجرْ فإن تفضْ لم تُبقِ للفيل ممرْ

وعلىٰ هذا قرروا أن يرسلوا شخصاً من قبلهم ليتجسس أخبارهم حتىٰ إذا سنحت الفرصة تمكنوا من طردهم جميعاً، فتصبح تلك البقعة خِلواً من أثرهم، فأرسلوا عدداً من الرجال الذين عاركوا الدهر ومارسوا الحروب، وأوصوهم أن يكمنوا بشعب الجبل. وفي ذات ليلة

هاجم أولئك اللصوصُ قافلةً ولما رجعوا من غارتهم وقد أنهكهم التعبُ وأعياهم اللغبُ ألقوا غنائمهم واسلحتَهم وأسرع النوم إلىٰ جفونهم فناموا.

بيت

لقد غاب قرصُ الشمس في غيهب الدجىٰ

كما غاب قِدْماً في فم الحوت يونسُ

حتىٰ إذا مضىٰ هزيعٌ من الليل وقد استغرقوا في نومهم، خرج عليهم أولئك الشجعانُ من مكمنهم فأوثقوهم كتافاً، وفي الصباح أحضروهم بين يدَي الملك، فأمر بقتلهم جميعاً. واتفق أن كان بينهم غلامٌ في مَيعة الصِّبا وعنفوان الشباب، رآه أحدُ الوزراء فأعجبته شمائله وغرَّته مخايله فانحنىٰ بين يدي الملك وقد بسط إليه أكف الضراعة مستشفعاً وقال: هذا الغلام يا مولاي لم يتمتع كرفاقه بَريعان الشباب، ولم يقتطف بعدُ ثمار الحياة، ولذلك فإنني أتوسل بكرم أخلاق الملك أن يهب لي دمَه فيطوق عبدَه بهذه المنة أبدَ الدهر. فما كانمن الملك إلّا أن اكفهرَّ وجهُه لأن هذا الكلامَ لم يوافقْ رأيَه السامي فقال:

بـيت

لا يستقر العُرف مَعْ ذي طينةٍ فاسدةٍ كالجوز في أعلىٰ القَببْ

فالأولىٰ والأفضل أن ينقطع نسل هـؤلاء الأشـرار وأن تُسـتأصلَ جرثومتهم من أساسها، فليس من عمل العقلاء أن تُخمد اللهب وتترك الجمر، وأن تقتل الأفعىٰ وتحتفظ بفرخها.

قطعـة

فلو حباك الحيا ماءَ الحياة لَما طَعمتَ دهرَكَ من صَفصافةٍ ثمراً
يا من أضعت مع الأشرار عمرك ما جنيتَ من حنظلٍ شهداً ولا سَكَراً

سمع الوزير هذا الكلام فتظاهر بـقبوله وأثـنىٰ عـلىٰ حسـن رأي الملك. ولكنه قال: إن ما أمر به الملك هو عين الحقيقة، فلو أن هـذا الغلامَ بقي مع اولئك الأشرار وتـربّى تـربيتَهم، فـلابد إذن أن تـلزمَه طبيعتُهم، أمّا أنا فآمل أنه سيتربىٰ تـربية الصـلحاء ويـتمسك بـطبيعة العقلاء، لأنه لا يزال طفلاً لم تتأثرْ نفسه بسيرة البغي والعناد التي درج عليها جماعته. وفي الحديث: «ما من مولود إلّا وقد يولد علىٰ الفطرة، ثم أبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه».

قطعـة

لم يفدها فضلُ النبوة شيئاً زوجُ لوطٍ لصحبة الأشرارِ
وتعالى عن جنسه كلب أهل الـ ـكهف صيتاً لصحبة الأخيارِ

هذا ما تشفع به الوزير وأعانه في هذه الشفاعة طائفةٌ من الندماء حتىٰ عفا الملك عن دمه، ولكنه قال: وهبتُ وإن لم أرَ في الهبةِ مصلحة.

رباعية

أتعرف ماذا قال (زالُ) لـ (رستم) عدوُّكَ لا تحقره في حومة الحربِ
فإنْ قيل الماء في العين ربما يفيض فيلوي بالركابِ وبالركبِ

وصفوة القول أن الوزير أخذه الىٰ بيته ليرفُلَ بحلل إنعامه، وعين استاذاً أديباً لتربيته، فتعلم حسنَ الخطاب وردَّ الجواب وسائرَ الآداب الملوكية حتىٰ حاز إعجاب الجميع. وذات مرة أطرىٰ الوزير بعضاً من شمائله بمجلس الملك ومما قال فيه: إن تربيةَ العقلاء أثرت فيه تأثيراً حسناً وتلك الجهالة المتأصلة فيه إمَّحت من طبيعته، فتبسم الملك من هذا الكلام وقال:

بيت

فالسَّمْعُ عُقباه ذئب فاتك خَطِرٌ ولو تربّى مع الإنسان في الْمُدُنِ

مرت علىٰ هذه الحالِ سنةٌ أو سنتان فاتصلت بالغلام طائفةٌ من أوباش المحلة، فعقدَ معهم اتفاقاً علىٰ خيانة الوزير حتىٰ اذا سنحت له الفرصة قتل الوزيرَ وابنيه وأخذ كلَّ ما لديه من المال وذهب مع رفاقه الىٰ مغارة اللصوص، وقام مقامَ أبيه وأصبح عاصياً، فتحير الملك وعض بنانَ الندم وقال:

قطعة

من رديء الحديد يمكن أن تصـ ـنع يا ذا الحجا حساماً صقيلاً
غير أن اللئيمَ مهما تربَّى فمحالٌ أن يستحيل نبيلاً

قطعة

لن تحصدَ السنبلَ من سَبخةٍ فلا تُضعْ بذركَ فيها سُدىٰ
والشر لا تفعله مع خيّرٍ ولا تُنِلْ يوماً لئيماً جداً[١]

١- الجدا: العطية.

٥ـ حكاية

رأيت علىٰ باب ايوان (أُغْلُمِشْ[١]) ابنَ (شاويش) زائد الوصف في العقل والكياسة، والفهم والفراسة، ومع حداثة سنه فإن آثار العظمة بادية علىٰ ناصيته.

بيت

كوكبُ الرفعةِ في أعلى المحيا   مُشرق مذ كان في المهد صبياً

وبالجملة فقد جاء مقبولاً بنظر السلطان، لجمال صورته، وكمال معناه. كما قالت الحكماء: بالمعرفة الغنىٰ لا بكثرة المال، وبالعقل لا بِكِبَرِ السن الكمال. فحسده أبناء جنسه واتهموه بخيانةٍ، وسَعوا لإتلافه ولكنْ بغير طائل.

ما للعدو إذا الحبيبُ موافقٌ

فسأله الملك: ما هو الموجب للخصام بينك وبين أولئك اللئام؟ فأجاب: لقد أرضيتُ كلَّ من في ظل دولتك إلّا هؤلاء الحساد، فإنهم لا يرضون إلّا بزوال نعمتي، ولتبق دولتكم بالسعد والإقبال.

١- اسم ملك من نسل جنكيزخان.

قطعة

في قدرتي ألَّا أكدرَ صاحباً   لكنْ حسودي لم يكن بملائِمِ
متْ يا حسودُ فغيرُ موتك لم يكن   فيه خلاصُك من عذابٍ دائمِ

قطعـة

ذو الطالع النحس يهوي جُهدَ طاقته   زوال نعمة ذي جاه وإقبالِ
ما ذنبُ شمس النهار الصحو إن عَشِيَتْ   عينُ الخفافيش عنها في السنا العـالي
اَلحقَّ تبغي؟ أُلوفُ مثلُ تلك بها   أولى العمى وتُنيرُ الشمسُ آصالي

٦ـ حكاية

حُكي أن أحد ملوك العجم كان قد أطال يدَه إلىٰ أموال الرعـية، وباداهم بالجور والأذية، فضربَ الناسُ في الأرض هـرباً مـن مكـايد ظلمه، وفضلوا الغربة علىٰ المذلة من كُربة جَوره، فإذا نقصت الرعـية قبلت الولايةُ النقصانَ، وفَرغت خِزانة الدولة، وأخذ الأعداء يهددون المملكة بالقوة من كل مكان.

قطعة

إذا رمت يوم النحس تحظى بمسعفٍ   فبَهْمكَ يومَ السعد أَمعن بها نحرا
يفر اللئيمُ القِنُّ إمَّا عسفتَهُ   وباللطف والمعروف تَستعبدُ الحُرّا

وفي يومٍ من الأيام كانوا يقرأون بمجلسه كتاب (الشاهنامه) في زوال مملكة (الضحاك)، وقيام دولة (أفريدونَ)، فسأل الوزيرُ الملكَ: كيف أصبحت السلطنة لأفريدون مع أنه ما كان له مُلكٌ ولا مالٌ ولا حَشمٌ، فأجابه الملك: كما سمعتَ أنتَ أن خلقاً تعصبوا له فقوّوه وأيَّدوه فنال بهم المُلْكَ، فقال له الوزيرُ: إذا كان تَعصُّبُ الناسِ وتأييدُهم يوجبُ السلطنةَ فلماذا شتّتَ شملَ رعيتك وأبعدَتها عنك؟ فإذن أنت لا تريد أن تتمسك بالسلطنة.

بيت

بالرُّوح لا بالعسفِ رَبِّ الجندا   حتىٰ تكون السيدَ المُفَدَّى

فسأله الملك: ما الذي يؤدي إلىٰ جمع الجند والرعية؟ فقال: يلزم على الملك أن يكون عادلاً حتىٰ تلتفَّ حوله الخلقُ، وأن يكونَ رحيماً حتىٰ تعيشَ الناسُ آمنة بظل دولته، وأنتَ عاطلٌ من هذين الحليتين.

قطعة

من حلية المليك منعُ الظُّلْم   فالذئبُ ليس راعياً للبَهْم
بالظلم مَنْ أعلىٰ بناءَ دولتِهْ   يَقلعْ من الأساس صرحَ عِزتِهْ

ولَمَّا لمْ تأتِ نصيحةُ الوزيرِ موافقةً لطبع الملك أَمرَ بأن يُقيَّدَ ويُزَجَّ به في غَيابةِ السجن، فلمْ يمضِ زمنٌ طويل حتىٰ قام أبناءُ عم الملك لمنازعته وجهزوا العساكرَ لمقاومته وطلبوا مُلْكَ أبيه. فاجتمع عليهم أولئك الذين يئسوا منه وانضموا إلىٰ الذين تفرقوا عنه، فقووا أَبناء عمه حتىٰ انتزعوا في النهاية المُلكَ من تصرفه، وتحررت المملكة علىٰ أيديهم من ذل عبوديته.

قطعة

إذا مَلِكٌ بالظلم روَّعَ شعبَهُ   فمن صحبه في الضِّيق يُرهقه الكَربُ
فشعبَك صالحْهُ ومن خصمك استرحْ   فكلُّ مليكٍ عادلٍ جندُهُ الشَّعبُ

٧ـ حكاية

حُكي عن بعض الملوك أنه ركب سفينة وبصحبه غلام أعجمي لم

يرَ البحرَ أصلاً، ولم يجرّب محنة السفينة، فابتدأ يصرخ ويئنّ وقد تهافت علىٰ نفسه وهو يرتعد من الفرق. وبمقدار ما لاطفه الناس لم يستقر له قرار، فتنغَّص عيش الملك حيث أعيته به الحيلة، وصادف أن كان في تلك السفينة حكيمٌ، فقال للملك: إذا أمرت فإنني سأُسكته. فأجابه الملك: تكون بذلك قد بلغت غاية اللطف. فأمر بأن يُلقى الغلام في البحر، فتقاذفته الأمواجُ حتىٰ إذا أشفىٰ على الهلاك أمر أن يُجذب من شعره إلى السفينة، فتشبث الغلام بكلتا يديه بسكانها؛ ولمّا أحسّ أنه أصبح علىٰ سطحها جلس منزوياً واستقرّ آمناً. فكبُر عندئذ تدبير الحكيم بعين الملك وسأله أن يوضّح له السبب، فقال: إنّ الغلام يا سيدي لم يتجرّع قبلُ غصّة الغرق حتىٰ يعرف قدر السلامة في السفينة، وكذلك لا يعرف أحد قيمة العافية من النوائب مالم تمرّ علىٰ رأسه المصائب، وتحنكه التجارب.

قطعة

خبز الشعير قبيح عند من شبعوا　　ونورُ حِبي لدى الحسّاد كالظُّلَم
حور الجنان على الأعراف في سقرٍ　　ومن بها تحسد الأعراف من ألَمِ

بيت

كم بين من كفه بالصدر عابثةٌ وبين من عينه للباب ترتقب

٨ ـ حكاية

قالوا لهرُمُز صاحب التاج: ماهو الخطأ الذي رأيته من وزراء أبيك حتىٰ أمرت بحبسهم جميعاً؟! فقال: ما عرفت منهم خطأ، ولكن رأيت مهابتي شديدة علىٰ قلوبهم، وأنهم ليسوا معتمدين اعتماداً كلياً علىٰ عهدي فخشيت أن يلحقني من خوفهم الضرر فيقصدوا هلاكي، فعملت إذن بقول الحكماء حيث قالوا:

قطعة

من بات يخشاك فاخشَ الفتك منه ولو عليه بالحرب ألفاً فُزتَ بالظفرِ
أما ترىٰ الهرَّ مَعْ ضعفٍ به رُبما نالت مخالبه من مقلة النّمرِ
وربما تلدغ الأفعى مصادفَها كيلا يحطم منها الرأسَ بالحجرِ

٩ـ حكاية

يروى أن ملكاً من ملوك العرب المعمرين مرض مرضاً شديداً

أشفىٰ به علىٰ التلف حتىٰ قطع أمله من الحياة، وبينا هو علىٰ حالة يعالج فيها ألم النزع إذ دخل عليه فارس يحمل إليه بشرى فقال: لقد فتحنا القلعة الفلانية تحت ظل راية مولانا الملك، وأسرنا الأعداء وأصبحت رعايا تلك الجهة بظل حمايتكم، فلما سمع الملكُ هذا الكلامَ أرسل حسرة تقطعت لها نِياط قلبه وقال: ليست هذه البشرىٰ لي ولكنها للأعداء «يريد وارثي مملكتِه من بعده».

قطعة

جاء البشير وللحلقوم قد وصلتْ روحي وعما قريب ينطوي خبري
نلت المراد ولكن أيُّ فائدةٍ وليس لي أملٌ في عَودةِ العمُرِ

قطعة

بيد الموت دُقَّ طبل الرحيلِ يا له اللهُ من فراق طويلِ
ودِّعي الرأسَ يا عيوني ونوحي بعد كفي علىٰ البنان الجميلِ
كلُّ عضو مزايل لأخيه فليودعْه راثياً بالعويل
ما أراد الأعداء كان فخُطا لي قبراً علىٰ الثرىٰ المطلولِ
أنا بالجهل قد قَضيتُ حياتي فاحذرا من مزالق التضليلِ

١٠ـ حكاية

اعتكفتُ في بعض السنين بجانب تربة يحيىٰ عليه السلام بالمسجد الجامع بِدَمشقَ. واتفق أن جاء للزيارة أحدُ ملوك العرب، وكان معروفاً بعدم الإنصاف، وبعد أن صلَّىٰ وتضرَّع لقضاء حاجته.

بيت

أخو البؤس والمثري فقير ببابه　　وأكثرهم مالاً أشدُّ له فقراً

التفت إليَّ وقال: مِن هذا المقام الذي هو مَبْعثُ همة الدراويش وصدقِ معاملتهم وَجِّهِ الخاطرَ بمرافقتي، فإنني في تفكرٍ ووسواسٍ من عدوٍ لي صعبِ المِراس. فقلت له: ارحم ضعفَ رعيتك حتىٰ لا ترىٰ صعوبةً من قوة عدوك.

قطعة

أبقوةٍ في ساعديك ولكْمةٍ　　بالجُمع تخضُدُ شوكة الضعفاءِ
خَفْ إن وقعتَ ولم تجد لك راحماً　　أو مَنْ يَمُدُّ إليك كفَّ ولاءِ

من يزرع الفعل القبيحَ ويرتجي طِيب الجنى يحصدْه شرَّ جَناءِ
فإليَّ ألقِ السمعَ واعدل في الورى أو لا فيومُ الحشر يوم جزاءِ

رجز

اَلناسُ كالأعضاء في التساندِ لخلقهمْ من كُنه طينٍ واحدِ
اذا اشتكىٰ عُضوٌ تداعى للسهرْ بقيةُ الأعضاء حتىٰ يَستقِرْ
إنْ لم تُغَمَّ لمصاب الناسِ فلستَ إنساناً بذا القياسِ

١١ـ حكاية

ظهر ببغداد درويش مُستجابُ الدعوة. فدعاه الحجاج بن يوسف إليه وقال له: أُدعُ لي دعوةَ خير. فقال: رب خذ روحَه. فقال الحجاج: يا لله ما هذا الدعاء. فقال الدرويش: دعاء خيرٍ لكَ ولجميع المسلمين.

رجز

يا من علا وانحطَّ في الأذيهْ حتىٰ متىٰ ظلمُك للبريهْ
وبانيَ الملك بلا أساسِ موتُك خيرٌ من عذاب الناسِ

١٢ـ حكاية

حكوا أن ملكاً قليل الإنصاف سأل عابداً: «أيُّ العبادات أفضل» فأجابه: نومُ نصفِ النهار، حتىٰ تستريحَ الخلقُ من أذاك في تلك الفترة من الزمان.

قطعة

رأيتُ غشوماً في الظهيرة نائماً　　فقلتُ ليومِ الحشر يا فتنةُ ارقُدي
وكل امرئٍ في نومه يقظةُ العلىٰ　　ففي موتهِ للشعب إحياءُ سؤدَدِ

١٣ـ حكاية

سمعت أن ملكاً كان يُحيل ليلَه نهاراً بالأسمار وفي نشوة سكره كان يقول:

بيت

لم يُلفَ في الكون صفوٌ مثل ساعتنا　　اَلسعدُ وافي فلا غمٌّ ولا كدرُ

وكان هناك درويشٌ يَرْقُدُ خارجَ القصر عاريَ الجسد سمعه فأنشد.

بيت

يا من كإقباله ما في الورى أحدُ   إن لم تُكَدِّرْ ألسنا نحنُ في كدرِ

سمعه الملك فاستحسن قوله، وتناول صرة فيها ألفُ دينار ليلقيها إليه من الشباك وصاح به: أيها الدرويش أجمع ذيل ثوبك وتلق ما أهَبُهُ لك. فقال له الدرويش: ليس لي ثوب فأجمع ذيله. فأشفق الملك عليه كثيراً ورقَّ لضعف حاله. فأرسل إليه زيادةً علىٰ ذلك خلعةً سنية. وبعد أن أتلَفَ الدرويشُ المال بأقصر مدة رجع إلىٰ حالته الأولىٰ خاويَ البطن عاريَ الجسد.

بيت

لا المالُ في كف حرٍ يستقر ولا   صبرُ المحب ولا ماءُ بغربالِ

وفي ساعة ليس بوسع الملك أن يلتفت بها لمثله، قصوا عليه قصته، فانقبض صدره وحوَّل عنهم وجهَه. ومن هنا قال أصحاب الفطنة والخبرة: إن من الواجب الحذر من حدة الملوك وسورتهم. لأن غالبَ

همة أولئك منصرفةٌ لحل معضلات الدولة وأمور المملكة وليست لازدحام العوام ولجاجتهم.

رجز

مواهبُ المُلْك حرام والمنْ   علىٰ الذي يُضيع فرصة الزمنْ
لا ترسل الكلام قبل الفكْرِ   ينحط منك القدرُ تحت الصفرِ

وقال: اطردوا هذا المبذرَ الوقحَ الذي بعثر هذا المقدارَ من النعمة بأقصر مدة، ألا يعلمُ أن خزينة بيت المال إنما هي لسد حاجة المساكين وليست طعمةً لإخوان الشياطين.

بيت

من يوقد الشمع في رأد الضحىٰ سفهاً   ففي الدُجىٰ ليس يلفي الزيتَ في السُرج

فقال أحد الوزراء الناصحين أيها الملك إنني أرىٰ من المصلحة لمثل هؤلاء أن تُجريَ عليهم أرزاقَهم متفرقةً علىٰ وجه الكفاف حتىٰ لا يتمكنوا من الإسراف، أما ذلك الذي أمرتَ به من الزجر والمنع فلا يناسبُ سيرة أرباب الهمة، فالذي جذبته باللطف إليك لا يليق أن تُعيدَه يائساً مكلومَ الفؤاد.

بيت

إذا بابَ إنعامٍ فتحتَ لطامعٍ   فإغلاقه في وجهه ليس بالسهلِ

قطعة

تأبى العطاشُ ورودَ ماءٍ آجنٍ   والحَرُّ يُرمِضُ في الحجاز ويُجهدُ
وعلى الغدير العذب تزدحم الورىٰ   والعيس ترتع والطيور تغردُ

١٤ـ حكاية

كان أحد الملوك الأقدمينَ غافلاً عن رعايةِ مملكته سائراً بالشدة مع جنده، فلما ظهر لهم بوجهِ العدو الصعب، أداروا له قفاهم في الحرب.

بيت

إذا لم يجد بالمال مَلْكٌ لجنده   فليست بوجه الخصم تَشهر صارماً

وكان لأحد أولئك الغادرين معي صداقة، فأنحيت عليه باللائمة

قائلاً: إن الوغدَ الدنيءَ ناكرَ الجميل هو ذلك الذي يُعرض عن ولي أمره القديم لأقل تغير في حالته، ويطوي حقوق تلك السنين الطوال من نعمته. فقال: لعلك تقبل عذري إذا قلت لك: إن حصاني كان بلا شعير وأن لباد سرجه مرهون. إذن فالسلطان الذي يَضِنُّ علىٰ جنوده بذهبه لا يمكن أن تجود له في الملمات بأرواحها.

بيت

الجند يجذبهم صوت النضار فمن   لم يعطهم ذهباً عن ملكه ذهبوا

شعر عربي الأصل

إذا شبع الكمي يصول بطشاً   وخاوي البطن يبطش بالفرارِ

١٥ـ حكاية

عُزِل أحدُ الوزاء من منصبه، وانتظم بسلك الدراويش فأثرتْ فيه بركةُ صحبتهم، وحظيَ باليد العليا من جمعية خواطر رغبتهم، فرضي عنه الملك مرة أخرىٰ، وأمره بالعمل فلم يقبل. وقال: الاعتزال خير من الاشتغال.

رباعية

الزاهدون المنزوون عن الورىٰ كموا فمَ الإنسان والحيوان
كسروا اليراعَ مزقوا أوراقهم وتخلصوا من هجو كل جبان

فقال الملك: لابد لنا من رجل عاقل ذي كفاءة، جدير بتدبير المملكة فقال له: من علامة العقل والكفاءة ألّا يُضني المرء جسده بمثل تلك الأعمال.

بيت

أفضل الطير (الهُما) لم يفترس حَيواناً حيث بالعظم اغتذى

مَثَل: قالوا (لعناق الأرض[1]) بأي وجه وقع اختيارُك علىٰ ملازمة صحبة الأسد. فقال: حتى آكل فضلةَ صيده، وآمنَ علىٰ حياتي بفضل صولته من شر أعدائه. فقالوا له: ما دمتَ الآن بظل حمايته، معترفاً بشكر نعمته، فلماذا لم تَزدَدْ منه قرباً فيحضرك بمجلسه الخاص به،

١- (عناق الأرض) حيوان من عائلة السنور، وهو أكبر منه قليلاً. له خصلة من الشعر الأسود في أعلىٰ كل من أذنيه، وهو من الجوارح الصائدة.

ويَعُدك من مخلصي خدمه. فقال: ومع كل هذا فلست آمن من بطشه.

بيت

فلو عبد النارَ المجوسيُّ دهرَه وطاحَ بها يوماً ستحرقه حتماً

إذ نديمُ حضرة السلطان تارةً يجد الذهبَ وتارة يتعرض رأسُه للعطب. وقد قالت الحكماء: يجب الحذر من تلون طبع الملوك لأنهم ربما جازوا علىٰ السلام بالآلام وعلىٰ الشتيمة بالخلع الجسام. وقالوا: كثرة الظرافة عرفان للندماء وعيب للحكماء.

بيت

إعرف لنفسك قدرها بوقارها ودع الظرافةَ للنديم الماجن

١٦ـ حكاية

جاء إليَّ أحدُ الرفاق بشكاية من جَوْر الزمان، فقال: رزقي قليلٌ وعيالي كثيرٌ، وليس لي طاقةٌ علىٰ احتمال الفاقة، وإني لمهاجرٌ إلىٰ إقليم آخر أعيش به بضنك أو رفاه، فلا يطَّلع علىٰ حالتي أحد من الأعداء أو الأصدقاء.

بيت

كم نام بالجوع لا تدري الأنامُ به   ومات لم يَبْكه من صحبه أحدُ

ثم فكرتُ بشماتة الأعداء، إذ يحملون سعيي أمام عيالي علىٰ عدم المروءة مني، ويطعنونني بقفاي ضاحكين ساخرين فيقولون:

قطعة

أنظر لذاك اللئيم الفسل كيف أبى   بأن يشاهدَ يوماً وجهَ ذي شرفِ
لا يعتني بسوى إشباع رغبته   ولو رأىٰ أهلَه بالنار والتلفِ

وإن لي بعضَ خبرة بعلم المحاسبة كما تعهدني، فلو حصل لي بجاهك عمل مُعينَ، يُريح فكري من عنائه، إذن لما استطعت أن أخرج من عهدة شكرك مدةَ عمري. قلت أيها الصديق: إن خدمة السلطان لها طرفان، الأمل بالثراء وخوف البلاء، وليس من رأي العقلاء أن تبقى بالوجل لأجل هذا الأمل.

قطعة

لم يأت يوماً من يُطالب معدماً   بخراج كرْم أو خراج حصيدِ

إرضَ الحياةَ بغُصةٍ ومرارةٍ أوضَعْ كُلاكَ أمامَ زاغ البيدِ

فقال: إن هذا القولَ لم يكن موافقاً لحكاية حالي، ولم يأتِ جواباً لسؤالي. أوَ لم تسمع ما قيل: كل من بنفسِه يرتابُ، ترتعش يدهُ عند الحساب.

بيت

في الاستقامة ما يُرضي المليكَ وما ضاعَ امرؤٌ في طريقٍ لاحبٍ أبدا

وقالت الحكماء: أربعةٌ ترتعد فرقاً من أربعة: اللص من السلطان، والسارق من الخفير، والفاسق من الغماز، والزانية من المُحتسِب. ولماذا يخاف من المحاسبة من كان نظيفاً في الحساب.

قطعة

مناصب الحكم لا تذهب لها فرحاً حتىٰ بعزلكَ لا يهنا أخو حسدِ

يُنحي علىٰ الثوب قصاروه من وسخ فكن نظيفاً ولا ترهب صدى أحدِ

فقلت له: إن حكاية ذلك الثعلب تناسب حالك إذ رأوْه هارباً

لايلوي علىٰ شيء، حائراً مضطرباً لا تكاد تحملُه قوائمه. فقال له شخص: ويحك ما دهاك، وما الداعي لهذا الاضطراب الذي أنت فيه؟ فقال: سمعتُ أنهم يأخذون الجمال للسخرة. فقال له: أيها السفيه الأحمق، ما هي مناسبتك للجمل وما هي مشابهتك له؟ فقال: صَهْ أيها الأبله، إذا قال حسود مُغرض: هذا جمل، وعَلِقوا بي فمَنْ عندئذ يسأل عن حالتي فيخلصني من كُربتي؟ وإلىٰ أن يُجلب الترياق من العراق يكون لديغ الحية قد نفضتْ يدَها منه الرفاق. وأنت ذو فضل وديانة، وتقوىٰ وأمانة، غير أن الحسَّادَ الكامنين كالخبايا والمدعينَ القابعين في الزوايا، إذا أتوا علىٰ سيرتك الطيبة بالنقد والتجريح، وجئتَ في معرض خطاب الملك ومحل عتابه، فمن عندئذ يستطيعُ أن يدافع عنك بمقال في مثل ذلك المجال؟ وقلتُ له بعد أن ضربتُ له المثلَ: أرىٰ أن من مصلحتك أن تحتفظ بمُلك القناعة، وتصرف نظرك عن طلب الرياسة، كما قال العقلاء:

بيت

في البحرِ دُرٌ ليس يُحصى نفعُه   أما السلامةُ فهي عندَ الساحلِ

فلما سمع رفيقي هذا الكلام اكفهرَّ وجههُ وأخذ يـرشقني بسـهام الملام قائلاً: ما هذا الفهمُ والكياسة، والعقل والفِراسـة! فـلقد صـدق الحكماء حيث قـالوا: الأصـدقاء هـم الذيـن يـنفعونك عـند الضـيق والبُرَحاء، لا الذين يُظهرون لك الصداقة علىٰ مائدةِ الشراب وهم لك أعداء الداء.

قطعـة

ليس خلا من بات يُطريك في النُّعـ ـمى كثيراً ويَزدهي بالإخاء
غير أن الخليلَ من بات بالسر اءِ يحنو عليك والضراء

وإذا رأيته تغير وما فهم القصد من نصيحتي، ذهبتُ إلىٰ صـاحب الديوان وعرضتُ عليه صورةَ حاله، لسابق معرفة بيننا، وبينت له مقدارَ أهليته واستحقاقه، فأسندوا له عملاً بسيطاً، ولم تمضِ أيام حتىٰ رأوا لطافةَ طبعه، وأعجبهم حسنُ تدبيره، فرفعوه من تلك المرتبة إلىٰ مرتبة أعلىٰ، وهكذا ما زال يرتقي به نجم السعادة حتىٰ بلغ به أوجَ الإرادة، فأصبح عند السلطان، يشار إليه بـالبنان، ويُـعتَمدُ عـليه عـندَ الأعـيان. ففرحت كثيراً بصلاح حاله وقلت:

بيت

لا تفكر بالبؤسِ وافرح لتحيا   ماءُ (عينِ الحياة) في الظلماتِ

شعر عربي الأصل

ألا لا تحزنَنَّ أخا البليّهْ   فلِلرحمن ألطافٌ خفيهْ

بيت

إصبر إذا الدهرُ لم يُسعف وعش فرحاً   فالصبر مرٌّ ولكن يُعقب الفرجا

واتّفق لي في ذلك الأوان أن سافرتُ إلىٰ مكةَ مع بعض الإخوان، فلما عدتُ من الزيارة استقبلني من مرحلتين، فرأيته بهيئة الدراويش، مشتتَ الأحوال، مبلبلَ الأفكار. فسألته: ما هذه الحال؟ فقال: كما قلت أنتَ. فلقد أتهمني جماعة من الحساد بالخيانة، ولم يأمر الملكُ بالتحري عن كشف حقيقة تلك التهمة، وأصحابي القدماءُ وأخلاي الرحماءُ، جَبنُوا عن النطق بالحقيقة، ونسوْا حقوق تلك الصداقةِ القديمة.

قطعة

أُنظر إلىٰ وضع أَيدي المادحينَ على ... صدورهم حول عرش المَلْكِ ذي الباسِ
وانظر اليهم وقد مال الزمانُ به ... كيف استباحوا له دعساً علىٰ الرأسِ

والخلاصة: أنني عوقبتُ بأشد أنواع العقوبة، حتىٰ وردت البشارة في هذا الأسبوع بسلامة الحجاج، فأطلقوني من قيد الاعتقال بعد أن صادروا كلَّ ما ورثتهُ من المال. فقلتُ له: أنت في تلك الآونة لم تقبل إشارتي بأن عمل السلطان كسفر البحر. فوائده لا تُعدُّ وأخطاره لا تُحدُّ، فأنت إما أن تخرج منه بكنز، وإما أن تموتَ قبل حل ذلك اللغز.

بيت

فإما تُفِدْ منه سبائكَ عسجد ... أو الموج يُلقي منك شِلواً علىٰ السَّيفِ

ولم أر من المصلحة أنْ أنكأ جُرحَ فؤاده بأظفار الملامة. واقتصرتُ بذرّ الملح علىٰ ذلك الجُرح بهذين البيتين:

قطعة

أتدري لماذا حزَّ رجلَك قيدُها ... لأنك لم تعمل بنصح مجربِ

وما دمتَ تؤذيك السمومُ فلا تضعْ   بَنانَكَ طول العمرِ في غارِ عَقْربِ

١٧ـ حكاية

كان في صُحبتي جماعةٌ من المريدين، ظاهرُ حالهم مُزدانٌ بالصلاح، وكان لأحد الأمراء ـ بهذه الطائفة ـ حسنُ ظن بالغ النهاية، فأجرىٰ عليهم مرتّبات تُعينهم علىٰ الحياة، غير أن أحدهم أتىٰ بحركة لا تتناسب مع حال الدراويش، فتغير ظن ذلك الأمير بهم، وكَسدَتْ بضاعتهم بسوقه، فتمنيت أن أجدَ لي طريقة أستخلص بها كفافَ أولئك الأحباب، فقصدتُ خدمةَ الأمير فعاقني البوابُ، وقابلني بالمجافاة، فأعطيت بيده العذر حيث قالوا:

قطعة

حذارِ من الطواف بغير داعٍ   بباب المُلْك أو باب الأميرِ
فطوقُ الثوب للبواب حتماً   وذيل الثوبِ للكلب العقورِ

ولما وقف علىٰ حالي جماعةٌ من مقربي حضرة الأمير، قابلوني بالإكرام، ورفعوني لأعلىٰ مقام، ولكني جلست بأحط مراتب التواضع وقلت:

بيت

أقلّ من العبيد أجِسُّ قدري فمن لي أن أقيم مع العبيدِ

فقال الأمير: (فيا لله ما هذا الكلامُ)

بيت

أُسَرُّ إذا جلستَ بجفن عيني وإما شئتَ فاجلسْ فوق رأسي

وبعد أن جلستُ واصلتُ الحديثَ معه في كل باب، حتىٰ عَرضَتْ زَلَّةُ الأحباب فقلت:

قطعة

يا سابق الإنعام أيةُ زلةٍ للعبد تُكبرها وعفوُك أكبرُ

فاللهُ ذو لطف علمت وعزةٍ لم يمنعِ الرزقَ امرءاً لا يشكرُ

فارتاح الحاكم لهذا الكلام، وأمر بأن يهيئوا أسبابَ معاش أولئك الأصدقاء علىٰ القاعدة الماضية، وأن يصرفوا لهم أيامَ تعطيلهم فشكرت جزيل نعمته، وقبلت أعتاب خدمته، واعتذرت عن جسارتي، فقبل معذرتي، وعند انصرافي من سدته قلت:

قطعة

ما زالت الكعبةُ الغراء وِجهةَ مَنْ   شوقاً لها لم ينهنهْ عزمَه السفرُ
فالصفح أولىٰ إذن عن مثل هفوتنا   فليسَ يُرجَمُ دوح ما به ثمرُ

١٨ـ حكاية

ورث ابنُ ملك عن أبيه من المال خزائنَ جمةً، فبسط يده لمجتديه، وفتح باب السخاء لقاصديه، وأفاض علىٰ الرعية والجند نعمةً بلا قياس ولا حـدٍّ.

قطعـة

العودُ لا عَرْفَ به لكنه   إن يُلقَ بالنار يَفحْ كالعنبرِ
ابذُرْ من المعروف إن رمتَ العلىٰ   لا تنبُتُ الحبةُ ما لم تُبذَرِ

فأخذ أحدُ جلسائه ينصحهُ لعدم تدبيره بقوله: إن الملوك الذين سبقوك جمعوا هذه النعمة الوافرة بالسعي المتواصل، وكنزوها لِتصرَفَ في سبيل المصالح العامة وفي الأمور الهامة، فقصِّرْ يدكَ عن هذه الحركة، فإن الوقائعَ أَمامَك، والأعداءَ خلفك، فاجتهد ألّا تفجأك الحاجةُ فتجدَ نفسك عندئذ عاجزاً عن دفعها.

قطعـة

أمولاي لو فرقت ما أنت جامعٌ   علىٰ الشعب ما نال امرءاً بعضُ درهمِ
فخذ درهماً من كل شخص ضريبةً   تحُز كلَّ يوم منهمُ كنزَ مغنمِ

فاكفهرَّ وجهُ ابن الملك من هذا الكلام، لأنه لم يأتِ وفق رغبته، فزجر ناصحَه وقال: إن الله عزوجل جعلني مالِكَ أمر هـذه المـملكة لآكل وأهَب، ولم يجعلني خفيراً لأحفظ مالها من العطب.

بـيت

وما خلَّدتْ قارونَ يوماً كنوزُهُ   وذِكرُ أنوشروانَ باقٍ علىٰ الدهرِ

١٩ـ حكاية

مما يُوثَرُ عن أنوشروانَ العادلِ أنه جيءَ إليـه بـطريدة فـي مـحل الصيد، فلما أرادوا شيَّها أعوزهم المـلحُ، فأرسـلوا غـلاماً إلىٰ القـرية ليجلب ما يلزمهم منه، فقال أنوشروانُ: اشتروا الملحَ بثمن لئلا يكونَ ضريبة فتخربَ القريةُ. فقالوا له ما هو الضررُ الذي يَحصُلُ مـن هـذا

المقدار، فقال: الظلمُ في الدنيا كان في بدايته قليلاً، وكلُّ شخصٍ أتىٰ كانَ يزيدُ فيه حتىٰ وصل إلىٰ هذه الدرجة التي تَروْنها.

قطعة

من جَنَّةِ الشعب إن مَلْك جنى ثمراً فللعبيد بأن تستأصلَ الشجرا
وإن شوى خمسَ بيضاتٍ بلا ثمن فالجندُ من حقها أن تشويَ البقرا

بيت

ما إنْ يدومُ أخو ظلم فنغبَطه لكن تدومُ عليه لعنةُ الأبد

٢٠ـ حكاية

سمعت أن عاملاً كان يخرب بيوت الرعية ليعمر خزائن السلطان، وغفل عن قول الحكماء حين قالوا: كل من يُغضبُ الملكَ الجبار بتسلطه علىٰ قلب أحدِ خلقِه بالأضرار، فإنه تعالىٰ يسلط عليه خلقه حتىٰ ينتقموا منه فيهلكوه.

حكمة: يقولون أن الأسد سيدُ جميع الحيوانات، والحمارَ أخسُّها،

وباتفاق العقلاء أن الحمار الذي يحمل عنّا الأثقال خير من الأسد الذي يمزق منّا الأوصال.

قطعة

إن الحمارَ ما له تمييزُ   لكنه بحَملِهِ عزيزُ
أفضلُ ممن طبعه التدميرُ   للؤمه الثيران والحميرُ

علم الملك بقرائن الأحوال طرفاً من أخلاقه الذميمة، فعاقبه بأشد أنواع العقاب، حتىٰ هلك بعد أليم العذاب.

قطعة

ما دمتَ لم ترضِ خدام المليك فلا   تأمَلْ رضاه علىٰ حال ولا تَرُمِ
وإن أردتَ رضاءَ الله محتسباً   فكن لدىٰ خلقه من ألطف الخدمِ

ومر عليه أحدُ مظاليمه فقال:

قطعة

يا دائباً تبتز أموالَ الورىٰ   لنفوذك السامي وراءَ بروجهِ
قد تبلغُ العظمَ الكبيرَ وإنما   تتمزق الأحشاءُ قبلَ خروجِه

٢١ـ حكاية

حُكِيَ أن إنساناً مؤذياً ضرب فقيراً صالحاً علىٰ رأسه بحجر، ولما لم يجد ذلك الفقير مجالاً للانتقام احتفظ بالحجر. واتفق أن غَضِبَ الملك علىٰ ذلك الجندي فزج به في غيابة السجن، فجاء إليه الفقير وألقىٰ علىٰ رأسه ذلك الحجر فقال: مَن أنتَ؟ ولماذا ألقيتَ هذا الحجرَ علىٰ رأسي؟ فقال له الفقير: أنا فلان وهذا حَجرُكَ الذي ضربتني به علىٰ رأسي بتاريخ كذا. فقال أين كنتَ طولَ هذه المدة؟ فقال الفقير: كنتُ أخشى منصبَكَ، والآن وجدت الفرصةَ سانحة فاغتنمتها.

رجـز

إذا رأيت الغمر أضحىٰ ذا غنى ... لله سلمْ واسترحْ من العنا

إلَّا تكن تملكُ ظفراً خالباً ... فلا تعاندْ تحمدِ العواقبا

من قلَّب الفولاذَ بالكف نَدِمْ ... للساعدِ الفضي أوهاهُ الألمْ

فارتقب الأحداثَ توهِنْ زندَهُ ... وفي رضا الأحباب تَثْلِمْ حدَّهُ

٢٢ـ حكاية

أُصيبَ أحدُ الملوك بمرض عُضال ولا أحب أن أُعيد ذكرَه، وقد أجمعَتْ طائفة من حكماءِ اليونان علىٰ أنه ليس له علاج من دائه إلّا مرارةَ إنسان ذي صفات خاصة يُعرَفُ بها.

فأمر الملك أن يُفتّشوا عن صاحب تلك الصفات، فالتمسوه فوجدوه غلامَ دُهقانَ، فاستدعىٰ الملك أبويه وأغدقَ عليهما نِعمَهُ، ولما آنس منهما السرور فاتحهما بأمر الغلام، فلم يكن منهما إلّا التسليم لإرادته، وأفتىٰ القاضي بجواز إراقة دمِ أحدِ الرعية لسلامة نَفْس الملك، وعلىٰ هذا أُحضر الجلادُ، فلما رآه الغلام حوَّل وجهه شطر السماء وضحكَ. فقال له الملك: أيُّ محل للضحك في هذه الحال التي أنتَ عليها؟ فقال الغلام تلك ضحكة دلال الأطفال علىٰ أبويهما. وماذا بعدُ فهذه الدعوىٰ قد أصبحت بين يدي القاضي والعدالةُ إنما تطلب من الملوك، والآن فإن أبي وأمي قد أسلماني إلىٰ التلف، ورضيا أن يُراقَ دمي بما نالاه من حطام الدنيا، والقاضي أفتىٰ بحل دمي، والملك يرىٰ هلاكي لِبُرْءِ نفسه من علّتها، إذن لم يبقَ لي هُناك ملجَأ إلّا الله الذي لا ملجأ للمظلوم سواه. وأنشد:

بيت

إلىٰ الله أشكو منكَ ما قد ينوبني وأنت رجائي في الخطوب ومَوْئِلي

فرقَّ له قلبُ الملك واغرورقت عيناه بالدموع، وقال: يا لله إن الأَولىٰ بي أن أهلك بعلّتي علىٰ أن أُريق دمَ مثل هذا الغلام البريء، وضمه إليه وقبّله بين عينيه، ونفحه بهدية نفيسة وأطلق سَراحه، فقيل إنه لم يمض أُسبوع علىٰ ذلك الملك حتىٰ منَّ الله عليه بالشفاء.

شعر علىٰ سبيل المثال.

قطعة

ما زلتُ أذكر بيتاً قاله لَبِقٌ قد كان بالأمس فيّالاً علىٰ النيلِ
يا حاطماً نملةً لم تدرِ حالَتها من تحت رجلك إحذَرْ وطأةَ الفيلِ

٢٣ـ حكاية

أبِقَ عبدٌ لعمرو بن الليث، فتعقبه ناسٌ وردّوه إليه، وكان لأحد الوزراء غرضٌ مَعَه فأشارَ بقتله حتىٰ لا يفعلَ أحد من العبيد فَعلتَه. فقبَّل

العبدُ الأرض بين يدي عمرو وقال:

بـيت

مهما يكن فليكنْ ما دمتَ ترضىٰ فما　　للعبد دعوىٰ علىٰ عدلِ مَليكِ الأنامْ

وحيثُ أني قد تربيتُ بنعمة هذا البيت، فلا أُريدُ أن تؤخذ بدمي يومَ القيامة، وإذا كان لابُدَّ من قتل هذا العبدِ فاقتلْه بتأويل شرعي حتىٰ لا تؤاخذ به يومَ القيامة، فقال الملك: وكيف يكـون التأويـلُ؟ فـقال: مُرني بقتل الوزير واقتصَّ مني بـه، فـيكونُ عـندئذ قـتلُك لي بـحق، فضحك الملك وقال للوزير: ما رأيك في هذه المصلحة؟ فقال: أيـها الملك اعتِقْ ابن الزنا بحقِّ تُربةِ أبيكَ حتىٰ لا أقعَ في البـلاء وأحـمِل خطيئتَه، إذ لم أعتبر بقول الحكماء حيث قالوا:

قطعة

جَريتَ في الحرب مَعْ رامي السهامِ لذا　　عرَّضتَ رأسك جهلاً منك للتلفِ

فإن تكنْ رامياً سهماً بوجهِ عِدىً　　فلا تقِفْ أبداً في موضعِ الهَدفِ

٢٤ـ حكاية

كان لملك (زوزنَ) محاسبٌ كريم النفس حَسَنُ المحضَر، يَـخدمَ مَن يأتي إليه، وإذا غاب عنه يُثني عليه، واتفق أن بـدرَتْ مـنه بـادرة جاءت غيرَ مقبولة بنظر الملك، فأمر بمصادرةِ ماله ومعاقبته، وكـان له فضل عـلىٰ مـوظفي السـجن فـاعترفوا له بـذلك الفـضل فـرفَقوا بـه ولاطفوه، ولم يروا من المروءة أن يعاقبوه ويزجروه.

قطعة

إذا رمتَ صلحاً مَعْ عدوك فالقَه بصفح عن الماضي ولا تلحُه عتباً
وقولُكَ مَجراه اللسانُ فأَحْلِهِ وإن مَرَّ فاجعل شُرْبَه سائغاً عذباً

وكان ما رتبه عليه الملك لم يستطع أداءه، فلبث في السجن مـدة بسبب ما نبقّى عليه. وبينا هو علىٰ تلك الحال إذا ورد عليه خُفيةً كتابٌ من أحد ملوك تلك النواحي يقول له فـيه: إن مـلوكَ ذلكَ الطـرف لـم يعرفوا للعظمة قدراً ولا للعزة قيمةً، وإن فلاناً أحسـنَ اللهُ عـواقـبَه إذا كلَّف خاطره العزيز فوجه التفاته إلينا، فسيجدُ مِنا السعيَ التـامَ لرِعـايةِ خاطره، لأن أعيانَ هذه المملكة بثاقب نظره يفتخرون وهم لجـواب

الرسالة منتظرون. فلما وقف السيدُ علىٰ هذا الخبر فكَّر في الخطر، فرأىٰ من الأصلح أن يُعطي جواباً مختصراً، فخطَّه علىٰ ظهر الرسالة وبعثه مع حاملها، واطّلع علىٰ الحالة أحدُ ذوي العلاقة بالملك، فأعلمه بالأمر وقال: إن فلاناً السجينَ له مراسلة مع ملوك النواحي، فغضب الملك وأمر بالكشف عن هذا الخبر، فقبضوا علىٰ القاصد وقرأوا ما خُط علىٰ ظهر الرسالة، فإذا هو: إن حسن ظن الأعيان بهذا العبد يزيد عن الحد، وما أمروا به مُشرَّف لي ولكنْ قبولُه ليس بإمكاني، لأنني لا يمكنني أن أكونَ عديم الوفاء لولي نعمتي لأتفه سبب تكدَّرَ فيه خاطري. حيث قالوا:

بيت

مَن تجنِ إنعامَه في كل آونةٍ   فاعذرْه إن مرةً في عمره ظلمك

فأُعجب الملك برعايته لحقه، فخلعَ عليه وحباه بإنعامه، واعتذر إليه قائلاً: لقد أخطأتُ بحقك حيث آذيتك بلا ذنب جنيتَه، فقال: أيها الملك إن عبدك لا يرىٰ هذه الحالَة خطيئةً منك، فربما أن تقدير الله هكذا بالذي وصل إلىٰ العبد مِنْ مكروه، فحصولُه إذن علىٰ يدك أولى لِما لَكَ علىٰ هذا العبد من الأيادي المثلى. وقديماً قالت الحكماء:

رجـز

لا تأسَ إنْ نالكَ مِنْ خلقٍ ضررْ　　ما النفعُ والضرُّ بمقدورِ البشرْ
أو مِنْ عدوٍ أو صديقٍ فاعلما　　مقلِّبُ القلوب جبار السما
وإن تر السهمَ عنِ القوسِ صدَرْ　　فبارئ الكونِ رَماه لا الوَتَرْ

٢٥ـ حكاية

أمر أحد ملوك العرب ذوي العلاقة بديوانه أن يضاعفوا لفلان أجرته، حيث أنه مترصدٌ للأمر، ملازمٌ للديوان دون سائر الخدم، فإنهم باللهو واللعب مشغولون، وبأداء الخدمة متهاونون، فسمع بذلك أحد العارفين فقال: علُوُّ درجات العبيد بحضرة الحق عزّ وجلّ علىٰ هذا المثل.

قطعة

إذا زرت مَلْكاً في صباحين سائلاً　　فلابد في الأخرىٰ سيَشملُكَ العطفُ
وهل تُحرَمُ العبَّادُ من فيض جودهِ　　تعالىٰ ومنه الجودُ يُسْأَلُ واللطفُ

قطعة

بامتثالِ الأمر نُجحُ وعُلا وبترك الأمر حرمانٌ وذُلُّ
كل مَن سارَ بنهجٍ لاحِبٍ بمدىٰ الخدمةِ لابد يُجَلُّ

٢٦ـ حكاية

يُروى أن ظالماً كان يشتري الحطبَ من الفقراء بالغبن، ويبيعه للأغنياء بتطفيف الوزن، فمر به رجل صالح وقال له:

بيت

أعقربٌ أنتَ مَن تلقاه تلسعهُ أمْ بومةٌ حيث حلّتْ نابَنا العطبُ

قطعة

أتبدي كثيراً من قواكَ أمامنا وليست لتبدو عندَ من يسمعُ النجوىٰ
فإياك من ظلم العباد فإنما إلىٰ الله من أكبادهم تصعد الشكوىٰ

فلم يَرُقْ للظالم هذا الكلامُ، فاكفهرَّ وجهه ولوى عنه عُنقَه وأخذته

العزة بالإثم. وفي ذات ليلة طارت شرارة من مطبخه ووقعت بـمخزن الحطب، فشبَّت النار والتهمت كلَّ ما يملك، حتىٰ أنه قعد بعد الفراش الوثير علىٰ حرارة الرماد ويا لسوء المصير. واتفق أن مر به ذلك الرجل الصالح فسمعه يقول لأصحابه: لم أدر من أين جاءت هذه النار فوقعت علىٰ قصري فأحرقته؟ فأجابه: جاءت من دخان قلوب الفقراء.

قطعـة

حذارِ بأنْ تُثيرَ دخانَ قلبٍ جريحٍ فهوَ يعلو بالشكاةِ
ولا تنكأ إذنْ ما اسطعتَ قلباً فقلبُ الكونِ يَغضبُ للأذاةِ

حكمة: يقال إنها كانت مكتوبة علىٰ تاج كيخسرو:

قطعـة

دهورٌ وآمادٌ تمر مُغِذَّةً علىٰ رأسنا فيها شعوبٌ وتخطرُ
ورثنا عن الأسلاف مُلكاً موطَّداً ونورثُه أبناءَنا حينَ نُقبَرُ

٢٧ـ حكاية

يحكى أن رجلاً بلغ النهاية في فن المـصارعة، فـحذق فـي ذلك

الفن النفيس ثلثمائةٍ وستينَ باباً مما يَحق له أن يتطاول بها علىٰ الأقران، وفي كل يوم كان يلعب بواحد منها، وقد تعلق قلبه بأحد تلامذته لجماله، فعلمه كلَّ مايعرفه إلّا باباً واحداً فقد ضَنَّ عليه به وتهاون بتعليمه إياه. وحاصل القول أن التلميذ بلغ الغاية في القوة والمصارعة ولم يكن لأحد من نظرائه أن يجرؤ علىٰ مجاراته في ذلك المضمار، حتىٰ أنه لازدهائه بنفسه واعتداده بقوته قال مرةً بحضرة الملك: إذا كان للأستاذ فضلٌ عليَّ فلم يكن إلّا من جهة كبر السن وحق التربية وإلّا فلستُ أقلَّ منه قوةً وأنا وهو في الصنعة كفرسي رِهان، فلم يقع منه هذا الكلامُ الذي يَدُل علىٰ قلة الأدب عند الملك موقعَ القبول، فأمر بأن يتصارعاً، فعُينَ لهما محلٌ متسعٌ حضره أركانُ الدولة وأعيانُ المملكة: فأقبل ذلك الفتىٰ وكأنه الفيل المهتاج وتقدم بعزيمة ثابتة، فلو أن جبلاً من الحديد قابله لاقتلعه من أساسه. علم الأستاذ عندئذ أنْ لا طاقةَ له بتلميذه فاشتبك معه من ذلك الباب الغريب الذي كان قد أخفاه عنه، فلم يعرف الفتى كيف يُدافع عن نفسه فخطفه الأستاذُ بكلتا يديه ورفعه فوق رأسه وجلد به الأرض، فهتف الحاضرون هُتافَ الاستحسان. فأمر الملك أن يُخلعَ علىٰ الأستاذ وأن يوبخ التلميذ ويلام. ومما قيل له: إنك حاولتَ مقاومةَ مربيك وولي نعمتك ومع ذلك

لم تصل إلىٰ غاية. فقال التلميذ أيها الملك إن الأستاذ لم ينل الظفر عليَّ ببأسه وقوته، ولكنَّ باباً واحداً في فن المصارعة كان أخفاه عني واليوم من ذلك الباب انتهز الفرصة فتغلب عليَّ. فقال الأُستاذ: أجل لمثل هذا اليومِ احتفظت به لنفسي، فقد قالت الحكماء: «لا تُظهر لصديقك كلَّ قوتك لتقدرَ عليه إذا أصبح في يومٍ ما عدواً لك» أوَ لم تسمع ما قاله ذلك الذي لاقى جفاءً ممن أدبه وأحسن تربيته.

قطعة

إما الوفاء خيال لا وجودَ له   أو أنه لم يقم يوماً به أحدُ
علىٰ الرماية ما دربت أيَّ فتىً   لذاك لم تُصمِ قلبي بالسهمام يَدُ

٢٨ـ حكاية

كان أحد المتجردين من الفقراء منقطعاً عن الناس بطرف الصحراء، فمرَّ عليه ذات يوم ملك بلاده، فلم يرفع الفقير إليه رأسه ولم يلتفت إليه لتجرده إلىٰ ربه وفراغ قلبه من الدنيا، فهزت الملك سطوةُ السلطنة فغضب علىٰ ذلك الفقير وقال: هذه الطائفة الملتفة بالخرق كبهيمة الأنعام ليس لها قابلية ولا تعرف الإنسانية. وبادره

الوزير قائلاً: أيها الدرويش مَرَّ بكَ ملك الزمان فلماذا لم تقِفْ له برسم الخدمة ولم تقم بشرط الأدب والحشمة؟ فأجابه الدرويش: قل للملك أنْ يتوقع الخدمة ممن يتوقع منه النعمة، واعلم أيضاً أن الملوكَ وُجدتْ لأجل حفظ الرعية، وما وجدت الرعية، لأجل طاعة الملوك.

قطعة

لحفظ نفوس البائسين ملوكُها   وإن رتعت في ظل نعمةِ مَولاها
وما غنم الراعي أُعدَّت لأجلِه   ولكنما الراعي أُعِدَّ ليرعاها

قطعة

بنعيم بعضُ الورىٰ وكثيرٌ   مَن بهم ضاقَ في الحياةِ المجالُ
إنما الحكم للبِلى وبقاءُ الـ   ـمرء حياً علىٰ الزمان مُحالُ
فاطلب الفرقَ بين مَلْك وعبدٍ   هل ترىٰ حين تنتهي الآجالُ
يتساوى أخو الغنى وأخو الفقـ   ـرِ إذا كان للتراب المآلُ

فتلقىٰ الملك كلامَ الدرويش بالقبول وقال له: تمنَّ عليَّ ما تريد. فقال الدرويش: إن كلَّ ما أتمناه ألا تُثقِّل عليَّ مرة أخرىٰ. فقال الملك:

انفحني بنصيحة فقال:

بيت

بملكِكَ فانعم ما حييت ففي غد   إلىٰ وارث لابد تُسلمُه قسراً

٢٩ـ حكاية

حضر أحدُ الوزراء أمام ذي النون المصري قُدِّسَ سرُّه، وطلب منه أن يُمدَّه بالهمة، فقال: أنا يا سيدي مشغولٌ ليلاً ونهاراً بخدمة السلطان، وإن ما أرجوه من خيره دون ما أخشاه من عقوبته. فبكىٰ ذو النون وقال: لو خفتُ أنا من الله مثلَ خوفك من السلطان لأصبحتُ من الصديقين.

٣٠ـ حكاية

أمر ملكٌ بقتل إنسان بريء فقال: أيها الملك لا تطلبْ أذيةَ نفسك بسبب غضبك عليَّ، فقال الملك: وكيف ذلك فقال: إن هذه العقوبةَ ستمر عني بنَفَسٍ واحدٍ ألفظُهُ، ولكن أثرَها سوف يبقىٰ عليك خالداً أبدَ الدهر.

رباعية

كالريح أعمارُنا وقد ذهبتْ بالحلو والمرِّ والمكروهِ والحسنِ
يا ظالماً خال نيرَ الظلم دام بنا عليك دامَ وعنّا مرَّ كالوسنِ

ولقد أثرت نصيحته هذه بالملك فعفا عن إراقةِ دَمه.

٣١ـ حكاية

كان وزراءُ أنوشروان يُديرون الرأيَ بمهمة عويصة من مصالح المملكة، وكل واحد منهم أبدىٰ رأيه بها علىٰ مقدار ما يعلم، وكذلك الملكُ أبدىٰ بها فكرة، فوقع اختيارُ بزرجمهر علىٰ رأي الملك، فقال له الوزراءُ سِراً: ما هي المزيةُ التي رأيتَها برأي الملك حتىٰ رجَّحتَ رأيه علىٰ سائر الحكماء؟ فقال: حيثُ أن العاقبةَ لم تكن معلومةً بعدُ، ورأي الجميع تحت مشيئة الله؛ إما أن يجيءَ خطأً أَو صواباً، إذن فموافقةُ رأي الملك أولىٰ، حتىٰ إذا جاء علىٰ غير الصواب نكونُ عندئذ قد أَمِنا من معاتبته بعلةِ متابعته.

قطعة

حذارِ خلافَ رأي الملك تبغي فما لَك إن أردتَ الموتَ عُذرُ
إذا قال: النهارُ اليومَ ليلُ فقلْ: ليلٌ به نجمٌ وبدرُ

٣٢ـ حكاية

دخل الىٰ البلدة مع قافلة الحجاز دجالٌ ضفر شَعرَه كما يضفره العَلويونَ وادعىٰ أنه علَوي آبَ من الحج، وقد أَلقىٰ قصيدة بين يدي الملك نسبها لنفسه، فقال أحدُ ندماء الملك ـ وكان في تلك الآونة قافلاً من السفر ـ: أنا في عيد الأضحىٰ رأيتُه بالبصرة فكيفَ أصبحَ حاجاً؟ وقال آخرُ: أبوه كان نصرانياً بمدينة ملاطِيَةَ فكيفَ صار علَوياً؟ ولما بحثوا عن القصيدة وجدوها بديوان الشاعر (أنوري). فأمرَ الملك عندئذ بحبسه ونفيه لاحتياله وكذبه. فقال الدجال: يا ملك الزمان بقي لي أن أقول كلمة فإن لم تكن حقاً فعاقبني بالعقوبة التي أستحقها. فقال الملك: وما تلك؟ فقال:

قطعة

اذا ما غريب رام خاثرك القَهُ بمغرفتي ماءٍ وطففْ من الأخرىٰ
ولا تنزعج من لغو عبد حَقَرْتَهُ فأكذبُ هذي الناس من جَرَّبَ الدهراً

فتبسم الملك وقال: لم تنطقْ طول حياتك بأصدقَ من هذا الكلام.

وأمر بأن يبلِّغوه مأمولَه ليذهبَ من عنده فرحاً مسروراً.

٣٣ـ حكاية

رووا أن أحد الوزراء كان يرحم الرعايا ويرغبُ في صلاحهم، واتفق أن أوثقَه الملك في نقمة، فبذل الجميعُ لاستخلاصه الهمة. والموكلون بمعاقبته عاملوه باللطف والإحسان، والأعيانُ أثنوا علىٰ حسن سيرته عند السلطان، حتىٰ عفا الملك عن خطيئته وأغضىٰ عن زلته. فاطَّلَعَ أحدُ العارفين علىٰ تلك الحال فقال:

قطعة

لك الخيرُ كل الخير لو بعتَ جنة وِراثَةَ جدٍ في رضاءِ صديقِ
وبذلُك ما تحويه أفضلُ ما يرىٰ علىٰ ما يَسُرُّ الصحبَ كل شروقِ
فلا تمنع المعروفَ عَنْ غيرِ أهلِهِ وإن كانَ لا هِثاً بطريقِ

٣٤ـ حكاية

جاء أحد أبناء (هارون الرشيد) إلىٰ أبيه مُغضباً وقال له: إن ابن

فلان الشرطي شتمني بأُمي. فقال هارون لأركان دولته: ماذا يكون جزاء هذا؟ فأشار أحدهم بقتله، وآخر بقطعِ لسانه، وثالث بالمصادرة والنفي. فقال هارون لولده: أي بني، من المروءة أن تعفوَ عنه، فإذا لم تستطع فاشتمه كما شتمك. أما إذا تجاوزتَ حد الشتم الىٰ الرغبة في الانتقام فعندئذ يكون الظلم من جهتنا. وتقام الدعوى علينا من قبل الخصم.

قطعة

وليس شجاعاً حازماً عند ذي الحجا فتى يطلبُ الفيل المَغيظَ يُصاولُهْ
ولكنه من لو مِنَ الغيظِ ينشوي لَما قالَ إلّا الحقَّ أو نامَ باطلُهْ

قطعة

لئيمُ الطبع سبَّ فتىً نبيلاً فأعرض عن بذاءته وأغضىٰ
وقال جهلتَ أقبحَ ما بنفسي فلستُ بكاشفٍ عيبي لترضىٰ

٣٥ـ حكاية

كنت في سفينة مع طائفة من الكبراء، فغرق زورق من خلفنا ووقع

منه أَخَوانِ فـي دَوران التـيار. فـقال أحـدهم للـملاح: خـلِّصْ هـذين الأخوين ولك مني مائةُ دينار. فما أنقذ الملاحُ أحـدَهما حـتىٰ هـلك الآخر. فقلتُ: حيث نفدَ عمره حصل التواني بـإنقاذه. فـتبسم المـلاح وقال: إن ما قلتَه صحيحٌ، غير أن ميلَ خاطري لخلاص هذا كان أكثر، والسببُ في ذلك أنني كنت مرة منقطعاً في الصحراء فحملني هذا علىٰ جمله، وأما ذاك فذقتُ منه سوطاً لا أنساه ضربني به في عـهد صِـباه، فقلت: صدق الله العظيم ﴿مَن عَـمِلَ صـالِحاً فَـلِنَفْسِهِ وَمَـنْ أسـاءَ فَعَلَيْها﴾.

قطعـة

إياكَ أَنْ تخدشَ قلبَ امرئ فذا طريق شوكُهُ مُتلِفُ
وأَسعِفِ البائسَ إن تلقَهُ فربما احتجتَ لِمنْ يُسعِفُ

٣٦ـ حكاية

كان أخوان أحدهما بخدمة السلطان والآخرُ يسعىٰ لخبزه بكـد يمينه، وذات مرة قال الغـني للـفقير: لمـاذا لـم تـخدم السـلطان حـتىٰ تستريحَ من مشقة العمل؟ فأجابه الفـقيرُ: وأنت لمـاذا لا تـعمل حـتىٰ

تخلصَ من مذلة الخدمة وقد قالت الحكماء: لأنْ تأكل خبزَك وتستريح خيرٌ من أن تتمنطق بالذهب وتقفَ ذليلاً بخدمة الأمير.

بيت

ضع الكفَّ في جيرٍ ولا ترضَ عَقدَها　　　على الصدرِ في ذُلٍ أمامَ أمير

قطعة

إلىٰ متىٰ تقطعُ العمرَ العزيز سُدىٰ　　　لحاجة لم تُنَلْ غاياتُها أبدا
بلقمةِ الخبز فاقنعْ إن أردتَ عُلا　　　ولا تَذِلَّ لملْكٍ تبتغيه جَدا

٣٧ـ حكاية

أتىٰ رجل ببشارة إلىٰ (أنوشروان العادل) فقال: إن الله عزوجل أهلك عدوك فلاناً. فقال له: أطرَقَ سمعك أنني سأخلد بعد موته.

بيت

أيفرحنا موت العداة ولم نكن　　　بموتهم نحيا علىٰ الدهر سرمدا

٣٨ـ حكاية

تكلم جماعةٌ من الحكماء بحضرة كسرىٰ وكان بزرجمهر ساكتاً، فقالوا له: لماذا لم تشتركْ معنا في هذا البحث؟ فقال: الوزراء كالأطباء والطبيب لا يُعطي الدواء إلا للعليل، وحيث بان لي أن رأيكم علىٰ نهج الصواب فليس من الحكمة إذن أن أشترك معكم في ذلك الخطاب.

شعر

إذا عملي يجيء بلا فضولٍ فمالي عنده في القول حكمُ

وإن أبصرتُ أعمىٰ حول بئرٍ وما نبَّهتُه فالصمتُ إثمُ

٣٩ـ حكاية

لما سُلِّمَ مُلكُ مصرَ لهارونَ الرشيد قال: إنني خلافاً لذلك الطاغية الذي اغترّ بمُلك مصرَ فادّعى الألوهية، لا أهب هذه إلّا لأخس عبيدي. وكان له عبدٌ أسودُ بليدٌ اسمه (خَصيب) فاختاره لملك مصرَ،

وقيل إن عقله كان ناقصاً وكفاءته محدودة. فجاء إليه جماعة من الزراع يشكون من الضرر الذي لحق مزروعاتهم فقالوا: لقد جاء المطرُ في غير أوانه فأتلف القطنَ الذي زرعناه بأطراف النيل. فقال: الأمر سهل فيلزم أن تعتاضوا عنه بزراعة الصوف فسمعه أحد النبهاء فقال:

قطعة

فلو أن رزق المرء يزداد بالحجا   لما نال ذو جهل فتيلاً من الرزقِ
ولكن رزق الجاهلين ميسرُ   لذا احتار فكر النابهين من الخلقِ

رجز

بالعلم لا تحرز نَيْلَ الجاهِ الا بتأييد من الإلَهِ
فكم جهولٍ حظه سعيدُ وكم عليمٍ حظه منكودُ
ذو الكيمياء يقضي بوجه شاحبِ   والبُلْه تلقى الكنز في الخرائب

٤٠ـ حكاية

أحضروا لأحد الملوك جاريةً صينيةً، فأرادَ وهو في حالةٍ من السكر

أن يواقِعَها، فمانَعتُه الجاريةُ، فغضبَ الملك ووهبها لعبد أسودَ من عبيده، شفَتُه العُليا جاوزت أرنبة أنفهِ، والسفلىٰ تهدَّلَتْ تحتَ جيبهِ، هيكلُ المسخ في صورته، و(صَخْرَةُ) الجنّيُّ يرتعد فَرَقاً من طلعته، وعين القطران تجريِ من صِنان إبطيهِ وسُرتِه.

بيت

كقبح محياه إلىٰ الحشر لا يُرىٰ كما لا يُرىٰ يوماً جميلُ كيوسفِ

قطعة

قبحُ غريبُ عجيبُ لا نظيرَ له تعيا بأوصافه أفذاذُ تبريزِ
من نتن إبطيه باللهِ استعذْ فهما كالفيح من جيفةٍ في شمسِ تموزِ

ورويِ أن الأسودَ في تلك الآونة مالت نفسه إليها فغلبته شهوتُه وحرَّكته غريزته فافتض بكارتها. وعند الصباح طلب الملكُ الجاريةَ فلم يجدها، فأخبروه بما جرىٰ. فتملكه الغضبُ وأمرَ بأن يحكم وثاق رجلي الأسودِ والجارية ويديهما، وأن يُرميا من أعلىٰ الجَوْسَق إلىٰ أسفل الخندقِ. وكان أحد الوزراء حسنَ المحضر، فقبَّل الأرض بين

يدي الملك مستشفعاً وقال: الأسودُ في هذه الحالة يا سيدي لم يكن مخطئاً، اذ سائر العبيد والخدم علىٰ المواهب الملوكية مُعتادون. فقال الملك: ما كان عليه لو استبقاها ليلَتَها. فقال: أيها الملك أما سمعت ما قالوا:

قطعة

لو أبصرتْ عينَ ماءٍ عينُ ذي ظمأ   وقد رأىٰ حولَها فيلاً أيمتنعُ
وملحدٍ صائمٍ جوعانَ منفردٍ   والزادُ في يدهِ هل عنه تَرتفِعُ

وسُرِّيَ عن الملك بهذه اللطيفة. فقال: وهبتُ لك الأسودَ أما الجارية فماذا أصنع بها؟ فقال: هَبْها كذلك للأسود فهي تليق له لأنها فضلةُ طعامِه.

قطعة

أتمتدُّ من مَلْكٍ يَدٌ لِتُرنجةٍ   علىٰ الروثِ طاحتْ وهو بالعين يَنظرُ
وهل يستسيغُ الماء في الكوز ظامئ   وقد عَبَّ منه نحوَ ثُلْثيهِ أَبخرُ

٤١ـ حكاية

سألوا الأسكندر الرومي: بماذا ملكت ديار المغرب والمشرق وقد كان الملوك القدماء أكثر منك مالاً وأوسع مُلكاً وأطولَ عمراً وأعز جنداً، ولم يتيسر لأولئك من الفتح ما تيسر لك. فقال: بعون الله تعالىٰ، كلُّ مملكة حُزتها ما آذيتُ رعيتها، ولا جرىٰ ذِكرُ ملوكها علىٰ لساني إلا بالخير.

بـيت

ما إن يُعَدُّ عظيماً عندَ ذي أدبٍ   فتىً بفضلِ عظيمٍ ليسَ يَعترفُ

قطعة

بعد موتي لم يبقَ أمري ونهيي   وحظوظي وتاج عزي وملكي
فاذكر الغابرينَ بالخير كي يَبـ   ـقىٰ لكَ الذكرُ خالداً بعدَ هُلْكِ

الباب الثاني:

في أخلاق الفقراء

١ـ حكاية

قال رجلٌ من الكبراء لأحد العُبَّاد: ماذا تقول بحق فلان العابد فإن ناساً ألحُّوا عليه بالطعن. فقال: ما رأيتُ عيباً في ظاهره وليس عندي علم بما في باطنه.

قطعة

عُدَّ في الصالحين من بان منه   زيُّ أهل الصلاح في غير طعنِ
أفتدري ماذا يُكنُّ وظلمٌ   أن تجاسَ الديارُ من دون إذنِ

٢ـ حكاية

رأيتُ درويشاً واضعاً رأسه علىٰ عتبةِ الكعبة وقد مَرَّغ وجهه علىٰ الثرىٰ وهو يتضرع ويقول: يا غفورُ، ويا رحيمُ، أنتَ تعلم بما يليق بك مما يأتي به الظلومُ الجهول.

قطعة

قدمتُ عذري عن التقصير يا أملي إذ لا اعتمادَ علىٰ نُسكي وطاعاتي
تاب العصاةُ وأما العارفونَ فقد تَبَرَّأوا لك من تلك العباداتِ

العابدون يطلبون منك ثوابَ طاعتهم، والتجار يطلبون ثمنَ بضاعتهم، وأنا العبد جئتك بأملي لا بطاعتي، وبذلي واحتياجي لا بتجارتي. إصنع بي ما أنتَ أهلُه، ولا تفعل بي ما أنا أهلُه.

بيت

إن تعفُ أو رُمتَ قتلي لا إرادةَ لي فالرأسُ منّي مَحنيٌّ علىٰ البابِ

قطعـة

على باب بيت الله أبصرت سائلاً يقول ويُذري الدمعَ سحاً من الكربِ
إلٰهيَ لا أبغي قبولاً لطاعتي فَجُرَّ يراعَ العفو منك على ذنبي

٣ـ حكاية

رأيت عبد القادر الكيلاني قُدِّسَ سره في حرم الكعبة واضعاً رأسَه على الحصا وهو يقول: إلٰهي اعف عنّي، وإن كنتُ مستوجباً العقوبةَ فاحشرني يوم القيامة أعمىٰ حتىٰ لا أذوبَ خجلاً من رؤية وجوه الصالحين.

قطعـة

أُعفِّرُ وجهي كلما هبت الصَّبا على الترب كي ترضىٰ لعجزي وتقصيري
فيا شاغلاً قلبي بذكراك يا ترىٰ أعندكَ لي ذِكرى تُديمُ سروري

٤ـ حكاية

دخل لصٌ إلىٰ بيتِ عابدٍ، وبعد البحث الكثير ضاق صدره لأنه لم

يجد ما يَسرقُه، ولما فطِنَ لَهُ العابد ألقىٰ البساطَ الذي يَنامُ عليه في طريقه لئلا يعودَ محروماً.

قطعة

السالكو طريقَ أهل الهدىٰ لم ينكأوا حتىٰ قلوبَ العدىٰ
وأنتَ ما دمت كذئبٍ علىٰ أخيكَ لن تَبلُغَ هذا المدىٰ

فمودة إخوان الصفا سواءٌ في الوجه وفي القفا، إذ ليسوا كمن أمامكَ يستميحُك عُرفَك وفي قفاك يروم حتفَك.

بيت

في الوجهِ كالحَمل الوديع وفي القفا كالذئب لا يبقي عليك ولا يذرْ

بيت

مَنْ عَدَّ عيبَ الناس عندك فَهْو عَنْ إحصاءِ عيبكَ عندهمْ لا يُحجِمُ

٥ـ حكاية

اتفقَ علىٰ السياحةِ جماعةٌ من المتجردين وعزمتُ علىٰ مشاركتهم

في السراء والضراء، ولما طلبتُ مرافقَتهم امتنعوا عن تـحقيق رغـبتي، فقلتُ: إن من الغريب في أخلاق الكـبراء أن يُـعرضوا بـوجههم عـن مرافقةِ الفقراء، وأن يَغفلوا عن الاستفادة من صحبتهم، وأنا أُحِس أن في نفسي من القوة والمقدرة ما أستطيع به أن أخدمَ إخواني بـحذق وإخلاص، وألّا أكونَ عالةً عليهم.

شعر عربي الأصل

إن لم أكن راكبَ المواشي أسعىٰ لكم حاملَ الغواشي

فقال لي أحدهم: لا يضِقْ صدرُك بما سمعتَ فقد جاء الينا منذ أيام لصٌ بصورةِ الدراويش لا بصفتهم، وانتظمَ بسلك صحبتنا.

بـيت

ماذا وراء ثيابه يُخفي الفتىٰ يدري بمضمونِ الكتاب الكاتبُ

وحيث أن شأن الدراويش حُسن الظن بالناس، ما فطنا لسوء قصده وقبِلناه رفيقاً لنا.

بـيت

الدَّلْقُ مِرآة حالِ العارفينَ وذا   يكفي رياءً لَهُمْ في أعين الناسِ

قطعـة

كُن عاملاً مُخلِصاً واختر لنفسك ما   تَهوي لَبوساً وضعْ تاجاً على الرأسِ
ليسَ التصوفُ لبسَ الصوف تَحسَبُه   فالبسْ حريراً وليِّنْ قلبَكَ القاسي

قطعـة

الزهدُ في ترك هوىٰ النفوس   ولم يكن بالزهد في اللَّبوسِ
فالدرع من ملابس الشجعان   والسيف لا يصلح للجبانِ

وصفوة القول أننا سرنا في يوم من الأيام حتىٰ داهَمنا الظلامُ، فبتنا تحتَ قلعة هناك، أما اللص عديمُ التوفيق فحمل إبريقَ رفيقٍ لنا وذهبَ للطهارة ولم ندرِ أنّه تأهبَ للغارة.

بـيت

أنظر فذا عابدٌ يُزهى بخرقته   وكسوةُ (البيت) قد تُزهى بها الحُمر

ولما توارىٰ عن نظر أولئكَ الفقراءِ صَعِد إلىٰ برج وفازَ منه بسَرقةِ دُرج، وما لاح النهارُ حتىٰ أَوغَل ذلك المظلمُ القلبِ في القفار، وأما الرَّفاقُ الأبرياءُ ففي الصباح سِيقوا جميعاً إلىٰ القلعة، وزُجَّ بهم في غَيابة السجن. ومن ذلك التاريخ قلنا بترك الصحبةِ، ولزمنا طريقَ العزلة، وأيقنا أن (السلامة في الوَحدةِ).

قطعة

اذا ما بدت من فسل قوم مثالبٌ   فكل كبير أو صغير يذممُ
وإما عدا ثور علىٰ الزرع خلسةً   فثيران ذاك الحقل طراً ستُظلمُ

فقلت المنة لله عزوجل، اذ لم أبقَ محروماً من فوائد الفقراء، ولئن صرفت عن صحبتهم فقد استفدت من قصتهم، فعلىٰ كل غرٍ مثلي أن يعمل بهذه النصيحة مادام علىٰ قيد الحياة.

قطعة

إذا حل في نادي كرام ملوثٌ   فكل ذكي عنه في ألم ينبو
فبركة ماء الوردِ معْ طيب عَرفها   تُنَجَّسُ إنْ يوماً بها فَطَسَ الكلبُ

٦ـ حكاية

أضافَ أحدُ الملوك زاهداً، فلما جلسوا علىٰ المائدة أكل الزاهدُ أقلَّ من استطاعتِهِ، وحينَ قاموا للصلاة صلّىٰ أكثرَ من عادتِهِ حتىٰ يَظنوا به الصلاحَ زيادةً عن طبيعتِهِ.

بـيت

دليليَ لا يُفضي الىٰ (البيت) دربنا   وخوفي الىٰ يهماءَ يفضي بنا الدربُ

ولما عاد إلىٰ منزله طلب السُّفَرةَ لتناوُلِ الطعام وكان له ابن ذو فِراسة، فقال: أيْ أبتِ أما أكلتَ شيئاً في دعوة السلطان؟ فأجابه لم آكل كفايتي بنظر أولئك لئلا يظنوا أن تلك عادتي. فقال الولد لأبيه: إقضِ الصلاةَ أيضاً لأنك لم تفعل شيئاً كعادَتِك.

قطعـة

أتُظهِرُ بين الناسِ فضلاً مُزَيَّفاً   وتخفي الذي يُخزيكَ من عيبك المزري

فيا أيها المغرورُ ماذا ستشتري   بزائفِ هذا النقدِ في أرْذل العُمْرِ

٧ـ حكاية

لا أزال أذكر أنني كنتُ في عهد طفولتي مولعاً بإحياء الأسحار، زاهداً متقياً، وفي ذات ليلة قعدتُ لخدمةِ أبي والمصحف الشريف في حِجري أقرأ منه ما شاء الله أن أقرأ، ولم ينطبق لي جَفنٌ على جَفن. وكان الجماعة الذين أتوا للسمر عندنا قد غرقوا بنومهم. فقلت لأبي: إن واحداً من هؤلاء لم يرفع رأسه ولم يتهجدْ بركعتين، ولقد استغرقوا في نومهم فكأنما هم أموات. فقال لي: يا روحَ أبيكَ أنت أيضاً لو أنك نمتَ لكان خيراً لك من أن تمزق جلودَ خلق الله.

قطعة

مااِن يَرى المدعي للناس مَوهبةً لأنه من غرور النفس في حُجُبِ
ولو رآهم بنور الله كان رَأىٰ لعجزه نفسَه في أحْقرِ الرُّتَبِ

٨ـ حكاية

أثنىٰ جماعةٌ في مَحفِل علىٰ أحد الكبراء، فأشادوا بأوصافه

الجميلة وبالغوا بإطرائه. فرفعَ إليهم رأسَه وقال: أنا نفسي الذي أعرفُ مَنْ أنا.

شعر عربي الأصل

كفيتَ أذىً يا من تَعُدُّ محاسني   علا نيتي هذا ولم تدرِ باطني

قطعـة

لي ظاهرُ حَسنٌ في العين منظرُه   وباطنٌ قُبْحُهُ ما زالَ من شُغُلي
يَستحسِنُ الناسُ في الطاووسِ رَونَقَهُ   وقبحُ رجليه يدعوه إلىٰ الخَجلِ

٩ـ حكايـة

دَخل جامعَ دمشقَ رجلٌ من صُلَحاء جبل لبنان، وكانت له في بلاد العرب مقاماتٌ مذكورة وكراماتٌ مشهورة. ولما جلس علىٰ طرف بركة (الكلاسة) ليتوضأ زلّت قدمُه، فوقَع فيها ولو لم تتداركْه العنايةُ لغرق. وبعد أن أدَّىٰ المصلونَ الصلاةَ المكتوبة، قال له أحد الأصحاب: أيها الشيخ عندي مشكلٌ. فقال الشيخ: وما ذاك؟ فقال: أذكرُ أنني كنتُ رأيتُك تمشي علىٰ وجه بحر المغرب ولم تبتلَّ لكَ قدم.

واليومَ كِدتَ تغرق بما لا يزيد عن عمق قامة من الماء، فما السرُّ في هذا يا تُرىٰ؟ فأدخل الشيخ رأسه في جيبه وبعد تأمل طويل رفع إليه رأسَه وقال: ألم تسمعْ ما قاله سيد العالم محمد المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وآله وسلم «لي مع الله وقتٌ لا يسعني فيه ملَك مقرب ولا نبي مرسل» ولم يقل كلُّ وقتي كان هكذا. وإلا لما تفرغ لجبريل وميكال، ولما بنىٰ بحفصةَ وزينبَ وغيرهما بأوقاتٍ أخرىٰ. لأن مشاهدة الأبرار بين التجلي والاستتار تُلْمَحُ فَتُختَطفُ.

بيت

بحسنك تُغريني وتطلبُ عصمتي ونارَ الهوىٰ تُذكي وتأمرُ بالتقوىٰ

شعر عربي الأصل

أُشاهدُ من أهوىٰ بغيرِ وسيلةٍ فيلحقني شأنٌ أضل طريقاً
يؤجّج ناراً ثم يطفي برشةٍ لذاك تراني مُحرَقاً وغريقاً

قطعة

قالوا لفاقد طفلٍ لا نظير له في الحسن يا خير من أوذي وقد صبرا
أظهرت من بعد ذاك اليأس معجزةً يكاد ينكر راويها لنا الخبرا

شممتَ من (طِيبة) ريحَ القميص وما ... أبصرتَ من جب كنعان له أثرا

فقال نحن كمثل البرق تلمحه ... طوراً خفياً وطوراً يخْطَف البصرا

فتارة لا نرىٰ ما تحت أرجلنا ... كالعمي تدرأ عنها بالعصا الخطرا

وتارة غاربُ الأفلاك مَقعدُنا ... حتىٰ لَيزحَمَ فيها عزمُنا القدرا

ولو جرت باطراد حالنا لخلتْ ... من الحياتين كفي فاتركوا الهذرا

١٠ـ حكاية

كنتُ مرةً بجامع بَعلَبكَّ أُقرِّرُ كلماتٍ بقصد الوَعْظِ علىٰ جماعة قلوبهُم متحجرةٌ مَيتةٌ وعقُولُهم لم تنصرفْ عن عالَم المبنى الىٰ عالَم المعنىٰ، فرأيت أن أنفاسي الملتهبةَ لم تجذبهم إلىٰ حظيرة القربِ، ونارَ روحي المتأججة لم تؤثر في حطبهم الرطب، فتأسفتُ أشدَّ الأسفِ علىٰ ضَياع تربيتي، فيمن يُضارع الحيوان، وعلىٰ وضع مرآتي المجلوَّةِ في زاوية العميان، ومع كل هذا فقد انفتح عليَّ بابُ المعنىٰ، واتَّسع أمامي مَجالُ القول في هذه الآية الكريمة ﴿**ونحن أقرب إليكم من حبل الوريد**﴾ فكنتُ أوصِلُ القول إلىٰ الغرض المرادِ منه عن أقربِ الطرق حتىٰ قلتُ:

قطعة

اللهُ أقربُ من نفسي إليَّ وإنْ نأيتُ عنه وهذا أعجَبُ العجبِ
ما حيلتي ولمن أشكو هواه وقد أحاط بي ورماني الهجرُ بالحرَبِ

وبينا كان سُكري من خمر هذا الكلام لا يُحَدُّ، وفضلة الكأس لا تزال في اليد إذا بعابر سبيل مَرَّ من طَرَف المجلس، فأثَّرت فيه تلك الفضلةُ فانتشىٰ وصاح صيحة ردَّدَ صداها آخرونَ، وأصبح المجلسُ يموجُ بعضُه في بعض من الوجد. فقلتُ: سبحان الله البعيدُ حاضرٌ بالخبر، والقريبُ غائب لفقد النظر.

قطعة

اذا لم يكن يقوى علىٰ الفهم سامعُ فلا تطلُبِ الإعجازَ من مُتكلم
فَهَيِّئ لِمَيدان الإرادةِ فُسحةً يُدهدي لك المزجي كرات مِنَ الفَم

١١ـ حكاية

عجزتُ عن السير ليلةً من الليالي في بادية مكـةَ، فلم أستطع أن أنقل قدمي لشدة السهر، فوضعتُ رأسي علىٰ الثرىٰ لأستريح، وقلت للجمّال: انفضْ يدَكَ مني.

قطعة

ماذا تلاقيه أقدامُ الحفاة وقد أعيا البخَاتِيَّ طول السير في البيدِ
لأنْ يعودَ صَليبُ العود من لَغَبٍ مثلَ الخلال نحيفُ العود قد يُودي

فقال لي: أيها الأخ، الحرمُ أمامك، واللصوصُ وراءَك، فإذا سرتَ نجوتَ، واذا نمتَ هلكتَ.

بيت

تحت (ام غيلان) ما أحلى الكرى سحرا عند الترحُّل لو لا شدةُ الخطر

١٢ـ حكاية

رأيتُ عابداً علىٰ ساحل البحر قد عضَّه النمر، وأزمَن معه الداءُ وما شُفي بدواء، ومع طول مرضه وشدة ألمه كان لا يفتُرُ عن شكر الله تعالىٰ قائلاً: الحمد لله الذي أوقعني بمصيبة لا بمعصية.

قطعة

إذا رمت قتلي يا حبيبي فإنّني حقيرٌ وموتي ليس إلا مِنَ الهمِّ

ومالِيَ من ذنب ولا أنا جازعُ ولكنما آسى عليكَ من الغمِّ

١٣ـ حكاية

حكوا أن درويشاً الجأته الضرورةُ إلىٰ أن يسرق بساطاً من بيت صديق له، فأمر الحاكم بقطع يده، فتشفع له صاحبُ البساط وقال: أنا بحلٍّ مما فعل. فقال الحاكم: لا أُعطِّلُ حَداً من حدود الشرع لأجل شفاعتك. فأجابه صاحبُ البساط: الحق ما حكمت به، ولكن ليس كلُّ من يسرق من مالِ الوقفِ شيئاً يلزم أن تُقطعَ يده؛ لأن «الفقير لا يملك شيئاً ولا يُملَك» وكلُّ الفقراء بحاجة المال الوقف. فملكه الحاكم يَد السارق وقال له: أضاقت عليك المسالك حتىٰ لا تسرق إلّا من بيت صديق كهذا؟ فقال: أيها الأميرُ ألم تسمع بالمثل القائل «اكنُسْ بيتَ الأصدقاء ولا تَدُقَّ باب الأعداء».

بيت

إن عضَّك الجوعُ لا تكسلْ وكن نِمراً أغْرِ الأحبةَ واسلخْ جلدَ أعداكا

١٤ـ حكاية

رأىٰ أحد الملوك عابداً فقال له: هلّا تذكرني أصلاً؟ فأجابه: نعم في الوقت الذي أذهل فيه عن ذكر ربي.

بيت

يسعىٰ لغيرك مطرود لشقوته ومن يرجيك لا يسعىٰ إلىٰ أحدِ

١٥ـ حكاية

رأىٰ أحدُ الصلحاء في منامه مَلِكاً في الجنة وعابداً في النار، فسأل: ما السببُ الذي جعل هذا في درجات النعيم، وجعل ذاكَ في دركات الجحيم، مع أن الحالَ بخلاف ما كنا نظن؟ فقيل له: «الملك لحبه الفقراءَ أصبح في الجنة، والعابدُ لحبه الملوكَ أصبح في النار».

قطعة

لا الدَّلقُ يُجديك نفعاً أو مرقعة مادمتَ من شهوات النفس في خَطَرِ
فدع (كُلاها) من الأوْبارِ تلبسه واستشعر الفقر والبس بِزَّةَ التَّترِ

١٦ـ حكاية

خرجَتْ قافلة من الكوفة تريد الحجاز، فرافقها رجلٌ عاري الرأس حافي القدمين طَروبٌ لم يفتر عن الترنم بهذين البيتين.

لستُ بغلاً تحت حملي لا ولم أركبْ بعيراً   لم أكن عبدَ مليك لا ولم أُصبحْ أميراً
الغني والفقير سيان فما مرا بفكري   جِد سهل أنني في نَفَسٍ أقطعُ عمري

فقال له راكب جمل: أيها الدرويش أين تذهب؟ عُدْ أدراجَكَ لئلا يُضنيك التعب فتهلك، فلم يلتفت إليه ومشى ضارباً في البادية علىٰ قدميه. حتىٰ إذا انتهينا إلىٰ (نخلة محمود) أدرك الأجلُ ذلك الراكبَ الغني فمات. فوقف الدرويش عند رأسه وقال: نحن مع شدة التعب لم نمُتْ وأنت مع الراحَةِ مُتَّ. وأنشد:

بكىٰ صحيحُ مريضاً طولَ ليلته   وحين أصبح أودى والمريض نجا

قطعة

كم سَلْهب بات دون القصدِ من لغبٍ   وكم حمار كسير راحَ لم يبتِ
وكم أصحاءَ في جوف الثرىٰ دُفنوا   وكم جريحٍ عميقِ الجرحِ لم يَمُتِ

١٧ـ حكاية

استدعىٰ أحدُ الملوك عابداً لحضرته، ففكَّر العابدُ في أن يتناولَ دواءً فيشربَه ليظهر ضعيفاً فيزداد اعتقادُ الملك به. وقيل إن الدواء كان قاتلاً فشربه فمات.

قطعة

تَحسَبُه فُسْتُقَةً لُباً بعين المجتلي   إذا به قشرٌ علىٰ قشر كرأسِ البصلِ
يَستدبِرُ القبلةَ في الصلاةِ من مِرائه   ووجههُ موجَّهٌ للخلق من رِيائِهِ

بيت

إذا العبدُ لا يرجو سوىٰ الله داعياً   فلا يَدْعُ غير اللهِ إن عزَّ مطلبُ

١٨ـ حكاية

أغار جماعة من قطاع الطريق علىٰ قافلة كانت تسير في أرض يونانَ، فسلبوا كلَّ ما تملكه من مالٍ ومتاعٍ، فناحت القافلة وأَعولَتْ وتشفعت بالله ورسوله، فلم يُجدها ذلك نفعاً.

بـيت

متىٰ نالَ لصٌّ من سليب مرادَهَ　　فهيهات أن يَرثي لنوحِ سَليبِ

وكان في القافلة لقمانُ الحكيم، فقال له أحد المسلوبين: ألا تُلقي يا سيدي علىٰ هؤلاء كلماتٍ من الحكمة والموعظة، فعسىٰ أن يتركوا بيدنا بعض ما سلبوه منا، فوا أسفا علىٰ هذه النعمة الوافرة التي تضيع سُدىٰ. فقال له لقمان: ويا خسارةَ الكلمة الحكيمة التي تُلقى علىٰ أمثال هؤلاء.

قطعـة

إن الحديدَ متىٰ أودىٰ به صدأٌ　　فليس بالصقل تبدو منه آثارُ

لا يدخلُ الوعظُ قلباً مظلماً أبداً　　ولا يغوصُ بقلب الصخر مِسمارُ

قطعـة

بِرَّ المساكينَ إمّا كنتَ ذا سعةٍ　　فجبر خاطرهم يُنجي من العطبِ

واعطفْ على السائل الشاكي فربّتما　　ألوثْ بمالِك قَسراً كفُّ مُغتصِبِ

١٩ـ حكاية

طالما أمرني شيخي الأجل شمسُ الدين أبو الفرج ابـنُ الجـوزي بترك السماع، وكم أشار عليَّ بالخلوة والعزلة، فغلبني عُنفوانُ الشباب وطلبُ الهوىٰ والهوس، ولقد كـنتُ بـالضرورة ذاهـباً بـخلاف رأي المربي، آخذاً بحظي من السماع والمخالطة مع صحبي، وكلما فكرتُ في نصيحة شيخي أقول:

إذا مَعَنا القاضي تُصفِّق كفُّه   فحاسي الطِّلا المخمورُ في يده العذرُ

حتىٰ وصلتُ ليلة إلىٰ مجلس قوم فرأيتُ بينهم مُطرباً.

بـيت

تُجَذُّ نياطُ القلب من نقر عوده   كصوتِ أبيه وهو ينحَطُ في القبرِ

تارةً أصابعُ الإخوان توضَعُ في الآذان، وتارة على الشفاه أنْ صَـه أيها الحيوان.

شعر عربي الأصل

يُهاج الىٰ صوت الأغاني لطيبه   وأنت مُغَن إن سكتَّ تَطيبُ

بيت

لا يرى المرءُ في سماعك خيراً   من سكوتٍ يريحه أو نزوحِ

رجز

لما سمعتُ صوتَ ذاك العازف   قلتُ لرب الدار بالله انصفِ
ضعْ زئبقاً في أذنيَّ تُخرَقاً   أو افتح البابَ فما أهوىٰ البقا

والخلاصةُ أنني وافقت علىٰ البقاء رعايةً لخاطر الأصحاب، وقضيت ليلةً نكراءَ إلىٰ أن لاح النهار بكل جهد واكتئاب.

قطعة

بالفجر صاح مؤذنٌ وأراه لمْ   يشعُرْ بطول الليل قبلَ طلوعهِ
فسلوا إذن عن طوله جَفني فقد   أحصىٰ نواثيه بقطرِ دموعهِ

وفي الصباح حسبَ التبرك حللت عِصابتي عن رأسي وأخرجت ديناراً من حزامي ووضعتهما أمام المغني واحتضنته وشكرته كثيراً، فرأىٰ الإخوانُ مني هذه الحفاوَةَ به علىٰ خلاف العادة، وحملوا ذلك مني علىٰ خفة عقلي وتضاحكوا خُفية من فعلي، وأطالَ أحدُهم لسانَ

اعتراضه وابتدرني بالملامةِ قائلاً: إن هذه الحركة لا تناسبُ حال العقلاءِ، وكيف تبذل خرقةَ الفقراء لمثل هذا المطرب الذي عمره ما وقع درهم في كفه ولا قُراضَةٌ في دَفه.

رجز

مُغنٍ كهذا لا تُحلُّوهُ دارَكم ... فما حل في دار وحل بها السعدُ
إذا ما بدا من حلقه الصوتُ أُرعدتْ ... فرائص من يُصغي له حينما يَشدو

فقلت: تلك هي المصلحةُ، فلا تُطِلْ لسان الاعتراض، ولقد ظهرتْ لي منه كرامة. فقال: أطلعني على تلك الكيفية حتى أتقربَ كذلك إليه وأتقدم لملاطفته والاستغفار منه. فقلت: إن الشيخ طالما أمرني بترك السماع ووعظني ببليغ المواعظ فما استقرتْ بسمعي، وفي هذه الليلة هداني طالعي الميمونُ وحظي العظيمِ حتى تُبتُ على يد هذا المطرب، وإنني بعد هذه الليلة لا أُجيز لنفسي السماع ولا مخالطةَ الرَّعاع.

قطعة

يؤثر في النفس صدى من مليحة ... وإن لم يكن في السمع يُلفى له وقعُ
ويُكرَهُ ممن لا نحب لقاءهُ ... وإن كان للأوتارِ في لحنِهِ سَجْعُ

٢٠ـ حكاية

سألوا لقمان الحكيم: ممن تعلمت الأدب؟ فقال: من عديمي الأدب؛ لأن كل ما يقع عليه نظري منهم فأراه غير لائق أن يفعل احترز من فعله.

قطعة

لا ينبسون بحرف مازحين وهل سوىٰ النصيحة ترجىٰ من ذوي الحكمِ
وليس يلقي جهول سمعه أبداً لواعظ لو حباه حكمة الأممِ

٢١ـ حكاية

حكوا أن عابداً كان يأكل في كل ليلة من الطعام وزن عشرة (أمنان) ويقوم الىٰ الصلاة، فلا يأتي وقتُ السحَر إلا ويكون قد ختم القرآن. نسمع به أحد العارفين فقال: لو أنه يأكل نصف رغيف وينام لكان أفضل له من ذلك العمل الشاق الذي يدل علىٰ الرياء والنفاق.

قطعة

أَخْلِ الفؤادَ من الطعام فإنه ... إن يخلُ منه بالمعارفِ يَمتلي
لَم يخلُ من حكم الإلٰه لَو أنَّه ... لم يُحشَ من خَبَثِ الطعام فأقلِلِ

٢٢ـ حكاية

أنارت المواهبُ الإلٰهية سراجَ طريق التوفيق، فهدت ضالاً في بيداء المعاصي حتىٰ انخرطَ في سلك أهل التحقيق، فبيُمن صحبة أولئك الفقراء وصدقِ أنفاسهم تبدَّلتْ أخلاقه الذميمة بمكارم الأخلاق، وقَصُرتْ يداه عن تناول مُشتهاه. فطالت ألسنة الطاعنين بحقه، فقالوا: إنه لم يتحولْ عن أسلوبه الأول، وليس علىٰ زهده وصلاحه مُعوَّل.

بيت

تسطيع تهربُ إما تبتَ من سَقَرٍ ... ومن لسان الورىٰ لا يُمكن الهربُ

ولما ضاق ذرعاً بجَوْر ألسنتهم، شكا أمرَه إلىٰ شيخ الطريقة، فبكى الشيخ وقال له: بماذا تؤدي شكر هذه النعمة إذ أنتَ أفضل مما ظنوا.

قطعـة

كم ذا تقولُ عَدوّي والحقودُ على　　إظهار عيب امرئ مثلي قد اتّحدا
إما يقوما فقتلي نُصبَ عينهما　　أو يقعدا فلحيني رُبَّما قعدا
كن خيِّراً عند لؤم القادحين ولا　　تكن لئيماً وتبدو خَيراً أبدا

ولكن انظر إليَّ فإن الجميعَ يُحسنون الظـنَّ بـي ويـعتقدون أنـني بأعلىٰ درجات الكمال، والحقيقةُ أَنني بأدنى دركات النقصان.

بـيت

لو ان ذاك الذي قد قلتَ تفعلُه　　لكنتَ حقاً بحُسن الطبع تتصفُ

شعر عربي الأصل

اني لمستترٌ عن عين جيراني　　والله يعلم أسراري وإعلاني

قطعـة

قد نُغلق البابَ علىٰ نفسنا　　كيلا ترىٰ عيوبَنا الأعينُ
وليس يجدي غَلقُه عندَ مَنْ　　يعلم ما نخفي وما نعلنُ

٢٣ـ حكاية

أعلنت شكواي لأحد المشايخ بأن فلاناً شهد علي بأنني متصف بالفساد. فقال لي: أخجله أنت بعمل الصلاح.

قطعة

كن أنت ذا سيرةٍ في الناس طيبةٍ   كيلا يرىٰ فيك نقصاً قاصر النظرِ
فالعود بالعزف لم تُعْرَكْ له أُذُنٌ   إلا إذا اختلّت الأنغام بالوترِ

٢٤ـ حكاية

سألوا أحد مشايخ الشامِ عن حقيقة التصوف: ما هي؟ فقال: كانَتْ هذه الطائفةُ في غابر الزمان متفرقةً في المبنىٰ مجتمعةً في المعنىٰ، أما اليومَ فهي في الظاهر متحدةٌ وفي الباطن متفرقة.

قطعة

لا ترجُ يوماً صفاءَ العيش مُختلِياً   مادامَ قلبُك بالأغيارِ يَشتغِلُ
وأنتَ في خلوةٍ مادمتَ مرتبطاً   بالله لو بنعيم المُلك تنشغِلُ

٢٥ـ حكاية

لا أزال أذكر ذاتَ ليلة أننا سرنا مع قافلة طول ليلتنا حتىٰ إذا كان السَحر نمنا علىٰ طرف غابة. وكان يرافقنا في تلك السَّفْرة رجلٌ مُـدلَّةٌ مجذوبٌ، فمذ هام في تلك البطاح ما فتر لحظة عن الصياح، فلما وضحَ النهارُ قلت له: ما هذه الحال التي كـنت عـليها؟ فـقال: رأيتُ البـلابل تترنم علىٰ الأغصان، وأبصرتُ الحَجَلَ ينحدر علىٰ صوتها من الجبل، وسمعت نقيقَ الضفادع يناجي خَرير الماء، وأصـوات الوحـوش فـي الغابة ترن في أذن الجوزاء. فمر بخاطري انـه ليس مـن المـروءة أن تذهَبَ في التسبيح تلك العجماواتُ وأسكت أنا سادراً في الغفلات.

قطعـة

أمسِ غنَّى حتى الصباحِ صَدوحُ   فسبى مهجتي وبَلْبلَ حالي
وصديق بمسمعيه ترامى   صوتُ نوحي وكان ثَمَّ حيالي
قال ما كنتُ موقِناً أن طيراً   بات يَرميكَ هكذا بالخبالِ
قلتُ: تبغي سكوتَ مثلي وقد سبَّـ   ـح طيرُ: فذاك فَوقَ احتمالي

٢٦ ـ حكاية

رافقني في السفر إلىٰ الحجاز طائفةٌ من الشبـان أربـاب القـلوب،

فكانوا بأغلب أوقاتهم يترنمون، أو بأبياتٍ ذاتِ معانٍ دقيقةٍ يتباحثون، وكان معنا في الركب عابدٌ يُنكر علىٰ المتجردين حالَهم لغفلته عن لوعة قلوبهم، حتىٰ إذا انتهينا الىٰ (نخيل بني هلال) خرج علينا غلامٌ أسودُ من حيٍّ هناك عربي، فصاح صيحةً أوقف بها طيورَ الهواء عن الطيران والماءَ المنحدرَ عن الجريان، فرأيتُ جملَ العابد رقَص به فأوقَعه عن ظهره، وشردَ في طريق البادية. فقلت له: أيها الشيخ قد تأثر الحيوانُ ولم تتأثر أنت أيها الإنسان.

قطعة

أتعلمُ ماذا قال لي أمسِ بلبلُ أبالعشقِ يا مغرورُ هل لك أَخبارُ
يُؤَثر في العيسِ الحداءُ فتنتشي فإن لَمْ تذُبْ عِشقاً فأنتَ حمارُ

قطعة

بذكرهِ كلُّ شيءٍ لاهِجٌ أبداً والقلبُ يفهَم مَعناهُ ويسمَعُهُ
ما سبَّحَ اللهَ فوق الوردِ منفرداً هزارُ دوحٍ بتغريد يُرَجِّعُهُ
وإنما كلُّ شوكِ الوردِ أَلسِنَةٌ لها من الذكرِ والتسبيح أَرْوَعُهُ

٢٧ـ حكاية

لما رأىٰ أحدُ الملوكِ أن مدةَ عمره قد قاربتْ نهايتها ولم يكن له وارث يقوم مقامَه، أوصىٰ بأن يُوضعَ تاجُ السلطنة علىٰ رأس أولِ داخل عند الصباح من باب المدينةِ، وأن تُفوَّضَ له أمورُ المملكة. واتفق أنَّ أولَ من دخل مُتسولٌ كان طولَ عمره يجمع قوته لقمةً فلقمةً وكساءه خرقة فخرقة. فنفَّذ أركانُ الدولة وأعيان المملكة وصيَّةَ الملك، ففوضوا إليه المُلْكَ والخزائنَ، وأطاعوا أمره، فقام بإدارة المملكة مدةً من الزمن، ولكن بعض أُمراء الدولة خلعَتْ عن أعناقها رِبْقَ طاعته، وملوكُ الأقطارِ المجاورة قامت لمنازعته، وجهزت العساكر لمقاومته. وصفوة القول أن الجندَ والرعية قلَبتْ له ظَهْرَ المجنِّ، وخرج قسم غير قليل من بلاده عن قبضة تصرفه، فأصبح ذلك المسكين مشتتَ الأفكار، مجروحَ الفؤاد مما حل به.

وفي تلك الأثناء عاد من السفر درويشٌ كانت تربطه وإياه صداقة قوية في أيام الفاقة، فرآه في تلك المنزلة الرفيعة. فقال له: المِنةُ لله عزوجل أنْ كان السعدُ قائدَك، والإقبالُ رائدَك، حتىٰ خرج وردُك من شوكِ ذلِّك، وشوكُ الحفا زال من رِجلِك، فتسنَّمت ذروة العرش الرفيع، فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً.

بيت

تَعرىٰ من الوَرقِ الأشجارُ آونة   والزهرُ في الروض يذوي ثم يزدهِرُ

فقال له الملك: أيها الأخ إن التعزيةَ في هذا المقام أليَقُ من التهنئة، ألا ترىٰ أنّ همي في ذلك الحين رغيفُ خبزٍ أشُدُّ به رمقي، وأما اليوم فإنَّ سقمي من كل ما في هذه الدنيا.

قطعة

تُلوِّ عنا الدنيا إذا لم تواتنا   وإن هي واتتنا ففي حُبها السمُّ
فما فتنةٌ منها أشد علىٰ الورىٰ   بلاء وكلتا حالتيها لنا همُّ

قطعة

إذا رمت الغنى فحذارِ تبغي   سوىٰ مُلك القناعة في الوجودِ
وإن نثر الغنيُّ التِّبرَ نثراً   فلا تحسَبه عن كرم وجودِ
فما بذلُ الغني كصبرِ ثاوٍ   علىٰ الرمضاء في دنيا الجُدودِ

٢٨ـ حكاية

كان لأحد الناس صديقٌ من عمال الديوان انقطع عن رؤيته ردحاً من الزمن. فقال له شخص: إنك لم تر فلاناً منذ أمد بعيد. فقال: أنا لا أوَد أن أراه. وكان أحد أخصاء العامل حاضراً، فقال له: ما الخطأ الذي عمله حتىٰ مللتَ رؤيته؟ فأجاب: ماله أي خطأ، ولكن الصديق المتعلق بالديوان لا يُشاهَد إلا إذا عزل، ولا يليق بي أن أُتعبه لراحة نفسي.

قطعة

في كراسيّ حكمهم وغناهم لا يرىٰ ظلَّهم أخُ في الطريقِ
وإذا ما مُنوا بعزلٍ وعجزٍ أظهروا داءَ قلبهم للصديقِ

٢٩ـ حكاية

كان أبو هريرة رضي الله عنه يأتي علىٰ الدوام لخدمة المصطفىٰ ﷺ، فقال له: يا أبا هريرةَ زُرْني غباً تزدَدْ حُباً. يعني لا تأتِ إليّ كل يوم لتزداد محبتك عندي.

لطيفة: قال ناس لأحد العارفين: إن الشمسَ مع حسنها الباهر لم

نسمع أن أحداً عشقها. فقال: بسبب أنها في كل يوم تمكن مُشاهدتُها، إلّا في الشتاء فإنها تكون محجوبة ومحبوبة.

قطعة

لا عيبَ في أَنْ تزورَ الخِل مفتقداً   وإنما العيبُ في الإكثارِ فاقتصدِ
إن لمتَ نفسك تبغي كبحَ شهوتِها   فلستَ تسمعُ عنها اللومَ من أحدِ

٣٠ـ حكاية

استدارَ ريح بأمعاءِ أحد الكبراء وما ملك القدرة علىٰ ضبطه، فصدر عنه بدون اختياره، فقال لجلسائه: أيها الإخوان إن ما حدث مني لم يكن عن اختياري، فوِزرُه إذن لم يُكتب عليَّ، وقد وصلَتْ منه راحة إلي فتكرموا أنتم أيضاً واقبلوا معذرتي.

قطعة

اَلبطنُ سجنُ الريح يا ذا الحجا   والريح لا يحبسُه عاقلُ
حِملُ على القلب فلا تُبقِهِ   إن دارَ بالأمعاءِ يا حاملُ

بـيت

إن راحَ يوماً ثقيلٌ عنك مرتحلاً   فدعْه يمضِ ولا تمدُدْ إليه يدا

٣١ـ حكاية

اعتراني مَللٌ من صحبة إخواني في دمشق، فخرجتُ هائماً علىٰ وجهي في بادية القدس، وأنستُ بصحبة الوحش بعد صحبة الإنس، ولكني وقعتُ أسيراً بيد الإفرنج، فأَصبحتُ أشتغل بالطين مع اليهود في خندق طرابلس، حتىٰ مَرَّ بي أحد رؤساء حلب وكان بيننا سابقُ معرفةٍ، فقال لي: ما هذه الحال، وكيف صرتَ إلى هذا المآل؟ فقلت:

قطعة

هربتُ إلىٰ الصحراء عن صحبة الورىٰ   إلىٰ الله لا أبغي سواه أنيساً

تصوَّرْ بهذا الوقتِ ما هي حالتي   مع البَهْم في الإسطبل صرت حبيساً

بـيت

الرجلُ في القيد عند الأصدقاء ولا   رياضةٌ في جنانٍ عندَ أعدائي

فرحمني ورقَّ لحالي وافتداني من أسر الفرنجة بعشرة دنانير وأخذني معه إلىٰ حلب. وكانت له ابنة فعقد لي نكاحها بمائة دينار، وبعد أن بَنيتُ بها، ظهر لي أنها سيئة الطبع مجبولة على العناد، مخلوعة العِنان، سليطة اللسان، فنغَّصتْ عليّ عيشي، وكأنما عناها الراجز بقوله:

سيئةُ الخُلْق بدارِ الخيِّرِ   جهنمُ من قبل يوم المحشرِ
حذارِ من أمثالِها حذارِ   وقل: قِنا رَبِّ عذاب النارِ

وذاتَ مرة أطالَتْ بي لسانَها واستمرت تقول: ألستَ أنت ذاك الذي اشتراكَ أبي فأعتقكَ من قيد الفرنجة بعشرة دنانير؟ فقلتُ: بلى هو الذي اشتراني بذلك المقدار، ولكنه أوقعني بأَسْرِ يديك بِمائةِ دينار.

قطعة

رأىٰ سَيِّدٌ كبشاً بأنياب أطلَسٍ   فخلَّصه عند الأصيل من الكربِ
وعند المسا سمَّىٰ وأزهَقَ روحَه   فصاحتْ، وقد طارت إلىٰ الله: ما ذنبي
أيا منقذي من مخلب الذئب رحمةً   لقد عدت عقبى الأمر من شقوتي ذئبي

٣٢ـ حكاية

سأل أحد الملوك عابداً: كيف تقضي أوقاتك العزيزة؟ فقال:

أقضي الليل كلَّه بالمناجاة، والسَّحرَ بالدعاء والحاجات، وعامة النـهار بقيد الإخراجات. فأمر الملك بأن يُعيَّن له علىٰ وجه الكفاف مقدارٌ من المال ليخفف عن قلبه أثقالَ همِّ العيال.

قطعـة

أيها المبتَلىٰ بهمِّ العيالِ　　أَطلق الفكرَ من قيودِ الخيالِ
هم رزق العيال كم عاق في السيْـ　　ـر مُريداً لدىٰ مَراقي الكمالِ
بنهاري أقولُ: إن جَنَّ ليلي　　فَسأُحييه في هوىٰ ذي الجلالِ
وإذا الليل جَنني كانَ همي　　«بصباحي ماذا أَقوتُ عِيالي»

٣٣ـ حكاية

رُويَ أن أحد المتعبدين في ديارِ الشام عكفَ علىٰ العبادة في غابةٍ سنينَ طويلةً، وكـان يـتغذَّى بأوراق الأشـجار، فـتوجه لزيـارته مَـلِك تلك الجـهة وقـال له: إذا رأيتَ مـن المـصلحة أن نُـهيِّئ، لك مـقاماً في المدينة أمـرنا بـتنفيذ مـا تـريد؛ لأن تـفرغَك للـعبادة فـيها أيسـرُ عليك، وتكـون النـاسُ عـندئذ قـد اسـتفادت مـن بـركات أنـفاسك واقتدت بصالح أعـمالك. فـلم يَـقبَل الزاهـدُ كـلامَ المـلك. فـقال له

أركـــان الدولة: نـرىٰ مـن المـصلحة أن تـوافـق علىٰ مـا رَغب فـيه المـــلك فـتقيم بـالبلد أيـاماً وتـرىٰ مـقامك بـها، فـإن استقام لك فهو المطلوب، وإن رأيت أن صفاءَ وقتك العزيز تكـدَّر مـن صـحبة الأغيار فعندئذ يكون لك في نهاية الأمر الخيار، فقيلَ إن العابد صدع بالأمر وانحدر الىٰ المدينة، فهيأوا لهُ بُستاناً حول قصر الملك الخاص بغاية الزينة، فكان مقاماً يُـبهجُ النـفوسَ ويَسُـرُّ القـلوب، فكأنـه جـنة الفردوس، كما قيل فيه:

شــعر

سنبلُه غدائرُ أُرسِلَتْ ووردهُ مثل خدودِ الحسانْ
كلاهما من خوف (برد العجوز) ما ارتضعا من ثَدي غيثٍ لِبانْ

شعر عربي الأصل

وأفانينُ عليهاجلنارُ علقت بالشجر الأخضر نارُ

وأرسل اليه الملك في الحال جاريةً بديعةَ الجمال.

قطعة

فتاةٌ كحسن البدر فتنةُ عابدٍ   بزينة طاووسٍ وطُهر مَلاكِ
إذا ما بَدَتْ للزاهدين تخاذلوا   عن الصبرِ أو طاحوا بغير حَراكِ

وأرسل إليه علىٰ أثرها غلاماً بديع الجمال لطيف الاعتدال.

شعر عربي الأصل

«هلك الناس حوله عطشاً   وهو ساق يرىٰ ولا يسقي»
ليس تروى عيون ناظره   كفُراتٍ حلا لمستسقي

فأخذ العابد يأكل الطعام الشهي ويلبس الكِساءَ البهي ويتمتع بحلاوة الثمار ويستنشق عبير الأزهار ويتملى جمال الجارية والغلام، وقديماً قال العقلاء: صُدغ الجميلة زنجيرُ ساق العقل الخَطر وفخ طائر القلب الحذر.

بيت

صرفتُ عقلي وديني في هواكَ وقد   أصبحتَ فخاً لقلبي الطائر الحذرِ

وحاصل القول أن دولة زهده آذنت شمسها بالأفول كما قيل.

قطعـة

كم من مريدٍ وذي نسكٍ ومجتهد   وواعظ ذي بيان طاهرِ النَفسِ
لمَّا بدنيا الدنايا راحَ منغمساً   أمسىٰ (كنحالِ جَنى) بالشهد مُنغمِسِ

وذات مرة رغب الملك في مشاهدته، فرآه قد تغير عن حالته الأولىٰ، فقد عاد أبيضَ سميناً مُشرباً بالحمرة، وأَلفاه متكئاً على وسادة من الديباج وغلامٌ أحورُ الطرف ملائكي الطلعة قائمٌ علىٰ رأسهُ يروِّح له بمروحة طاووسية، فَسُرَّ الملك كثيراً من حسن حاله، وأخذ يتفنن معه بالحديث ويفتح له أبواباً من النوادر، حتىٰ قال في نهاية الكلام: أنا أُحبُّ من دنيايَ هاتين الطائفتين، العلماء والزهّاد. وكان في المجلس وزير فيلسوف مجرب، فقال أيها الملك، شرط المحبة أن تَفعلَ معروفاً مع كلتا الطائفتين. فقال الملك: وكيف ذلك؟ فقال: أن تُعطيَ الذهبَ العلماءَ حتىٰ يستعينوا به علىٰ التبحر بالعلم، وألّا تعطي الزهادَ شيئاً حتىٰ يَبْقوا علىٰ زهدهم.

بـيت

أخو الزهد لا يبغي لُجيناً وعسجداً   فإن رامه فاطلبْ سواه أخا زهدِ

قطعـة

لِفاضل الأخلاقِ ما إن يُبتغى　　خبز الرباط ولقمةُ المتسولِ
وكذلك الحسناء ليس يَزينُها　　في عين عاشقها التجملُ بالحُلي

٣٤ـ حكاية

مما يطابق هذا الكلام أن ملكاً عَرَضتْ له مهمة، فقال: إذا جاءت في النهاية علىٰ حسب مرادي فسأعطي الزهادَ مقدارَ كذا من المال. فلما قضيت لزمه الوفاء بالنذر، فأعطى عبداً من خاصته كيساً من الدراهم وقال له فرِّقْ ما فيه علىٰ الزهاد. وقيل إن الغلام كان عاقلاً لبيباً فمضىٰ طول نهاره، ولما كان المساء عاد ومعه الكيس فقبَّله ووضعه بين يدي الملك وقال: ما وجدت زاهداً. فقال الملك: ما هذه الحكاية؟ إنني أعرف في هذه البلدة اربعمائة زاهد. فقال الغلام: يا ملك الزمان، الزاهد لا يقبل النقود، والذي يقبل النقود ليس بزاهد. فتبسم الملك وقال لندمائه: علىٰ قدر إذعاني ورغبتي في هذه الطائفة من العبَّاد قد استولت علىٰ هذا الوقح فيهم العداوة والزهادة، ولكن مع كل هذا فالحق معه.

بيت

اذا ما رأيتَ المال في يد زاهدٍ　　فدع نَهجَه واطلبْ سواه أخا زُهدِ

سألوا أحد العلماء الراسخين: ماذا تقول بجماعة علىٰ خبز الوقف مجتمعين؟ فقال: إذا أخذوه ليستعينوا به على التفرغ للعبادة فهو حلال، وإن كان ليس إلّا لأكله فلا أُفتي بحله.

بيت

يُطلَب الخبز للعبادة والعكـ　　ـس مشين بسمعة العقلاء

٣٥ـ حكاية

وصل درويش الىٰ مُنتدىً صاحبُه كريم النفس رهيف الحس لديه جماعة من ذوي الفضل والبلاغة، وكل منهم يُبدي نكتةً لطيفةً أو يتندَّر بفكاهة ظريفة علىٰ رسم الأدباء وقاعدة الظرفاء، وذلك البائس لم يسترحْ بعدُ من وَعْثاء السفر، وقد ألهب أحشاءه الجوعُ وأعياه اللَّغَب. فخاطبه أحدهم بطريق الانبساط: ألا ترىٰ أنتَ كذلك أن

تُتحفنا بشيء مما عندك؟ فقال: لست من فرسان هذا الميدان، وما لي كغيري بلاغة ولا بيان، فأرجو أن تكتفوا مني بهذا البيت. فأجابه الجميع قُلْ، فأنشد:

قد ألهب الجوع أحشائي وسفرتكم من فوقها الخبزُ محفوفُ بألوانِ
فحالتي معكم قد أشبَهتْ عزَباً لا يَبرحُ البابَ في حمام نِسوانِ

فاستحسنوه ووضعوا المائدة بين يديه. فقال له صاحب الدعوة: أيها الصديق تمهَّل قليلاً فإن عبيدي يهيئون الشواء، فأطرق الفقير ملياً وقال:

بيت

ما لمثلي وما لأكل الكبابِ أنا بالخبز قانِع يا صحابي

٣٦ـ حكاية

قال مريدٌ لشيخه: إنني متضايقٌ من كثرة زيارة الخلق لي، وإن أوقاتي الثمينة ضاعت لاستمرارهم بالتردد عليَّ، فأجابه أَقرِضْ فقيرهم واستدِنْ من غنيهم يَنفَضُّوا من حولك فلا تجدُ منهم أحداً.

بيت

لو أنَّ عسكَر إسلامٍ تَقَدَّمَه شَحَّاذُ فرَّ العدىٰ منه الىٰ الصينِ

٣٧ـ حكاية

قال فقيه لأبيه: إن كلمات الوعاظ الآخذة بمجامع القلوب لا تُؤثِّر في نفسي أصلاً، وذلك لأنني لا أرىٰ أفعالَهم توافق أقوالَهم، كقوله تعالىٰ ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾.

رجز

أتأمرُ الناسَ بترك الدنيا وتكنز المالَ لكيما تَغنى
فعالم يقولُ ما لا يفعلُ عند امرئ أقوالُه لا تُقبلُ
من وعظَ النفسَ فذاك العالِمُ ومن لغا بالقول فهو الآثمُ

بيت

هيهات يُمسي دليلاً في طريق هُدىٰ من بات بالجسم لا بالنفس ينشغل

فقال الأبُ: أي بني لا يجوز لمجرد هذا الخيال الباطل أن تُعرِض بوجهك عن تربية الناصحين وتسلك طريق البطالة، وتنسب العلماء الى الضلالة، فإنَّ منْ طلب العالِمَ المعصوم عاش وهو من فوائد العلم محروم، فمثله كمثل ذلك الأعمى الذي وقعَ ذاتَ ليلة في الوحَل، فقال: أيها الملسمون ضعوا سراجاً في طريقي، فسمعتْه امرأة فاجرة فقالت له: أنتَ لا ترى السراجَ فبالسراج ماذا تَرىٰ. وهكذا مجلسُ الوعظ كحوانيتِ البزّازينَ، ما دُمتَ هناك لا تُعطي النقدَ لا تستلم البضاعة، وهنا ما لم تبذل الارادة لا تنال السعادة.

قطعة

إسمعْ بروحك نصحَ الواعظين وإن يُخالُفوا ما نَهوْا عنه وما أمروا
فباطلُ ما ادَّعاه المدعون وهل بنائِم غافلٍ تستيقِظُ البَشرُ
وإن ذا اللُّبِّ يُلقي في مسامعه قولَ النصيح وإن زينَتْ به الجُدُر

حكاية منظومة

جاء ذو نهيةٍ لمدرسة العلـ ـم وعاف الرباط والنساكا
قلت ما بين طالب ومريد أي فرق حتىٰ تخيرت ذاكا
قال ذاكَ النجاة يبغي من المو ج وذا للغريق يلقي الشباكا

٣٨ـ حكاية

غلب السكر علىٰ شخص فنام علىٰ قارعة الطريق، وقد خرج عن حد اعتداله وأُفلِتَ من يده زمام اختياره، فمر عليه عابد واستقبح حالته، فرفع الشاب إليه رأسَه وقال: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾.

شعر عربي الأصل

اذا رأيت أثيماً كن ساتراً وحليماً   يا من يُقبح لَغوي لِمْ لا تمرُّ كريماً

قطعة

لا تُعرضَنَّ عن الأثيمِ أخا التقىٰ   وامنن عليه بنظرة وتعطُّفِ
إلا أكُنْ في الخيِّرينَ لِشِقوتي   فعليَّ مُرَّ كخيِّرٍ وتَلَطَّفِ

٣٩ـ حكاية

ألح طائفة من الخلعاء علىٰ درويش بالإنكار، وآذوه بما لا يليق بحق أمثاله من الأبرار، فشكا ما نابه من اولئك الزناديق الىٰ شيخ الطريق، فقال له: أيْ بني، خِرقة الفقراء هي ثوبُ الرضا بما حكم به

القضاء، فمن لم يتحمل مع كسوته ما نفذَتْ به الأحكام، فخرقة التصوف عليه حرام.

بيت

أتُكدِّرُ البحرَ الخِضمّ حجارة   فإذا ألِمْتَ فأنتَ حوضٌ ناضِبُ

قطعة

تَحَمَّل إذا أُوذيتَ واعفُ فإنما   ستُجزى عن العفو الجميل ثواباً
اذا لم يَكُنْ بُدٌ بانَّكَ صائِرٌ   تُراباً فكنْ للعالمينَ تراباً

٤٠ـ حكاية منظومة

إسمع حواراً طريفاً قد جرىٰ قدماً   بين الستارة في بغداد والعلَمِ
سما اليها علىٰ عتب وقال لها   مما يعانيه في الأسفار من ألمِ
أنا وأنتِ كلانا عبدُ سيده   وعند سلطانه من جملة الخدمِ
لم أسترح ساعة من خدمتي فإذا   أَقامَ جندُ الحمى في السلم لم أُقِمِ
وأنتِ لم تعرفي ذُلَّ الحِصار ولا   زعازعَ البيد والإدلاج في الظُّلَمِ

بالسَّعي لي قدمٌ سباقة فلِما　　أُفرِدْتِ بالعز دوني داخلَ الحرمِ
في القصر أنتِ مع الولدان عابِقةٌ　　بالياسمين وبين الحور في نِعَمِ
وها أنا بيد الغلمان مُضطربٌ　　في القيد رجلي ورأسي في يد العدمِ
قالت تواضعتُ بل نكَّستُ في أدب　　رأسي ورأسُك سام في الذُّرىٰ فَهمِ
وكل مستكبر في غير مَقدرة　　يَلقى الهوانَ فعش ما عشت في سأمِ

٤١ـ حكاية

رأىٰ أحدُ العارفين رجلاً (من المتمرنين علىٰ حمل الأثقال) مكفهرّ الوجه، واضعاً يده علىٰ خده وقد استشاط غضباً.

فقال: ما شأن هذا؟ فأجابه أحدُ الحاضرين: شتمه فلان. فقال: هذا الدنيءُ يحمل ألف رِطل من الحجارة ويعجز عن تحمل كلمة.

قطعة

بِجُمع كفك لا تفخر فقوَّتُه　　ليستْ تَميزُ لكَ الأنثىٰ من الذكرِ
إن رمتَ فضلاً فكن عذب الحديث فما　　فضلُ الملاكم في الدنيا علىٰ البشرِ

قطعة

اذا ما صدمتَ الفيل أوفقتَ وزنه فلست بإنسانٍ خليقٍ باكباري
من الترب خَلْقُ الآدمي وطبعُه فإلا تكنْ تُرْباً فأنتَ من النارِ

٤٢ـ حكاية

سألوا أحد الكبراء عن سيرة إخوان الصفاء، فقال: الناقصُ هو الذي لا يُقَدِّم رغبةَ الصديق علىٰ مصالح نفسه، فالحكماء قالوا: الذي يُقَيِّدُ سعيهَ بخاصة نفسه لا يُعدُّ أخاً ولا صديقاً.

بيت

اذا ما امرؤ بالأمر يعجل فاقِله ولا ترتبط إلا بمن ليسَ يَعجَلُ

قطعة

إذا ما قريبُ في الخصومة لم يكن ليرقب إذ يؤذيك ديناً ولا تقوىٰ
فلا تصطحبه واقطع الرحم التي شقيت بها واهجر مودة ذي القربىٰ

وأذكر أن أحد المدعين اعترض علىٰ قولي في هذا البيت، فقال: الحق جل وعلا نهى في كتابه المجيد عن قطع الرحم وأمر بمودة ذي القربىٰ، وما قلتَه مناقض لذاك. قلت: إنك واهم فإن ما قلتُه موافقٌ للقرآن. قال الله تعالىٰ ﴿وإن جاهداك علىٰ أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾.

بيت

الغريب القريب من رحمة اللـ ـه يُفدَّى بألف خلٍ بعيدِ

٣٤ـ حكاية منظومة

ظريفُ مسنُ كان أنكَح بنتَه ببغداد إسكافاً ليُنسلَها الولدا
فصادف أن قْد كان فظاً فعضَّها دِعاباً فأدمىٰ مرشفاً يشبه الوردا
فهال أباها حين أصبح ما رأىٰ فراح مَغيظاً مُحنَقاً يسأل الوغدا
أيا فسل قُلْ ما ذلك السنُّ واعترف بأن الذي قد لكته لم يكن جلداً
وما قلتُ هذا القول مزحاً كما ترىٰ فدعْ عنك مزحاً لم يفد وخذِ الجدَّا
لئن كان قبحُ الطبع فيك سجيةً فليس ليُمحىٰ أو يوسدك اللحدا

٤٤ـ حكاية

كانت لفقيه ابنة بغاية الدمامة، وقد عَنَسَتْ وما رغب أحد في نكاحها مع وجود جِهازها ووفرة نعمتها.

بيت

أرىٰ الدبيقيَّ والديباج ضائعةً   على العروس اذا ما قُبْحها اشتهرا

غير أن أباها عقد ـ بحكم الضرورة ـ نكاحها علىٰ ضرير. وقيل إنه حضر بذلك التاريخ طبيبٌ من (سَرنديبَ) اشتهر بإنارةِ أعين العمي، فقال ناس للفقيه: لماذا لا تعالجُ صهرَك عندَه؟ فقال: أخشىٰ انه متىٰ رأىٰ وجه ابنتي أن يطلقها. فخير للمرأة الدميمةِ أن يكون زوجُها أعمىٰ.

٤٥ـ حكاية

نظر مَلِك إلىٰ طائفة من الصوفية بعين الاحتقار، فأدرك أحدُهم منه ذلك بالفِراسة، فقال: أيها الملك، نحن في هذه الدنيا أقلُّ منك جيشاً وأهنأ عيشاً، وإنا وإياك في الموت سواء، وفي يوم القيامة أفضل منك عند الله. وأنشد:

قطعة

ولا لفقير إن تأملتَ مَطلبُ   سوىٰ الخبزِ لا يُلفى لأعظم فاتح
سوىٰ كفنٍ والموتُ ما عنه مَهربُ   وليس من الدنيا لمن ماتَ منهما
فلا تبغ عرشاً إنَّ فقركَ أطيبُ   وما دمتَ تبغي المُلكَ سهلاً موطَّأً

فشعار الصوفية الظاهر ثوبٌ مرقعٌ وعباءةٌ من الصوف، وأما شعارهم الحقيقي فقلبٌ حَيٌ بالأذكار ونفسٌ ميتة بالانكسار.

قطعة

رأىٰ من الناس نقداً ثار معتدياً   يا من علىٰ باب دعواه أقام وإن
هوىٰ لما كنتَ للعرفان منتهياً   لو حِذْتَ عن حَجر من رأس شاهقة

وطريق الصوفية الذكر والشكر والطاعة والإيثار والقناعة والتوحيد والتوكل والتسليم والتحمل، فكل من اتصف بهذه الصفات فهو بالحقيقة صوفي وإن كان في الظاهر ذا لباس فاخر، وأما المولَع بالهذيان المتهاون بالصلاة العابدُ هواه الشاغل نفسه بالعبث والهوس الذي يَصلُ نهاره بليله منغمساً بالشهوات ويصل ليله بنهاره مستغرقاً

بالغفلات، يَلتهمُ كلَّ ما يقع بين يديه من حلال أو حرام، وينطق بما يجري على لسانه من فارغ الكلام، فذاك هو الفاسق الخليع وإن التف بعباءته وتستَّرَ بدُرَّاعته.

قطعة

يا من خلا من حساب النفس باطنُه ... وباتَ ظاهرُه بالغش مَعموراً
اخلع لباساً كطَيفِ الشمس صِبْغَتهُ ... واطوِ الحصيرَ الذي في الدارِ منشوراً

٤٦ـ حكاية منظومة

علىٰ قبةٍ باقات ورد رأيتُها ... وقد رُبطتْ بالشعب ربطاً مُحكماً
فقلتُ: وهل للعُشب قدرُ وقيمةٌ ... فيجلسَ في صف الزهور مكرَّماً
فقال: اتئِدْ وانْهَلَّ واكفُ دمعه ... ولا تنسَ لي فضلَ انتسابي فأظلَما
إذا لم أطب عَرْفاً وحُسناً ومنظراً ... ولم أكُ زرعاً في الجنانِ مُقوَّما
فإني لَعبدٌ للكريم وطالما ... بآلائه العظمىٰ رَبيتُ مُنعَّما
سواء إذا لم أدرِ أو كنتُ دارياً ... فإن رجائي فيه أنْ لستُ أ،حرما
ومع كل ذا لا رأسُ مالي من التقى ... ولم أجن بالطاعات ما عشتُ مَغْنما
إذا انقطعتْ سبلُ النجاة فإنه ... لطيفٌ بحال العبد إن هوَ أجرَما
ومن عادةِ الأسياد عتقُ عبيدِها ... متى لَفَّع الفودَ المشيبُ وعمَّما

فيا مُبهج الدنيا بأنوار لُطفه ... علىٰ عبدك الشيخ الضعيف تكرما
ويا (سعدُ) فاستهدي إلىٰ منهج الرضا ... ولا تسلكنْ نهجاً سواه فتحرما
فما كانَ أشقىٰ من لَوىٰ عنه رأسَه ... ففي غير هذا النهج يقتلُك الظَّما

٤٧ـ حكاية

سألوا حكيماً: أيهما أفضلُ السخاءُ أم الشجاعة؟ فأجابَ: كل من وُجد في طبعه السخاءُ فليسَتْ به حاجةٌ إلىٰ الشجاعة.

بيت

بقبر بهرامَ خَطُّوا سطراً بصافي اللُّجينِ ... الجودُ بالكف خيرٌ من قوةِ الساعدَينِ

قطعة

لم يبقَ حاتَمُ حياً في الوجود وقد ... أحيا اسمَه الجودُ بين العُجم والعَربِ
فزكِّ مالَكَ إنَّ الكَرْمَ يُصلِحُه الـ ... ـتَّقليمُ حتىٰ يُرينا أطيبَ العِنَبِ

الباب الثالث:

في فضل القناعة

١ـ حكاية

كان سائلٌ مغربي ينادي بسوق البزازين بحلب: يا أرباب النعمة لو أنكم كنتم منصفين وكنا نحن قانعين لارتفع رسم السؤال من الدنيا.

قطعة

دعوتكَ يا كنز القناعةِ فاغنني أيا بلْسَماً ما مِثله لكَليمِ

قد اختارَ كنز الصبر لقمانُ حِكمةً فَمنْ ليسَ ذا صبر فغيرُ حكيمِ

٢ـ حكاية

كان في مصرَ ولدا أميرٍ عكفَ أحدهما علىٰ طلب العلم، والآخر علىٰ جمع المال، فذاك أصبحَ علّامة الدهر، وهذا صار عزيز مصر، وكان الغني ينظر الىٰ الفقير بعين الاحتقار ويقول: أنا وَصلتُ الىٰ السلطنة وأنتَ بقيتَ في الذلّ والمسكنة. فقال له الفقير: أيها الأخ هذه نعمة من الله تعالىٰ يجب عليَّ شكرُها حيث وَجدتُ ميراثَ الأنبياء «يعني العلم» ووجدتَ أنتَ ميراث فِرعونَ وهامان «يعني مُلْكَ مصر».

قطعة

كنملةٍ أنا تُوذي وهي غافلة ... ولم أكن عقرباً تؤذي فتنجَحِرُ
فكيف لي أنْ أُوفي شكرَ ذي نِعَمٍ ... إن لم أُطقْ حملَ ما تُوذي بهِ البشرُ

٣ـ حكاية

سمعت أن درويشاً احترق بنار الفاقة وخاط ثوبَه خرقةً علىٰ خرقة، وكان علىٰ الدوام يُسَلي نفسَه بهذا (البيت):

بالدلق مع يابس الخبز اقتنعْ أبداً ... واحملْ جفاك ولا تحمِل جدا بَشرِ

فقال له شخص: ما قعودُك علىٰ ما أنت فيه وفلان في هذه البلدة ذو طبع كريم وفضل عميم، قد شدَّ وسطه لخدمة الأحرار، وجلس علىٰ باب إرادَتهم، فلو اطَّلع علىٰ حقيقة حالك لما تأخر عن مراعاة خاطرك العزيز قبل سؤالك، فقال له: اسكتْ فإن الموتَ بالفقدان خير من عَرض الحاجة أمامَ إنسان. لأنهم قالوا:

قطعة

خِطْ رُقعةً فوق أخرىٰ إن عريتَ وَلا تخُطَّ يوماً لملك رُقعةً أبدا
فكا لجحيم عقاباً لا نظيرَ له بأن تَمُدَّ لجارٍ في النعيم يدا

٤ـ حكاية

أرسل أحدُ ملوك العجم لخدمة المصطفىٰ طبيباً حاذقاً، فلبِثَ عِدة سنين في بلاد العرب وما أتىٰ عنده أحد لتجربة ولا قصده إنسان لمعالجة، فجاء في أحد الأيام أمامَ سيد الأنام وشكا إليه قائلاً: إني كنت مُرْسَلاً لمعالجة الأصحاب وفي كل هذه المدة ما التفتَ إليَّ أحد أصلاً حتىٰ أقومَ بأداء ما عليَّ من الخدمة. فقال له رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: «إن طريقةَ هذه الطائفة ألّا يتناولوا شيئاً من الطعام ما لم

يغلبِهم الاشتهاءُ اليه، وأن يرفعوا أيديَهم عنه قبيل استكمالِ شهوتهم منه. فقال الطبيب: هـذا هـو سبَبُ العـافية. وقـبَّل الأرض بـين يـديه وانصرف.

رجـز

لا يبتدي الحكيم بالقول ولا بطَرفِ الأصبع يبغي المأكلا
إلا اذا بِصَمْته نقصاً يرىٰ أو من زهيد الأكل يلقى الضررا
عندئذ من قوله تبدو الحِكمْ والأكلُ يُنجي نفسه من السَّقَمْ

٥ـ حكاية

كان شخص يكثر التوبة ثم يعود فينقضُها. فقال له أحد المشايخ: مما لا أشك فيه أن عادتَك أن تأكل كثيراً. وقَيدُ النفس «يعني التوبة» أدقُّ من الشعرة، فكلما سَمِنَت نـفسُك تـقطَّع زنـجيرها مـن الضـيق، وسيأتي يوم يكون لك فيه التمزيق.

بـيت

رَبّى امرؤٌ جروَ ذئبٍ من جهالته وحين أصبح ذئباً فاتكاً أكلَهْ

٦ـ حكاية

ورد في سيرة ازدشير بن بابك أنه سأل طبيباً عربياً: ما مقدارُ الطعام الذي يلزم للتغذية في اليوم الواحد؟ فقال له الطبيب: يكفي وزنُ مائةِ درهم. فقال ازدشير: هذا المقدارُ ماذا يُعطي من القوةِ؟ فأجابه الطبيب: «هذا المقدارُ يحملك ومازاد علىٰ ذلك فأنت حامِلُه».

بـيت

الأكلُ ما كان إلا للحياة ولمْ تُلفَ الحياةُ لأجل الأكل فاستفدِ

٧ـ حكاية

كان درويشان من أهل خُراسانَ صديقين حميمين، فاتفقا مرة علىٰ السياحة، وكان أحدهما ضعيفاً يأكل في كل ليلتين مرة، والآخر قوياً يأكل في اليوم ثلاث مرات، وصادف أن أُلقي القبضُ عليهما بتهمة الجاسوسية علىٰ باب إحدىٰ المدن، فحُبِسَ كل منهما في دار وطُيِّنَ عليه بابها، وبعد اسبوعين تبين أنهما بريئان من هذه التهمة، فَفُتِحَ البابُ علىٰ القوي فوُجِدَ ميتاً، وعلىٰ الضعيف فوُجِدَ حياً، فعجب الناس من

أمرهما. فقال أحد الحكماء: كان لكم أن تعجبوا لو كان الحالُ علىٰ خلاف هذا؛ لأن الذي كان يأكل كثيراً لمَّا فقد القوتَ لم تبق له طاقة علىٰ احتمال ألَمِ الجوع، والآخر كان قد تعود علىٰ كبح جماح نفسه فصبر علىٰ المكروه وبقيَ سالماً.

قطعة

من اعتادَ مَطْل الجوع حتىٰ يُميتَه فليس يعاني غُصةَ الجوع في المحلِ
ومن بلذيذ العيش رفّه نفسَه وصادف محلاً مات من قلة الأكلِ

٨ـ حكاية

نهىٰ أحدُ الحكماء ابنَه عن كثرة الأكل قائلاً: إن الشبع يوقع الإنسان بالمرض. فقال الولد والجوع يا أبت يهلك، ألم تسمع قول الظرفاء: الموتُ بالشبع خير من الحياة بالجوع؟ فقال الأبُ: حسناً، ولكن تمسك بالاعتدال، قال الله تعالىٰ: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾.

بيت

لا تتركِ الجوفَ مملوءاً علىٰ تَأَقٍ ولا تَسِرْ لنحول الجسم بالجوع

قطعـة

أشهى المآكل مما قد تُسَر به   لو زادَ عن حده يؤذيك من جشعِ
يضركَ العسلُ الماذي مُتَّخِماً   ويابسُ الخبز لا يؤذي بلا شبعِ

٩ـ حكاية

قالوا لمريض: ماذا يُريد قلبُك؟ قال: ما لا يُريده قلبي أصلاً.

بـيت

متىٰ حل بالأمعاءِ داءُ لتخمة   فما بعلاجٍ عند ذلك تَصْلُحُ

١٠ـ حكاية

كان لجزار بواسط مقدار من الدراهم علىٰ بعض الصوفية، فأخذ يغدو عليهم ويروح في كل يوم ويُغلِظ لهم الكلام، فتكدر خاطر الأصحاب من عَنَته، وما وجدوا بُداً سوىٰ تحمل غلظته، فتصدىٰ لتأنيبهم وَرِعٌ منهم وقال: وعْدُ النفس بالمطاعم أيسرُ من وَعْد الجزار بالدراهم.

قطعة

أرىٰ تركَ إحسانِ الأمير مفضَّلاً على جفوة الحُجابِ تُخزيك بالعارِ
ولَلموتُ خيرٌ من تمنيك مُضغَةً من اللحم تَلْقى بعدَها لؤمَ جزارِ

١١ـ حكاية

حُكيَ أن أحد الكرماء أصيبَ بجراح خَطِرة في الحرب التي نشبَتْ بين الفرس والتتار. فقال له أحد عارفيه: إن فلاناً الغني عنده مرهم جيد فلو طلبت منه مقدار حاجتك فلعلهُ يعطيك. وقيل إن ذلك الغني كان مشهوراً بالبخل.

بيت

فلو حلَّت محل الخبْز في سفرتهِ الشمسُ لما شامَت مُحياها الأُخرىٰ دهرها الإنسُ

فقال الجريح: إذا طلبتُ منه المرهم، فإما أن يعطي وإما ألا يعطي، وإذا أعطىٰ فيجوز أنه ينفعني ويجوز أنه لا ينفع، وعلىٰ كل حال فإن طلبي منه شيئاً سمٌّ قاتل.

بيت

فما تبتغيه من دنيء بمنة به بَسطة في الجسم إذ تَنقصُ الروحُ

وقديماً قالت الحكماء: إذا فُرِضَ أن ماء الحياة لا يُباع إلا بماء الوجه فإن العاقل لا يشتريه «لأن الموت بالعز خير من الحياة بالذل».

بيت

كُلِ الحنظلَ من كف جَوادٍ حسَن الطبعِ ولا الماذيَّ من كف امرئٍ أقذَر من نِطْعِ

١٢ـ حكاية

كان لأحد العلماء عيالٌ كثيرٌ ودخلٌ يسيرٌ، فشكا حاله إلىٰ أحد الكبراء وكان يُحسِنُ الظن به كثيراً، فلوىٰ وجهَه عن أمنيتهِ ولم يَحُز عَرْضُ السؤال من أهل الأدب قَبولاً عند حضرته.

قطعة

لخلك لا تذهَبْ بوجهٍ مُقَطَّبٍ فتَعديه مما أنت فيه وتجرحُ

بل اذهبْ بوجهٍ بالبشاشةِ طافحٍ فكلُّ زَهي الوجْه بالنجح يَفرحُ

وروي أنه زاد قليلاً في مرتبه، ونقص كثيراً من تقربه، وبعد أيام قليلة لما رأىٰ أن محبته السابقة لم تبق علىٰ ما كان يعهد. قال:

شعر عربي الأصل

بئس المطاعمُ حينَ الذل تكسبها القِدرُ منتصِبٌ والقَدر مَحفوضُ

بيت

زاد رزقي وقل ماءُ المحيا فاحتياجي ولا مذَّلةُ نَفسي

١٣ـ حكاية

قال أحد الظرفاء: ظهرت علائم الإملاق علىٰ رجل من النبلاء، فقلت له: إن فلاناً يملك من المال مالا يُحصى فلو أوقفته علىٰ حاجتك فمن الجائز أنه لا يتأخر عن قضاء مأمولك. فقال: أنا لا أعرفه، قلت: أنا أكون دليلَك إليه، أخذتُ بيده حتىٰ انتهيتُ به إلىٰ منزل ذلك الرجل، فلما دخل عليه رأىٰ رجلاً قد جلس متهدِّلَ الشفة، عابسَ

الوجه، فلم يَقُلْ شيئاً وعادَ أدراجَه. فسألته ماذا صنعتَ؟ فأجاب: وهبتُ عطاءَهُ للقائِه.

قطعة

لعابس الوجه لا تبد احتياجك إذ   بقبح أخلاقه تؤذي فتضطربُ
إن كنت لابد مضطراً فأبدِ لمن   ترتاحُ من حسن لُقياه وتكتسبُ

١٤ـ حكاية

جاءت سنة على الاسكندرية بقحط شديد حتىٰ أُفلِتَ من يد الخلق زمام الطاقة علىٰ احتمال الفاقة، وغلَّقت السماء أبوابها عن الغبراء، وارتفع صُراخ أهل الأرض بالدعاء إلىٰ عَنان السماء.

قطعة

لم يبقَ وحش ولا طيرٌ ولا بشرُ   إلا علا نوحُه للعرش من سَغبِ
دُخانُ أكبادهم إن لم يَعُد سُحباً   والدمع غيثاً قَضيتُ العمر بالعجبِ

وهكذا في هذه السنة النكراء ألجأ الاضطرارُ إلىٰ ذكر مخنث

أبعده الله عن الأحبة الأبرار، لأن الكلامَ في وصفه تَركٌ للأدب، وخاصة بحضرة أرباب الرُّتَب، والاعراضُ كذلك عن وصف مثلهِ لا يليق، لأن طائفةً من الناس ربما حملوا ذلك علىٰ العجز في البيان، إذن سأختصر وصفَه بهذين البيتين، فالنزر اليسير يدل علىٰ الجم الغفير، وقبضة شعير بمقدار نموذجٌ لِحمل حمار.

قطعة

إما يُطح تتريُ رأسَ ذي خَنَثٍ　　فليسَ للناس أن تقتصَّ من تتري

شبيهُه جسر بغداد بأسفلهِ　　تجري المياه وظهرُ الجسرِ للبشرِ

هكذا أسمعني شخصٌ طرَفاً من وصفه في تلك السنة بأنه يملك نعمة لا تحصى، وأنه يهب الفضة والذهب لأهل الضيق، وسفرته ممدودة للغادين والرائحين علىٰ قارعةِ الطريق، وقد همَّتْ جماعة من الفقراء من جور الفاقة، أن يقصدوا سماطه وأتوا لمشورتي فأمَلْتُ رأسي عن موافقتهم وقلت:

قطعة

لا يقربُ الليثُ صيدَ الكلب من شرفٍ　　لو مات في غابهِ من شدة السغبِ

فأطعمِ الجسمَ للجوعِ المميتِ ولا تمد كفاً لنذلٍ غير ذي أدبِ
لا تحسب الغمر انساناً بما ملكت يداه لو كان «افريدون» في الرتبِ
فإنه ببرودِ الوشيِ زاهيةً مثلُ الجدار إذا تطليه بالذهبِ

١٥ـ حكاية

قال ناس لحاتم الطائي: أرأيتَ أو سمعتَ بمن هو أعلىٰ منك همةً في هذه الدنيا؟ فقال: نَعمْ، نَحرتُ يوماً أربعين جملاً وخرجتُ الىٰ طرف البادية لأدعو أمراء العرب، فرأيتُ حاطباً يحمل علىٰ ظهره حزمةَ شوك يريد بها المدينة. فقلت له: لماذا لم تذهبْ الىٰ ضيافة حاتم؟ فإن خلقاً كثيراً قد التفوا حول مائدته. فالتفتَ إليّ وأنشد:

بيت

أرىٰ كل من بالكدح يُدرك خبزه فليس بمحتاج لمنة حاتمِ

فالحق أقول لقد رأيت ذلك الرجل أعلىٰ منّي همة وأكرم.

١٦ـ حكاية

رأىٰ موسىٰ (عليه السلام) فقيراً قد سترَ جسمَه بالرمل من العُري.

فقال لموسىٰ: ادعُ ليَ اللهَ أن يرزقني كفافاً فقد كاد الفقر يزهق روحي، فدعا له اللهَ أن يمنحه ثروةً، وبعد عدة أيام عاد موسىٰ للمناجاة فرآه موثقاً وقد اجتمع عليه خلقٌ كثيرٌ، فسأل موسىٰ عليه السلام عن الداعي لهذه الحال. فأُخْبِرَ بأنه شربَ خمراً فعربَد وقتل نفساً، وقد سيق الآن للقصاص.

بـيت

لو أن الفقير الهرَّ أضحىٰ مجنَّحاً　　لما كانَ للعصفورِ ذكرُ علىٰ الدنيا

بـيت

فلو أن ذا عجزٍ تُوافيه قوةُ　　لكسَّر أيدي العاجزين بلا ذنب

فعندئذ أَقر موسىٰ عليه السلام بحكمة خالق العالم ومُقدِّرِ أقواتـهم، واستغفر من تجاسره علىٰ ربه، وتلا معنىٰ هذه الآية: ﴿ولو بسط الله الرزقَ لعباده لبغوا في الأرض﴾.

شعر عربي الأصل

ماذا أخاضك يا مغرورُ بالخطرِ　　حتىٰ هلكت فليتَ النملَ لم يَطِرِ

قطعة

إذا ما وضيعٌ نال جاهاً وثروة ففي نيلها قتلٌ له وأذاةُ
وذا مَثلٌ ثانٍ يفيدُك ضَربُه بغير جناحٍ للنمال حياةُ

حكمة

عسل الوالد كثيرٌ، ولكن الولد حرارته طبيعية، فليس بحاجة اليه.

بيت

ذاك الذي معَ نُعماه فقدتَ غنى بما يفيدك أدرى منك يا ولَدُ

١٧ـ حكاية

رأيت أعرابياً في سوق الجوهريين بالبصرة، فسمعته يقول: ضللت الطريق بالبادية منذ أيام ولم يبقَ معي من الزاد ما أتبلَّغ به، وفجأة عثرتُ علىٰ كيس من الدرِّ فطار لبي من الفرح إذ ظننت أنه سَويقٌ، وما أنْسَ من شيء لا أنسَ مرارة ذلك اليأسِ الذي اعتراني لمَّا علمتُ أن ما في داخله لؤلؤ لا سَويق.

قطعة

في قسوة البيدِ والرمضاءُ محرِقةٌ سيان عندَ العِطاش الدرُّ والصدفُ
وعند فاقِد زادٍ عَيَّ من لَغَبٍ سواءُ الذهبُ الوهاج والخزَفُ

١٨ـ حكاية

كان أحد الأعراب في الصحراء لشدة ظمئه يقول متمنياً:

شعر عربي الأصل

يا ليت قبل منيتي يوماً أفوز بمُنيتي
نهرٌ يلاطم ركبتي فأظل أملأ قربتي

١٩ـ حكاية

وهكذا تاه مسافر في فيافي الصحراء، ولم تبق له قوة ولا قوت سوىٰ دريهمات شدَّ عليها حزامَه، وبعد الجهد الجهيد ما اهتدىٰ إلىٰ الطريق، فهلك من المشقة لبعد الشُّقة، ومرَّ به ناس فرأوه قد وضع

دراهمه قدامه وخط علىٰ الثرىٰ هذين البيتين:

قطعـة

لو ان النضارَ الجعفري جميعَه بكفك ما أغنىٰ وأنت بلا زادِ
ولو نلتَ في البيداء قطعةَ سَلْجَمٍ علىٰ الجوع قد تُغنيكَ عن كل إسعادِ

٢٠ـ حكاية

عمري ما شكوتُ من جور الزمان، ولا عبستُ في وجه الفلَكِ مدة الدوران إلا في وقتٍ واحدٍ اشتد فيه من الحفا ألَمي، ولم أملِك القدرةَ علىٰ شراء حذاء أسترُ به قدمي، فدخلتُ مسجد الكوفة وأنا مضطربُ القلب، واذا برجلٍ مقطوع الرجل، فوعظتني حالتُه، ورأيتُ أن الحـفا بالنسبة اليه نعمةٌ يجب عليَّ لله شكرها.

قطعـة

الطائر المشوي في نظر امرئٍ شبعانَ دون البقلةِ الحمقاءِ
والسلجم المطبوخ أهنأ أكلةٍ في عين جوعانٍ على الرمضاءِ

٢١ـ حكاية

خرج أحد الملوك للصيد مع نفر من المقربين إليه، فدَهمَهم الليل وقد ابتعدوا عن العاصمة فلاح لهم بيت دهقان. فقال الملك: لنذهب الليلة إلىٰ هناك حتىٰ لا نعاني شدة البرد. فقال أحد الوزراء: لا يليق بقدر الملوك الالتجاءُ الىٰ بيت دهقان صعلوك، فيجدر بنا أن نضربَ هنا خيمةً ونضرمَ النار. ولما وصل خبرهم إلىٰ الدهقان هيأ من الطعام ما قدر عليه وأحضره أمام الملك وقبَّل الأرض بين يديه وقال: قدر الملك السامي مع هذا المقدار لا يتَّضِع، ولكن قدر الدهقانُ يريد أنْ يرتفع. فلقي كلامه قبولاً عند الملك، فانتقل في تلك الليلة إلىٰ منزله، وفي الصباح أغدق عليه نعمه وخلع عليه خلعةً سنيةً. وسمعتُ أنه مشىٰ عدة خطوات في ركاب الملك وأنشد مترنماً:

قطعة

لم ينتقِص شرف المليك وقدرُه   لما أتىٰ لضيافة الدهقانِ
لكنما الدهقان لما زارَهُ   ملكُ الورىٰ استَعْلىٰ علىٰ كيوانِ

٢٢ـ حكاية

حكوا عن متسولٍ ملحاحٍ يملك نعمةً وافرةً، فقال له أحد الملوك: نرىٰ أنك تملِك من المال ما لا يُحصى وعلينا مُهمةٌ، فإذا ساعدتنا ببعض مالِك بصفة قَرض فسنرده إليك متىٰ وردَ محصولُ الولاية. فقال المتسول: لا يليق بقدر ملك الأنام السامي أن يُلوِّث يَدَ همته بمال متسولٍ مثلي جُمِعَ حبةً فحبةً. فأجابه الملك: لا تغتم فأنا أعطيه التتارَ، لقوله تعالىٰ ﴿الخبيثاتُ للخبيثين﴾.

شعر عربي الأصل

قالوا عجينُ الكاس ليس بطاهرِ قلنا نَسُدُّ به شقوقَ المبرزِ

بيت

اذا ماءُ بئر للنصارىٰ منجس فميتَ اليهود اغسلْ به دون أن تخشىٰ

وسمعتُ أنه لوىٰ برأسه عن أمر الملك وأخذ يقيم الحججَ الواهيةَ بوقاحة متناهية. فأمر الملك بعد أن رأىٰ منه ذلك الصنيعَ أن يُستخلَص

مضمون أمره من ذلك الوقح بالزجر والتقريع.

رجـز

إلا يَجئْكَ عملٌ باللطفِ فليخرجَنْ حتماً بأقوى العسفِ
إذ كل من لنفسه لا يرحَمُ فحقه من غيره لا يُرحَمُ

٢٣ـ حكاية

رأيت غنياً يملك من المال حِمْلَ مائة وخمسين جملاً، وله أربعون عبداً، ومثلهم من الغلمان. دخل عليَّ غرفتي ليلةً في جزيرة (كيش) ولم يسترح طول الليل من كثرة الهذَر. فكان يقول: فلان شريكي بتركستان ولي بضاعة بهندستان، وهذه البطاقة سندٌ بأرضٍ على فلان والشيء الفلاني بكفالة فلان. وتارة كان يقول: إن السفر إلى الاسكندرية يملِكُ عليَّ فكري لأن جوَّها لطيفٌ، ومرة يقول: لا، لأن بحر المغرب مَخوف، وقال لي غيرَ مرة: يا سعدي ورائي سفرٌ آخرُ فإذا انتهيتُ منه فسأجلس بزاوية اعتزالي بقيةَ عمري وأترك التجارة. فقلت: أي سفر ذاك؟ فقال: أريد أن أذهبَ بالكبريت الفارسي إلى الصين، لأنني سمعت أنه هناك ذو قيمة غالية، ومن هناك سأجلب الأقداحَ الصينية الى

بلاد الروم، والديباجَ الرومي الىٰ الهند، والفولاذَ الهندي إلىٰ حلب، والمَرايا الحلبيةَ الى اليمن، والبرود اليمانية الىٰ فارس، ومن بعد ذلك سأترك التجارة وأتخذ لي دكاناً أجلس فيه. وظل يهذي هذيانَ المحموم بمثل هذه الأفكار الفاسدة. ولمَّا لم يَبقَ بجعبته شيء من ذلك الهُراء قال لي: يا سعدي حدِّثني أنتَ بما رأيتَ أو سمعتَ. فقلتُ:

رباعية

أما سمعتَ بحادي الركب حينَ هوىٰ بجانب (الغَوْر) عن إحدىٰ نجائبِهِ
فقال: لا تمتلي عينُ الحريص سوىٰ من الترابِ فهل ينأىٰ بجانبِهِ

٢٤ـ حكاية

سمعت أن غنياً كان مشهوراً بالبخل شهرةَ حاتم الطائي بالسخاء، ظاهرُ حاله مُزدانٌ بنعمة الدنيا، وخسة طبيعته متمكنة كذلك في قرارة نفسه، ما جادَتْ يده لأحد من الخبز بكسرة، ولا خادَعَ هِرَّة أَبي هريرة بلقمة، ولا ألقىٰ لكلب أهل الكهف عظمة، والخلاصةُ أن دارَه ما رآها بشرٌ مفتوحةً، وسفرته ما شهدها أحدٌ ممدودة.

بيت

ما شم مسكينُ روائحَ زاده　　والطيرُ لم تَلْقُطْ فُتاتَ طعامِهِ

فسمعت أنه قصد مصرَ عن طريق بحر المغرب متخيلاً فرعونَ في سر قوله تعالىٰ: ﴿حتىٰ إذا أدركه الغرق﴾ وإذا بعاصفةٍ هوجاءَ دارت بالسفينة كما قالوا:

بيت

مَلولُ السجايا لمْ يوافقْه قلبُه　　وقد تُغرق السفنَ العواصفُ في البحرِ

فرفع يديه بالدعاء وأخذ ينوح ويستغيث بلا جدوىٰ، كقوله تعالىٰ ﴿فإذا ركبوا في الفُلْك دعوا الله مخلصين له الدين﴾.

قطعة

برفعك الكفين نحو السما　　ماذا تفيد البائسَ المعدَما

تديرها لله عند الندا　　وتحت إبطيك بوقت النَّدىٰ

قطعة

جُذْ بما أنت جامعٌ من نُضارِ　　وعلى النفس لا تكن بالبخيلِ
إن قصراً شيَّدتَه لخلودٍ　　سوف يُمسي لوارثٍ أو خليلِ

وروي أنه كان له بمصرَ أقاربُ فقراءٌ، فاغتنوا ببقية ما ورثوه من ماله، ومزقوا بموته أسمالَهم الباليةَ، ولبسوا بدَلها الخز الدمياطي، ولقد رأيتُ أحدهم في ذلك الأسبوع علىٰ جوادٍ فارهٍ، وغلامٌ ملائكيُّ الطّلعة يجري وراءَه. فقلتُ في نفسي:

قطعة

يا إلٰهي لو أن ميتاً بلحدٍ　　عاد حياً عن أهله لن يحولا
لتمنىٰ المماتَ مَنْ ورثوه　　دون رد الميراث رداً جميلاً

ولسابق المعرفة ما بيننا أخذتُ بكمه وقلت:

بيت

كُلْ هنيئاً فأنتَ أفضل ممن　　ماتَ من بعد كدحَه جوعاناً

٢٥ـ حكاية

وقعت سمكة قوية في شبكة صياد ضعيف، ولم يُطق ضبطها فغلبَتْه واختطفَتْ الشبكة من يده وغاصَتْ في الماء.

قطعـة

وردَ النهرَ يطلبُ الوِرْدَ طفلُ   فطغىٰ ماؤه فنالَ الهلاكا
كل حين تصيدُ حوتاً شِباكُ   رُبَّ حوتٍ بالبحر صادَ الشباكا

فأسِفَ الصيادون ولاموه قائلين: أيقع مثل هذا الصيد في شبكتك ولا تستطيع أن تحتفظ به؟ فقال: أيها الإخوة ماذا أصنع، لم تكن رزقاً لي وهي كذلك قد بقي لها رزق في الدنيا.

حكمـة

الصياد العديم الرزق في دجلَة لا يَصيد سمكة، والسمكة التي لم ينقطع رزقها لا تموتُ ولو كانت في اليابسة.

٢٦ـ حكاية

رجل مقطوع اليد والرجل قتل (أم الأربع والأربعين) فمر به

متدين فقال: سبحان الله مع هذه الأرجل الكثيرة التي لها ما استطاعت الهرب ممن لا يَد له ولا رجل حين انتهىٰ أجلُها.

رجـز

إن لَزَّك العدو في يوم الوَهْل وقيَّد الرجلَ عن الجرْي الأَجَلْ
وقد تلاحقَتْ وراءَك العِدى فما سلاحُ مُنجياً من الرَّدى

٢٧ـ حكاية

رأيت أحمقَ سميناً يرتدي كساءً ثميناً تحته مُهرٌ عربيٌّ، وعلىٰ رأسه برنُسٌ مصري . قال لي شخص: يا سعدي كيف ترىٰ هذا الديباجَ المُعلَّم علىٰ هذا الحيوان الأعجم؟ فقلت:

«خط قبيحٌ، ولكنه مكتوبٌ بماء الذَهب».

شعر عربي الأصل

قد شابه بالورىٰ حمارُ عجلاً جسداً له خوارُ

قطعـة

لم أقل صارَ ذا آدمياً بنقوش تُزهى علىٰ أثوابِه

كل مُلْكٍ لديه يَحرُم إلا دَمُه لو يُراقُ في محرابِهْ

قطعـة

لا تظن الشريفَ يُمسي وضيعاً إنْ وهَتْ لافتقاره أَسبابُهْ
واليهوديُّ لا يَصيرُ شريفاً إن تُصَفَّحْ بعسجَدٍ أبوابُه

٢٨ـ حكاية

قال لص لمتسول: أما تستحي أن تمد يدك أمام كل لئيم لأجل (حبة فِضة)؟ فأجابَه المتسول:

بـيت

لَمدُّ يدي خيرُ لحبةِ فضةٍ ولا قطعُها يا لِصُّ في رُبْع دينارِ

٢٩ـ حكاية

حكوا أن مُلاكِماً زهقت روحه من معاكسة الدهر، فشكا إلىٰ أبيه

سَعة الحلق وضيق الرزق، والتمس منه أن يأذنَ له بالسفر قائلاً: لعلي بقوَّة ساعدي أضم ذَيلَ مرامي إلىٰ راحة يدي.

بـيت

هَباءً يَضيعُ الفضلُ مادامَ لا يُرىٰ   ضعِ العودَ في نار وَفُتَّ من المِسكِ

فقال الأبُ: أي بني أزلْ عن رأسك خيالَ المـحال، وجُـرَّ رِجـل القناعة في أذيـال السـلامة؛ لأن العـظماءَ قـالوا: الحـظ ليس بـالسعي فخفِّضْ من غلوائك.

قطعـة

بالعزمِ لا تُدركُ ما تشتهي   لكي تُرىٰ بين البرايا أميرْ
فسعيُك الباطلُ شِبهُ له   وَسْمٌ علىٰ حاجب عين الضريرْ

بيت

بزُلفك لو كلُّ العلوم تعلَّقت   لما زدتَ إفضالاً وحظُّك نائمُ

بيت

تخور القوى مَعْ قلة الحظ فالفتى بطالع سعدٍ لا بقوة ساعدِ

فقال الولد: أي والدي، فوائدُ السفر كثيرةٌ، فمنها نـزهةُ الخاطر، وجذبُ الفوائد، ورؤيةُ العجائب، واستماعُ الغرائب، والتفرجُ على البلدان، ومحاورةُ الخلان، وتحصيلُ الجاه والأدب، وزيادة المال والمكسب، ومعرفةُ الأنام، وتجربةُ الأيام، هكذا قال سالكو الطريق.

قطعة

ما دمتَ في حانوتِ دارك قابعاً لم تُمسِ إنساناً لنفسك هادياً
سرْ في فجاج الأرض وانظر حُسنها من قبل أن تُمسي بلحدك ثاوياً

فقال الأب: أيها الولد، منافعُ السفر على هذا النمط الذي قلتَه لا تحصى، ولكنْ المسلَّمُ بفائدتها خمسة أصناف؛ الأول: تاجرٌ لوفرة نعمته وامتلاكه الغلمان والجواري الحسان هو كل يوم في مدينة وكل ليلة بمقام وكل حين بمتَنَزَّه يتمتع بنعيم الدنيا.

قطعة

بالقَفْرِ لا يلقى المنعَّم غُربةً   مادامَ يتخذ الخيامَ مُقاما
أما الفقيرُ فخامِلٌ في داره   وبقُطره لَمْ يعرف إلّا كراما

الثاني عالمٌ بعذب منطقه وقوة فصاحته ووفرة بلاغته، أنَّى ذهب يكون مُقدَّماً ويعيش مُكرَّماً.

قطعة

كخالِص تبرٍ ذو المعارف قدْرُهُ   لدى الناس محفوظٌ يُزانُ به الإلفُ
وذو الجهل في البيت الرفيع عمادُه   كزائفِ نَقْدٍ لا تقلِّبُه كَفُّ

الثالث ذو محيا جميل تميل قلوب الزهاد لمخالطته وتنجذب لمحادثته، فتعد صحبته غنيمة، وخدمته منة عظيمة، كما قيل: جمال قليل خير من مال كثير، والوجه الجميل مرهم جراح القلوب المرهَقَة، ومفتاح الأبواب المغلقة.

قطعة

ذو الحسن يلقى احتراماً حيث حلَّ وإن   لاقى من الأهل تعذيباً وتغريباً

رأيتُ ريشةَ طاووس لَدىٰ وَرَقٍ بمصحفٍ غَيَّبوها فيهِ تغييباً
فقلت: ذي رُتبةٌ كيفَ انفردتِ بِها فحُزتِ ما لم يكن في الدهرِ محسوباً
فقالت اسكت فأهل الحسن حيث مضوا يَلقَوْن عِزاً وتكريماً وتقريباً

قطعـة

اذا وَلدٌ يسبي القلوبَ مُوافقٌ تبرّأ منه والد فاطردِ الظَّنا
فذا لؤلؤ قد كانَ في صدفاتِه فلما نأى عنها بجوهره أغنى

الرابعُ ذو الصوت الحسن الذي بحنجرته الداودية يوقف الماءَ عن الجريان والطيرَ عن الطيران، وبواسطة هذه الفضيلة يصيد قلوبَ الرجال ويرغب أرباب المعاني في منادمته في كل حال.

شعر عربي الأصل

سمعي الى حسن الأغاني من ذا الذي جَسَّ المثاني

قطعـة

فَما أَحسنَ الصوتَ الرخيم فإنه لسمع الندامى في الصباح صَبوحُ

يَزيدُ به حُسْنُ المحيا ملاحَةً إذ الصوتُ سِحرٌ ما إليه طُموحُ
فحسنُكِ هذا تبلغ النفسُ حظَّها به وبحسن الصوتِ تنتعشُ الروحُ

الخامسُ ذو الصنعة الذي يحصِّل قوتَه بكدِّ يمينه وعرق جبينه، حتىٰ لا يريق ماءَ وجهه أمام نذلٍ لرغيف خبز كما قالت العقلاء:

قطعة

ومحترفٍ نائي الديار لَو أنَّه مُرقِّعُ أثواب فليسَ يَجوعُ
ومالكُ نصفِ الأرض لو ساء حظه سيحيا حياةً في الأنام تَروعُ

فهذه الصفات التي بيّنتها هي الموجبة لجمعية الخاطر وطيب العيش للمسافر، وأما من خلا عن هذه الفضائل فسعيه في الدنيا خيال باطل، وما أحد يسمع اسمه أو يحس رسمه.

قطعة

ألا كلُّ من دار الزمان بعكسه فأيامه تهديه في غير صالحِ
وكل حَمامٍ ليسَ يألَف عُشَّه فلابد أنْ يرمىٰ بإحدىٰ الجوائحِ

قال الولد: بأي برهان يا أبت أخالفُ قول الحكماء حيث قالوا:

الرزق ولو أنه مقسومٌ، ولكن التعلُّقَ بأسباب الحصول عليه شرط واجب، والبلاءُ ولو أنه محتوم، فإن الاحترازَ عن الدخول في أبوابه من أوجب المطالب.

قطعة

إن كان رزقك مقسوماً فليس بلا سعي ليأتيك ياذا العقل والدينِ
أو كانُ عمرك محتوماً فمن سَفَهٍ أن تُلقيَ النفسَ في أشداق تِنينِ

فبهذه الصورة التي استطيع فيها أن أصادم الفيل الحردان، وأُصارع الأسد الغضبان، فمن المصلحة أن أُسافر إذ لم تبق لي طاقة علىٰ احتمال هذه الفاقة.

قطعة

إذا ما امرؤٌ عن دارهِ طوَّحَت بهِ يدُ الدهر فالآفاقُ طُراً مسارحُهْ
إلىٰ قصره يأوي الغنيُّ عشيةً وذو الفقر في الظلماءِ كُثرٌ مطارِحُهْ

قال هذا، ونهض مشمراً عن ذيل الهمة، فودَّع أباه وجرىٰ مسرعاً وسمعوه ينشد عند ذهابه:

بيت

العارفُ الفذ إمَّا الحظُّ عاكسَه   فحيثما حلَّ لم يذكر لدى الناسِ

حتىٰ انتهىٰ إلىٰ ساحل ماء شديد الاضطراب والمدتدحرج الحجارة منه حين يطغى عن الحد، وإلىٰ مسافة فرسخ دويه يمتد.

قطعة

ماء مخوفُ لو أن البطَّ عام به   لما رأىٰ الأمن بل ألوىٰ به التلفُ
بِسيفهِ لو رحىٰ طاحونةٍ قُذفَتْ   إذن لظلَّت بأوهىٰ الموج تَنجَرِفُ

فرأىٰ جماعةً من الرجال متأهبين للسفر، وكلُّ امرئٍ منهم جالسٌ بأُجرته عند المعبر وقد ربط أمتعته، وحيث كانت يد الفتىٰ مغلولة عن العطاء بسطَ للحاضرين لسانَ الثناء، ومع كثرة توجعه ما أعانوه، بل قالوا وعَنوه.

بيت

بلا ذهب لم تَقوَ يوماً علىٰ امرئٍ   فإن حُزتَه أغناكَ عن قوة الجسمِ

وكذلك الملاح عديم المروءة، سخر منه وقال:

بيت

بلا ذهب لَن تركب البحر غاصباً   ولا بقوىٰ عَشْرٍ فَهيّئ لنا الأجرا

فاستشاط الشابُّ غضباً من هذه الطعنة النجلاء، وصمم علىٰ الانتقام منه، وكانت السفينة قد أقلَعتْ، فصرخ قائلاً: إذا قَنِعتَ بهذا الثوب الذي يسترني فارجع وخذه غيرَ آسف عليه، فأدار الملاح السفينة طمعاً فيه.

بيت

إن الشراهةَ تُعمي عينَ صاحبها   ويهلك الطيرُ بالأطماع والسمكُ

فبمجرد ما وصلت يد الفتىٰ إلىٰ طوق الملاح ولحيته جذبه إليه وانهال عليه باللكمات دون محاباة، وأسرع صديقه من السفينة ليكون ظهيراً له، فلقي كذلك لكماتٍ قاسيةً فولّىٰ مدبراً، ورَأَيا من المصلحة أن يصالحاه ويسامحاه بأُجرة السفينة.

رجـز

متىٰ ترَ الشر فكن ذا صبرِ فاللينُ قد يغلق باب الشرِّ
كن ليناً في المأزق الخطيرِ فالسيفُ لا يَعملُ بالحريرِ
تقدر بالعذْبِ من الخطابِ بشعرةٍ تقود فيلَ الغابِ

فوقعا علىٰ قدميه معتذرين عما بدر منهما وقبلا رأسه وعينيه نِفاقاً، وأدخلاه السفينةَ وأقلعا، حتىٰ اذا انتهوا إلىٰ عمود في عمارة يونان قائم بالماء، قال الملاح: حصل خلل بالسفينة فمن كان منكم أشد قوة وشجاعة وسطوة فليصعَدْ الىٰ أعلىٰ العمود فيربط به حبل السفينة لنصلحها، فهمّ ذلك الشاب لغرور القوة الذي برأسه، وما افتكر بكيد العدو المجروح الفؤاد، ولا عمل بقول الحكماء حيث قالوا: من أذقْتَ قَلبَه الألم مرةً ولو أعقبتَها في راحته مائة كرة، فلا تأمن أن يَفتكِرَ ذلك الألم الفَرْدَ، لأن النصل يخرج من الجرح ويبقىٰ تألُّمُ القلب.

قطعـة

يا حسنَ ما قاله بكداشٌ من قِدَمٍ لخيلتاشٍ لكيلا يجهلَ الخُدَعا

إن تُلفِ خصمَك في الهيجاء مرتعداً　　أمام سيفك فاتركْهُ به قِطعا

قطعة

فإياك لا تأمن فتى ضاق صدرُه　　لخطب رماه من يديك على ضِغنِ
على قلعةٍ لا ترم يوماً حجارة　　فتلقي بأحجار عليك من الحِصْنِ

وما كاد يَلُفُّ حبل السفينة على يده ويصعد إلى أعلى العمود، حتى قطعَ الملاحُ الحبل وأقلع، فبقي ذلك المسكين في مكانه مشدوهاً يكابد المحنة ويعاني الشدة، وفي اليوم الثالث عَقَد النومُ أجفانه فوقع في الماء، وبعد يوم وليلة قذفه الموج على الساحل وهو بآخر رمق، فأخذ يأكل أوراق الأشجار وجذور النباتات، حتى إذا وجد قليلاً من القوة مضى على وجهه هائماً في الصحراء، وبعد الجوع والعطش والضنى وصل إلى حافة بئر عليها أناس التفوا حولها حين رأوه، وكانوا يبيعون شَربَة الماء بفَلس، وهو صِفر اليد، فاستسقى، فأبَوا، فمدّ لهم يد التعدّي فما قدر، وتكاثر عليه من حضر فغلبوه، فوقع بعد الصِّدام جريحاً.

قطعة

إن البعوضة تؤذي الفيل مَعْ حَردٍ　　بطبعه واعتزازٍ في ضخامتهِ

والنمل إن يجتمع يوماً علىٰ أسدٍ يمزق الجلدَ منه معْ شراستِهِ

فسار وراء القافلة مضطراً لمرضه وجرحه، حتىٰ وصلوا ليلاً إلىٰ محل خطر تكمن فيه اللصوص، فرأىٰ جماعته يرتعدون من الخوف وقد أيقنوا بالهلاك. فقال لهم الشاب: لا تخافوا مادام بينكم بطلٌ مثلي يستطيع أن يصرعَ خمسين رجلاً، وعلى الشبان المساعدة، فقويت بكلامه عزائمهم وفرحوا بصحبته وأسعفوه بالزاد والماء، وقد كانت نار معدته عاليةَ اللهب وعِنان الطاقة من يده قد ذهب، فتناول من الطعام قدرَ مشتهاه وشرب من الماء ما كان يتمناه، فارتاح شيطانُ معدته، واختطفه النوم فنام. وكان في القافلة شيخ حنكته التجارب، وعركته من الأيام النوائب، فقال: أيها الأحباب إن خوفي من حاميكم هذا أكثر من خوفي من اللصوص. فقد حُكي أن أعرابياً جمع دريهمات، وخوفاً من اللصوص لم يرقد بمنزله منفرداً، فأحضر أحدَ أحبابه لتزول وحشته برؤيته، فأقام بصحبته عدة ليال حتىٰ عثر على الدراهم فأخذها وهرب. وفي الصباح رآه الناس عُرياناً باكياً، فسألوه: ما دهاك، هل سرق لصٌ دراهمك؟ فأجاب: لا؛ ولكن حامي الدار هو الذي سرقها.

قطعـة

ما كنت آمنُ للأفعى فأمسكَها مادام يَكمُنُ في أنيابها أجَلي
فكيفَ آمنُ من يُبدي مودتَهُ ونابُه نابُ أفعى حينَ يبسمُ لِي

قال الشيخ: وما يدريكم أيها الأحباب أن يكون هذا الشاب أيضاً من جملة اللصوص واندَسَّ بينكم لهذا الغرض حتىٰ إذا سنحت له الفرصة دل عليكم أصحابه، فأرىٰ من المصلحة أن نتركه نائماً ونسرع بالذهاب، فجاء تدبير الشيخ محكماً، وتملكت مهابةُ الشاب أفئدتَهم، فشدوا رِحالهم وتركوه نائماً، فما أحس حتىٰ ألهبت الشمس كَتِفَه، ورفع رأسه فإذا القافلة قد سافرت، وبحث كثيراً عن الطريق فلم يهتدِ إليه، فوضعَ خده علىٰ الثرىٰ وقلبَه علىٰ التَّهلِكة غَرثانَ صادياً.

شعر عربي الأصل

من ذا يُحدثني وزُمَّ العيسُ ما للغريب سوىٰ الغريب أنيسُ

بـيت

اذا ما النوىٰ لم يكسب المرءَ رقةً يكن قاسياً دوماً علىٰ الغرباء

وبينا هو في هذا الكلام إذا بابن ملك كان قد تباعد عن العسكر وراء طريدة، فوقف علىٰ رأسه وسمع ماقاله، وتفرَّس في هيئته فرأىٰ طهارة ظاهر صورته، وتَشتُّتَ حالته، فسأله: من أين أنت؟ وكيف وقعت في هذا المكان؟ فقصَّ عليه طرفاً مما مر علىٰ رأسه، فرقَّ له وأغدق عليه نعمه، وقرنه برفيق معتمد حتىٰ أوصله إلىٰ بلدته، ففرح أبوه بمشاهدته وشكر الله علىٰ سلامته، وفي تلك الليلة حكىٰ لوالده كل ما جرىٰ علىٰ رأسه من حالة السفينة، وجور الملاح والقرويين، وغدر الجماعة المسافرين. فقال الأب: يا ولدي، ألم أقل لك حين سفرك أن فراغَ اليد يغلُّ يد الشجاعة، ويقلِّم أظفار البطولة؟

بيت

يا حسنَ ما قال صِفرُ الكف ذو خطرٍ نزرٌ من التِّبر خير من قوى أسدِ

فقال الولد: أي والدي، ما لم تظهر المشقةُ لم تستخرج الكنز، وما لم تخاطرْ بالنفس لم تنل الظفر علىٰ العدو، وما لم تبذر الحَب لم تحصد البيدر، ألا ترىٰ أنني برأسمال يسير من الألم أدركتُ هذه الخزائنَ الثمينةَ، وبالسم الذي تجرعته ذقت حلاوة ما جمعتُه.

بيت

وإن لم تكن إلّا نصيبَك آكلاً فلا تقعدَنْ ما عشتَ عن طلب الرزقِ

بيت

فلو رَهِبَ الغواصُ تِمساحَ بحره لما نال في يوم نفيساً من البحرِ

حكمة

حجر الطاحون الأسفل غيرُ متحرك، فلا جرم كان يتحمل الحمل المثقل.

قطعة

أيرتزق الضرغامُ في الخيس مضغةً وإن وقعَ البازي فيه فهل يغني
وإن أنت رُمت الصيد في الدار أصبحَت شباكُك نسجَ العنكبوت من الوهنِ

فقال الأب: يا بني، في هذه المرة ساعدتك دورة الفلك، وهداك الإقبال الى النوال، فخرج وردك من شوكه إذ أخرجتَ الشوكَ من قدمك،

واتصل بك صاحب دولة فرحمك وأنعم عليك، وبتفقده جبر كَسْرَ حالك، ومثلُ هذا يقع في النادر، والنادر لا يُبنىٰ عليه حكم.

بيت

ما ابنُ آوى لصائد كل حين   رب يوم بنمر غابٍ يُصادُ

تشبيه

كما أن ملكاً من ملوك فارس كان عنده حجر خاتم ثمين، فخرج للتفرج مرة مع عدد من أخصائه إلىٰ (مُصلّىٰ شيراز) فنزعه من يده، وأمر أن يوضع علىٰ قبة (عَضُدِ الدولة) وأن كل من أجاز سهمَه منه فهو له، واتفق أن كان في خدمته أربعمائة من أمهر الرماة، وكلٌّ أخطأ المرمى إلّا غلامٌ كان على الإسطبل يتلاعب بالسهام، فأجاز منه سهمَه، فمُنِحَ له الخاتم، وما لا يحصىٰ من النعم، وبعد هذا أَحرق الغلامُ القوسَ والسهام. فقيل له: لماذا فعلت هذا؟ فقال: حتىٰ يبقىٰ اعتباري الأولُّ بمحله.

قطعة

قد يزلُّ الحكيم ذو النظر الثا   قب لما يخونه التدبيرُ

ويصيب الأهدافَ عن غير قصد   حين يرمي السهامَ طفلٌ غريرُ

٣٠ـ حكاية

رأيت درويشاً أوىٰ الى كهف وانقطع عن الدنيا بغلق بابها عنه، ولم تبقَ شوكةٌ لسلاطين الدنيا وملوكها بنظر همته.

قطعة

من راح يفتح أبواب السؤال علىٰ الـ   ـنفس الضعيفة أودىٰ وهو في تعبِ
دعْ عنك ذا الحرصَ في الدنيا تعش ملكاً   ولا تكن طامعاً تصعدْ إلى الرتَبِ

واتفق أَن أشار لكرم أخلاقه أحدُ ملوك تلك الجهة، راجياً منه أن يوافقه علىٰ لقمة خبزٍ وملحٍ يتناولهما عنده، فرضي الشيخُ لأن إجابة الدعوة منةٌ منه، وعاد الملك في يوم آخر لزيارته والتشرف بخدمته، فنهض العابد واحتضنَ الملك وتلطف به، ولما فارقه الملك سأله أحدُ أصحابه قائلاً: إن ملاطفتك للملك بهذا المقدار كانت خلافَ عادتك، فما الحكمة في ذلك يا ترىٰ؟ فقال: أو ما سمعت ما قالوا:

قطعـة

إذا ما امرؤٌ يوماً تناولتَ زاده فكانَ له حق عليك بما أبْدى
ولم تستطع رداً لسابق فضله فعذرُك أن تُثني عليه لما أسدى

رجـز

قد تصدف الأذنُ مدىٰ هذا العُمُرْ عن نوحة الناي ونغمة الوَتْر
وتصبر العين على الزمانِ عن رؤية الأزهار في البستانِ
من لم يجد مخدةً من ريشِ فليضع الرأسَ علىٰ الحشيشِ
ومن عن الفراش خِلُّه نأى فليحضن النفس ويغفو هانئاً
لكنما الجوف الذي لا يشبَعُ على المدىٰ برزقه لا يقنعُ

الباب الرابع:

في فوائد السكوت

١ـ حكاية

قلت لأحد الأحباء: وقع اختياري علىٰ حسم مادة الكلام لما أنه في غالب الأوقات يصادف في القول وقوع الجيد والرديء، وعين العدو لا تقع إلّا على الرديء. فقال: أيها الأخ الأفضل ألّا ينظرَ العدوُّ الجيد.

بيت

كمالُكَ في عين الحسود نَقيصةُ و(روضةُ) سعدي في عيونِ العدى شوكُ

شعر عربي الأصل

وأخو العداوة لا يمر بصالحٍ إلا ويلمزه بكذابٍ أشِرْ

بـيت

من نور عين الشمس تزدهرُ الدنى وبأعين الخُفاش أقبحُ ما يُرىٰ

٢ـ حكاية

خسر تاجرٌ أثناء تجارته ألفَ دينار، فقال لولده: يلزم ألَّا يقعَ هذا الخبر الذي لم يطَّلعْ عليه غيري وغيرُك بسمع أحد، فقال الولد: الأمر لك يا والدي، ولكن أطلعني علىٰ هذه الفائدة لأعرف ما هي المصلحة في الكتمان. فقال الأب: حتىٰ لا تكون المصيبة الواحدة علينا مصيبتين إحداهما خسارة رأس المال والأخرىٰ شماتةُ الأنذال.

بـيت

لا تقل (لا حول) ما بينَ العِدى فبلا حولَ يُسَرُّ الشامتونْ

٣ـ حكاية

شاب عاقل له في فنون الفضائل حظٌ وافرٌ وطبعٌ نادرٌ، ولكنه إذا جلس في محافل العقلاء لا ينبس ببنت شفة أصلاً. فقال له أبوه مرة: أي بني لِمَ لا تتكلم أنتَ أيضاً بمالَكَ به علم؟ فقال: أخشى يا أبتِ أن أسأل عما ليس لي به علم فأخرجَ من المجلس خزيانَ نادِماً.

قطعة

سمعتُ بأن صوفياً تَحفّى فراحَ يَدُق مِسماراً بِنَعلِ
فأمسكَ كمَّه شُرطي جَيْشٍ وقالَ: تعالَ سَمِّر نعلَ بغلي

بيت

ما دمت لم تنطقْ فلستَ مطالَباً ومتىٰ نطقتَ فبالدليلِ تُطالَبُ

٤ـ حكاية

وقعت مناظرة ما بين أحد العلماء المعتَبرين ورجلٍ من الملحدين، فما

جاراه في مَيدان المناظرة ولا أسكتَه بحجةٍ باهرةٍ، ورجع من أمامه عاجزاً مدحوراً. فقال له شخصٌ: أنت مع كل مالك من علم وأدب وفضل وحكمة تُقهر أمام ملحد؟ فأجاب: إن علمي القرآن والحديث وكلام الفقهاء، وهو لا يُصغي إلىٰ كل هذه ولا يعتقدها، فأيُّ فائدة لي إذن من سَماع كفره؟

بيت

مَنْ لا الكتابُ ولا الحديثُ يَروقُه   فجوابُه ألّا تُريهِ جواباً

٥ـ حكاية

رأىٰ جالينوس الحكيم أبلَهَ آخذاً بتلابيب رجل عاقل وقد أهان بالضرب كرامتَه. فقال: لو كان هذا عاقلاً لما انتهىٰ به الحال مع جاهلٍ الىٰ هذا الحد.

رجز

ما بين عاقلين لا حقدَ ولا   يعاند العالِمُ يوماً جاهلاً
إن أغلظ القول سفيهُ جاهلُ   يُلِن له القلبَ الحكيمُ العاقلُ

لا تُقطعُ الشعرةُ بينَ اثنينِ ذي أَدَبٍ ورَبِّ طبعٍ شينِ
وإن يكن كلاهما ذا جَهلِ بينهما يُبَتُّ أقوىٰ حبلِ

قطعـة

قبيح الطبع سبَّ فتىً نبيلاً فأعرض عن بذاءته وأغضى
وقال: جهلتَ أقبحَ ما بنفسي فلستُ بكاشف عيبي لترضى

٦ـ حكاية

كان سحبان وائل في الفصاحة منقطعَ النظير، فاذا خطب في محفل سنة فلا يكررُ اللفظ، وإذا اضطر إلىٰ ترديد معنىٰ من المعاني أبانَ عنه بأسلوب يغاير الأول، وهذا السلوكُ مما تفردَتْ به آدابُ نُدماءِ الملوك.

قطعـة

إذا جاءَ منك القولُ عذباً محبَّباً خليقاً بالاستحسانِ يختلبُ اللُّبا
فإياك والإكثارَ منه فإنهُ وإن يَكُ ماذِياً فقدْ يَبهَظُ القلبا

٧ـ حكاية

سمعت عن بعض الحكماء أنه قال: إن أحداً من الناس لا يُقر بجهله أصلاً، إلّا ذلك الذي يعترض غيره وهو في أثناء الكلام، فيقطع عليه الحديثَ قبل التمام.

قطعة

أيا ذا الحجى للقول بدءُ وغاية   فلا تحشر الأقوالَ في بعضها حَشْرا
فإن الأديبَ الحقَّ من ليس قائلاً   إذا لم يجدْ للقول من يَسمعُ الذكرىٰ

٨ـ حكاية

سأل بعضُ عبيد السلطان محمود، حسنَ الميمندي: ما الذي قاله لك السلطانُ في هذا اليوم بخصوص مصلحةِ كذا؟ فقال حيث أنه كان لا يخفي عنكم شيئاً فحالي إذن في أمرِ هذه المصلحة كحالكم، فقالوا له: أنت أمين سر المملكة، وما يخُصُّكَ به السلطان من السر لا يجوز أن تُفشيَه لأمثالنا، فقال: ما دمتم تعرفون أنه مُعتَمِدٌ عليَّ بكتمان سره، فلماذا إذن تسألونني؟

بيت

للنفسِ لا تُفشِ أسرارَ المليك فما   للناس أفشىٰ لبيبٌ كلَّ ما عَلِما

بيت

إذا ما حكىٰ سراً لك المَلْكُ قالَةً   فصُنْها ولا تحسَب مقالتَه لِعْبا

٩ـ حكاية

كنت متردداً عند شراء دارٍ مُعدَّةٍ للبيع، فقال لي يهودي: أنا من سكان هذه المحلة القدماء فاسألني عن الدار فإن لي معرفةً بصفتها، إشترِها فليس بها عيبٌ أصلاً. فقلتُ له: أجَلْ لا عيبَ بها إلّا مجاورتك لها.

قطعة

إن داراً لها كمِثلك جارُ   لا تساوي إلّا دراهمَ عَشرا
غير أني من بعد موتك أرجو   أن تساوي ألفاً دنانيرَ صُفرا

١٠ـ حكاية

مثُلَ أحد الشعراء بين يدي رئيس عصابة من اللصوص فامتدحه بقصيدة، فأمر أتباعَه يَسلُبوه ثوبَه ويُلقوا به خارج القرية، فعدَتْ وراءَه كلابُها تنبحه، فانحنىٰ يريد حجراً فلم يجد لأن الأرض كانت متجلدة، ولما رأىٰ نفسه عاجزاً عن دفعها قال: من هم هؤلاء أبناء الزنا الذين جمعوا الحجارة من الأرض وأطلقوا على الكلاب؟ فسمعه رئيس اللصوص وهو في حجرته فضحك وقال: أيها الحكيم أُطلب مني ما تريد. فأجابه الشاعر أُريد ثوبي إذا أمرت بالإحسان إلي:

بيت

قد يأمل المرء خيراً من أخي كرم   فاكفف أذاك فما بالخير لي أملُ

مصراع: رضينا من نوالك بالرحيل.

فرقَّ الرئيس عندئذ لحاله وأمر برد ثوبه إليه وخلعَ عليه قباء من الفرو ونَفحه بمقدار من النقود.

١١ـ حكاية

دخل منجمٌ إلىٰ منزله فرأىٰ غريباً جالساً مع امرأتـه فشـتمه أقـبحَ شتيمة وثارت بينهما فتنة، فوقف متدين علىٰ تلك الحال فقال:

بـيت

بدارك لم تدرِ ماذا جرىٰ فماذا دريتَ بأوج الفلكْ

١٢ـ حكاية

خطيبٌ كريهُ الصوت كان يظن أنَّ وقْعَ صوته جميلٌ على الأسماع مع أنه مزعج لدى الإيقاع، فكأنه نعيبُ غراب البين في (بَرْدَة) الحانه، أو انه آية ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ في عنوانه.

شعر عربي الأصل

إذا نهق الخطيب أبو الفوارسْ له صوتٌ يَهُدُّ اصطخرَ فارِسْ

وكان رجال القرية يتحملون أذاه لمنصبه، واتفق أن أحد خـطباء

ذلك الإقليم كان يُضمرُ له عداوة، فجاء للسؤال عن حاله وقال له: رأيت لك مناماً أرجو أن يكون خيراً. فقال: ماذا رأيت؟ فقال هكذا رأيتُ أنه أصبح لك صوت جميل والناس عادت ترتاحُ الىٰ أنفاسِك. ففكر الخطيبُ ملياً وقال: ما أبركَ رؤياك لأنها أطلعتني علىٰ عيب نفسي وعرفتني بقبح صوتي، وأن الناس من نفسي يتألمون، فقد تُبتُ من بعد هذا ألّا أخطب إلّا متأنياً.

قطعة

وإني ليؤذيني نِفاقُ صحابتي لتحسينهم عندي مساوئَ أخلاقي
يرون عيوبي في الفضائل غايةً وشوكي زهوراً ذاتَ عَرفٍ وأوراقِ
فأين عَدوُ لي على النقدِ قادرُ فيكشفَ عيبي إذا يمزقُ أطواقي

١٣ـ حكاية

كان رجل يتطوع للأذان بمسجد سِنجار مع أن المستمعين ينفرون من صوته، وكان موسسُ المسجد أميراً عادلاً حسَن السيرة، فلم يشأ أن يؤلم قلبه، فقال له يوماً: ايها الفتىٰ إن لهذا المسجد مؤذنين قدماء كل منهم يتقاضىٰ شهرياً خمسةَ دنانير، وأنا أعطيكَ عشرة علىٰ أن تنتقل

إلىٰ محل آخر، وعلىٰ هذا وقع الاتفاق ومضىٰ، وبعد مدة عاد إلى الأمير وقال: أيها السيد لقد خَسِرتْني إذ وجَهتني من هذه البقعة بعشرة دنانير، وهناك حيث ذهبتُ أعطوني عشرينَ ديناراً على أن أذهبَ إلىٰ محلٍ آخرَ، فما قبلت. فضحك الأميرُ وقال: حذارِ أن تقبَلَ فإنهم يرضونَ أيضاً بخمسين ديناراً.

بيت

تُخدِّشُ وجهَ المرمر الفأسُ إنْ هَوت   عليه ومنك الصوتُ قد يَخدِشُ القلبا

١٤ـ حكاية

كان رجلٌ منكرُ الصوت يقرأ القرآن بصوتٍ عالٍ، فمر به متدين، فقال له: ما مقدارُ مشاهرتك؟ فأجابَ: لا شيء. فقال له: ولماذا إذن تكلف نفسك؟ فقال: أقرأ لأجل الله. فقال له المتدّينُ: أناشدُكَ لأجل الله ألّا تقرأ.

بيت

ما دمت تتلوه بصوتك هكذا   فابشرْ بِمحوِكَ رونق الإسلام

الباب الخامس:

في العشق والشباب

١ـ حكاية

قالوا لحسن المَيمندي: ما بالُ السلطان محمود علىٰ كثرة ما يملِكه من الغلمان الذين كل واحد منهم في الحسن آيةُ دهرِه لم يُحبَّ أحداً من أولئك محبته لأياز مع أنه لم يكن بارعَ الجمال فقال: كل ما علق بالقلب فان العين تراه جميلاً.

قطعة

من يلقَ من سلطانه اعتباراً　　فقبحُه في الحسن لا يُجَارى

ومن عليه غَضبَ السلطانُ جَفَتْ حِماهُ الأهلُ والخلانْ

قطعـة

متىٰ ما بعين الشُخط أبصر مبصرُ رأىٰ يوسفي الحسن في غايةِ القبحِ
وإن يرَ في عين الرضى وجهَ قِردةٍ رأىٰ وجه مَلْك لاح في وَضَح الصبحِ

٢ـ حكاية

حكوا أنه كان لسيدٍ غلامٌ نادرُ الحسن، وكان يراعيه حسب المودة والديانة، فقال يوماً لأحد أصدقائه: يُوُدِّي أنَّ هذا الغلامَ مع ماله من حسن بارع لم يكن طويلَ اللسان عديمَ الأدب. فأجابه: يا أخي لا تتوقع منه خدمة حيث أقررت بمحبته، إذ مادامَ في الوسط عاشق ومعشوق فلا يمكن أن يكون هناك خادم ومخدوم.

قطعـة

غلام كبدر التِّم لاح جبينُه فداعبَه مولاه من شدة الوجدِ
فلا بِدْعَ أن أبدى الغلام تدللاً وأصبحَ مولاه أذلَّ من العبدِ

بيت

اَلعبدُ للسقي أو للطين يضربُه   والعبدةَ البِكْرَ خذْ لِلَكمِ لا الطينِ

٣ـ حكاية

رأيتُ عابداً أوقعه الغرام بحب غلام، وأنهتّكَ سَتره بين الأنام، وبقدر ماكانَ يَرىٰ من الملام ويتحملُ من الآلام لم يترك تصابيه، ولم يُقلعِ عما هو فيه، وينشد:

قطعة

عَلِقتُكَ لاتنفك عني على المدىٰ   ولو أنَّ عنقي منك بالسيف يُضرَبُ

فما لي ملاذ عن هواك وملجأ   ومالكَ عني حيثما كنتَ مَهربُ

ولقد لمته مرة وقلت له: ما الذي حصل لعقلك النفيس حتىٰ تغلب عليه ذلك الحب الخسيس؟ فأطرق طويلاً ورفع إلىٰ رأسه وقال:

قطعة

كل قلب صار عرشاً للهوىٰ   ليس للتقوىٰ به يُلفى مَحلْ

هل يدُ البؤسىٰ تُنقي ذيلَ من   غاصَ حتىٰ أذنيهِ في الوحَلْ

٤ـ حكاية

شاب سلبَ الهوىٰ لبَّهُ وملك قَلبهُ، فاستسلم للردىٰ، لأن مَطمَحَ نظره بمحلٍ خَطِرٍ وورطة هلاك وضرر، فليس لقمةً تأتي للفم حسب المراد ولا طائراً يُنصَب لَهُ الشَّركُ فَيُصاد.

بيت

إذا عينُ من تهوى عن التبر أعرضت   تساوى لديكَ التبرُ والتربُ في القدرِ

ولقد نصحه أصدقاؤه فقالوا له: دع عنك هذا الخيال الباطل، لأن ناساً مثلك أُسِروا بهذا الهَوسِ الذي أسَرك، فزلَّت بهم القدم إلىٰ مهاوي العدم، فأخذ ينوحُ وقال:

قطعة

أخِلّايَ لا أهوى النصيحةَ منكمو   فطرفي بما يَهوى الحبيبُ مُوَكلُ

أسودُ الحمى تَفري العدىٰ بسيوفها ومن جُؤذَرٍ في الحيِّ باللحظ أُقتَلُ

ليس من شرط المودة أن ينحرف القلبُ عن الأحباء خوفاً من هلاك الروح، لأن العظماءَ قالوا:

رجـز

أنتَ الذي قيدت نفسك فاحتجبْ لا تدعي في حبه دعوىٰ الكذبْ
إلّا تكن تقوىٰ علىٰ قطع الطريقْ فالموتُ شرط في الهوىٰ جد حقيقْ

رباعية

لما عجزتُ عن التدبير رُحتُ لَهُ لا أَرهبُ الخصمَ إن بالسهم يرميني
إلّا يدي تلقَ من أذياله شرفاً فالحزنُ في عَتَباتِ القصر يُرديني

وما زال المتعلقون به يُعملون الفكرة في راحته، ويشفقون عليه لسوء طالعه، ويُسدون له النصيحة ليَحِلُّوا قيوده، ولكن بلا جدوىٰ.

بـيت

ما للطبيب بلَعق الصبر يأمرني والنفسُ تَوّاقةٌ للشهدِ في فيهِ

قطعة

ألم تسمعوا ماذا أسرَّ كعاتبٍ حبيبي لقلب فرَّ بالأمس من يدي
اذا أنتَ لم تعرف لنفسك قدرَها فلستَ لقدري آخر الدهر تهتدي

فأخبروا ابن الملك عن حاله لأنه هو الذي كان مطمحَ نظره وخيالِه، فقاله له: هنالِكَ شاب رأيناه يتردد علىٰ طَرَفِ هذا الميدان وهو حسنُ الطبع حلو اللسان، وقد سمعنا منه ألفاظاً لطيفةً ونكاتٍ غريبةً، وعلمنا من حاله أنه مُشرَّد الفكر مضطرم الفؤاد، واستبان لنا أنه مُولَّه مفتون، وقد أفضىٰ به العشق إلىٰ درجة الجنون، ففطِن الولدُ أن قلب الشاب متعلق به، وأن من المروءة أن يُزيحَ عنه طرفاً من هذا البلاء، وفي الحال ساق جواده نحوه، ولما رأى الشاب أن ابن الملك مُوطدٌ عزمَه على الاقتراب منه بكىٰ، وقال:

بيت

سعى إلي الذي في حبه تَلَفي كظامئٍ محرقٍ للأخذ بالثارِ

ومع كثرة ملاطفته له وسؤاله عن اسمه ومحل اقامته والصنعة التي

يُحسنها، ما استطاع الشاب أن يَنبِسَ ببنتِ شفة، لأنه كان غريقاً بأعماق بحر الهوىٰ.

بيت

إذا تحفظ السبعَ المثاني وتعشقُ   وحاولتَ ذكرى أي حرف ستُخفِقُ

فقال له ابن الملك: لماذا لا تَرد عليَّ جواباً، فأنا كذلك من حَلْقة الفقراء، وربما أن حلقتهم[١] موضوعة بأُذني، ولما قوي ذلك المسكين باستئناس محبوبه رفع إليه رأسه من بين تلاطم أمواج المحبة وقال:

بيت

وهل في وجودي مَعْ وجودك غنية   فما أقول هيا منك يقوى به نطقي

قال هذا وصاح صيحة أسلم علىٰ أثرها روحه لخالقه.

بيت

لا تعجَبُن إنْ يَمتْ في باب فاتنهِ   واعجبْ إذا روحه تنجو من العطب

١- توضع الحلقة الذهبية عندهم علامة على الرق.

٥ـ حكاية

كان أحد المتعلمين كاملَ الصفات، ذا بشرة نقية وأخلاق رضية، فمال إليه معلمُه، فما كان يستحسن أن يُرَتِّبَ عليه الزجرَ والتوبيخ كما رتب ذلك علىٰ غيره من الأطفال، وفي غالب الأوقات كان ينشد:

قطعة

يا مليكي لو شفني الوجدُ ما كنـ ـت بنفسي شُغلتُ عن ذكراكا
لم يكن لي عن ورد خديك صبر لو رمتني بنبلها لحظاكا

وذات مرة قال الولدُ: أيها المعلم، كما اجتهدتَ في آداب درسي فتفضل كذلك بالنظر في آداب نفسي، فإذا رأيتَ في أخلاقي شيئاً غيرَ مقبول وكنتُ أراه حسناً فأطلعني علىٰ ذلك حتىٰ أشتغل بتبديله. فقال: إسأل عن هذا غيري، أما نظري إليك فلا يرىٰ إلا الفضلَ والاستقامة.

قطعة

أطفأ الله نورَ عين حسودٍ يُبصر الفضلَ فيك عيباً مُشينا
ويرىٰ فضلَك الفريدَ محبٌ لو تَعدَّت عيوبُك السبعينا

٦ـ حكاية

أذكر ذات ليلة أن صديقاً عزيزاً دخل عليَّ غرفتي، فَهمَمْتُ لاستقباله، فانطفأ السراج من كمي بدون اختياري.

«سرى طيفُ من يجلو بطلعته الدجىٰ»

فعجبت من أين أقبلَتْ دولة حظي. فجلس وابتدأ بالعتاب، فقال: لماذا أطفأتَ السراج حينما رأيتني؟ فقلت لأمرين: أحدهما أَنني توهمت أن الشمس أشرقت، والآخر كما قال الظرفاء:

قطعة

اذا ما ثقيل سامتَ الشمعَ واحتبى فقم وأَرِحْ بالطرد من ظلِّهِ الجمْعا

وعذبُ اللَّمى حلوُ التبسم ضُمَّهُ إليكَ وأطفِئْ إذ يطاوعُكَ الشمْعَا

٧ـ حكاية

مرت علىٰ شخص مدة طويلة لم يَرَ فيها خليلَه، فلما رآه قال: أين كنتَ؟ فإنني بشوق إليك. فقال: المشوق خير من الملول.

رجـز

يا صنمي المخمورَ أبطئ بالبِدارْ لا تُسرعِ الوَصْلَ وإن تدنُ الديارْ
فالحِبُّ إنْ يبدُ قليلاً بقليلْ يفُز من المأمول بالقِسط الجليلْ

٨ـ حكاية

الحبيب الذي يجيء مع الرفاق ما جاء إلّا بالجفاء، إذ لا يخلو الحال من الغَيرة والمنافسة بين الأحباء.

شـعر

إذا جئْتَني في رِفقة لتزورَني ـ وإن جئتَ في صلح ـ فأنتَ مُحاربُ

قطعـة

لوَ انَّ حبيبي مال للغير لحظةً لَما امتدَّ بي من غَيرتي أمدُ العمرِ
يقول: أسعدي إنني شمعُ مجلسي فإن تحترقْ فيه الفراشةُ ما وزري

٩ـ حكاية

لا أزال أن أذكر فيما مضىٰ من أيام الشباب أنني كنت وصديقاً لي

في اتحاد الصحبة كفِلقَتيْ لوزةٍ ضمنَ قشرتها، وقد وقع الفراقُ بيننا بغتة، ولما آب صديقي من سفره أخذ يعاتبني ويقول: لماذا لم تبعث إليّ رسولاً طول هذه المدة؟ فأجبته: تملكتني الغَيرة بأن تستنيرَ عينُ الرسول بجمال وجهكَ وأكونُ أنا محروماً منه.

قطعة

إذا ما عَلاني السيفُ لَسْتُ بتائب	فلا تَتَّهمني بالْمتابِ عن الحُبِّ
أَغارُ إذا رَوّى امرؤٌ منكَ لحظَهُ	وهيهاتَ أن تَرْوى لِحاظُ الفَتىٰ الصبِّ

١٠ـ حكاية

رأيتُ عالِماً وقعَ في شرك غلام ورضي منه بالكلام، وقد حمل جوره وتحمل جفاه فقلت له مرة بقصد النصيحة: أنا أعلم أنه لا عِلة لكَ في هوىٰ هذا الإنسان لأن بناءَ محبتك له يتأسس على المذلة، ومع كل هذا فلا يليق بقدر العلماء أن يُلحقوا التهمةَ بأنفسهم، ولا أن يتحملوا جور عديمي الأدب. فقال: يا أعز الأحباب أمسِك إليكَ يدَ العتاب عما جَرَّهُ الدهر، ولقد فكرتُ كثيراً في هذه المصلحة التي تقولها، فرأيت أنَّ تَجرُّع الصبر علىٰ جفاه أسهل من الصبر عن لقاه،

ولقد قالت الحكماء: وضعُ القلب على المجاهدة أهونُ من حَجْب النظر عن المشاهدة.

رجز

من لم تُنَلْ من دونه الرغائبُ تَحمُّل الجفاء منه واجبُ
من أسلم القلب إلىٰ حبيبهِ لذقنهِ مُدت يدا رقيبه
ان قفَّصَ الظبيَ الأغنَّ صائدُ فماله منجىً ولا مساعدُ
لم أنسَ يوماً صحتُ منه بالأمانْ وكم قد استغفرت من ذاك الهوانْ
لا يألُم الخليلُ من خليله وضعتُ قلبي بهوىٰ مأمولهِ
فإن يَصلْ باللطف يُحيي عبدَهُ أو يجفُني فَهْوَ العليمُ وحدَهُ

١١ـ حكاية

وكذلك ابتليتُ في عنفوان الشباب بجميل تملَّكَ شَغافَ قلبي لِما وُهِبَ من صوت طيب الأَداء ومحيا كالبدر إذا بدا.

قطعة

ربّى نباتَ عارضهْ ماءُ حياةِ عنصرهْ
فكل شيء ذاقَهُ يظنه من أثرهْ

واتفق أن رأيت منه علىٰ خلاف المعتاد حركة غيرَ مقبولة، فقطعت صلتي به ولممت شذراتِ أفكاري عن محبته وقلت:

بـيت

يا مُفشياً سرنا لا تفشِ سرَكَ في حال وصاحبْ فتىٰ ممن يواتيكا

وسمعت أنه كان يقول عند ذهابه:

بـيت

إذا أعينُ الخفاش لا تقبل الضيا فيوحىٰ بِسوقِ الحُسن هيهات تكسُدُ

قال هذا وسافر فأثر فيَّ فراقه.

شعر عربي الأصل

فقدتُ زمان الوصل والمرءُ جاهلٌ بقدر لذيذ العيش قبل المصائبِ

بـيت

إن قَتلي بظل وصلك أحلىٰ من حياتي بالهجر والتعذيبِ

ولكن بمنة الباري وشكره، لما عاد بعد مدة تغيرتْ حُنجرَتُه الداودية، وباءت بالخسران محاسنه اليوسفية، وعلا غبارُ العِذار على تُفاحة ذقنه، وتغير رونقُ حسنه. وتوقَّعَ أن احتضنه فضممتُه وقلت:

قطعة

بخط عذار الحسن قد كنتَ تتقي سهام لحاظ الناظر المتطلِّبِ
فأقبلتَ تبغي الصلح في غير حينهِ «لضم وفتح» بانكسار مخيِّبِ

رجز

صَوَّحَ يا ربيعُ منكَ الزهرُ والنارُ لا يفورُ منها القِدْرُ
فكم تبخترتَ بساح شوكتِكْ وكم حلمت بازدهار دولتكْ
فاذهب لمن يطلب أن يراكا وتِهْ وفاخرْ إنْ هُو اشتراكا

قطعة

يقول أناس خضرة الروض زينة ومن قال هذا بالحقيقة أعلمُ
ويَكْنونَ عن خط العذار وخضرةٍ بها كلُّ قلب بالجمال مُتيمُ
تأَمَّلْ فللكُراثِ اكبرُ ميزةٍ على البقل طراً كلما جُذَّ يَنجُمُ

قطعـة

عهدتُكَ قبلَ اليومِ كالظبي ناعماً　　فَعُدتَ بهذا العام أخشنَ من فهدِ
فسعدي يرىٰ خدشَ المسلةِ مؤلماً　　وإن كان في خط العذار أخا وجدِ

قطعـة

إن اسطعت نتَفَ الذقن أو كنت عاجزاً　　فدولة ذاك الحسن ولَّت يَدَ الدهرِ
ولو بيدي أسطيعُ مثلك نتفَها　　لما نبتت في عارضيَّ إلىٰ الحشرِ

قطعـة

أسائله ما بالُ وجهك هكذا　　تغَشَّاهُ نملُ وهو كالبدر في الدجْنِ
فأبدى ابتساماً لَستُ أدري لعلَّه　　بمأتَمِ حسني يرتدي حُلةَ الحُزنِ

١٢ـ حكاية

سألوا أحدَ المستعربين في بغداد: ما تقول في المُردِ؟ فقال: لا خير فيهم مادام أحدُهم لطيفاً يتخاشن، فإذا خشُنَ يتلاطف. يعني مادامت لطافةُ حسنهم يتخاشنون، ومتىٰ خشنوا أظهروا المحبةَ وتلاطفوا.

قطعة

مادام أمردَ يُزهىٰ من ملاحته ... فطبعُه سيئ والقولُ مرذولُ
حتىٰ إذا نبتَتْ لِلَّعن لِحيتُه ... أبدىٰ تعطف أنثىٰ وهو مخذولُ

١٣ـ حكاية

سألوا بعض العلماء: عما إذا اختلىٰ أحد بمن وجهه كالبدر والأبوابُ مُغلقة والرقباء نيام والنفسُ طالبة والشهوة غالبة كما قال المثل العربي: «التمر يانع والناطور غير مانع» فهل تعلمُ أن شخصاً بسبب تقواه يمكن أن يَسلَم؟ فقال: إذا سلم من ذي المحيا البدري لم يسلم من كلام العائب المزري.

شعر عربي الأصل

وإن سلم الإنسانُ من سوء نفسهِ ... فمن سوء ظن المدعي ليس يَسلمُ

بيت

قد تعصمُ المرء تقواه وعفته ... لكنَّ ربطَ لسان الناس مُمتنعُ

١٤ـ حكاية

وضعوا ببغاءَ مع غرابٍ في قفص، فكانت الببغاء تكابد الآلام من قبح مشاهدته وتقول: ما هذه الطلعة المكروهة والهيئة الممقوتة والمنظر الملعون والطبع الذي ليس بموزون «يا غراب البين يا ليت ما بيني وبينك بعد المشرقين».

قطعة

متىٰ لُحتَ صبحاً لامرئ خابَ فألُه ... وعاد كَلَيلٍ صبحُه قاتِماً جدًّا
فصاحبْ أخا نحس شبيهَكَ إن تجدْ ... وهيهات لا تتعبْ فلن تجد النّدَا

والأعجب أن ذلك الغرابَ زهِقت روحه من محاورة الببغاء، وملّ مجاورتها، واستمر ينوح ويُنحي باللائمة علىٰ الزمان، ويضربُ يداً بأخرىٰ من الغبن والهوان ويقول: ماهذا البختُ المنكوسُ والطالع المنحوسُ الذي حرمني تلك الأيامَ الزاهية الألوان التي تليقُ بقدري، حيث كنتُ مع إخواني الزيغان أتبختر كل حين علىٰ حِياط البستان.

بيت

كفىٰ العبَّادَ سِجناً أن يُزَجوا ... علىٰ كره بإسطَبْلِ الشُّكارىٰ

فأي ذنب ارتكبته يا تُرىٰ حتىٰ عاقبني الدهر فخرطني بسلك صحبة هذا الأبله القائل برأيه، العديم الأصل، فأمسيتُ مبتلىً بمثل هذا العابث المِهذار.

قطعة

أتحسب إنساناً يلوذ بحائط ... به رسموا للذعر صورتَك الشنعا

ولو كنتَ في الفردوس لاختارت الورىٰ ... لظا سقرٍ مأوىً فراحتْ لها تسعىٰ

وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن نَفرة الجاهل من العالم واستيحاشَه منه تفوق نفرة العالم من الجاهل مائةَ مرة.

قطعة

لمجلسِ سكيرينَ جاء أخو تقى ... فقالت له بَلخيَّةٌ تشبه الدرّا

فمادام لا يحلو لك اليومَ حالُنا ... فدعنا فقد أمسيتَ في ذَوقنا مُرا

رباعية

جَمْعُنا في النظام باقةُ زهرٍ ... أنت ما بينها كعودِ الثُّمامِ

أنتَ كالريح عاصفاً في شتاء ... أو كثلج في أنحس الأيامِ

١٥ـ حكاية

لي رفيقٌ صحبني عدة سنين في كل أسفاري، وكان بيننا خبز وملح، وحقوقُ الصحبةِ التي لا تحصىٰ كانت بيننا ثابتةً، وفي آخر الأمر لنفعٍ يسير أجاز لنفسه تكديرَ صفوي وإيلامَ قلبي، فانقطعتْ صلتي به، ومع كل هذا لم يزل قلبُ كل منا متعلقاً بصاحبه، ولذلك سمعتُ أنهم لما أنشدوا في محفِل من كلامي هذين البيتين:

قطعة

أراني حبيبي الدُّر عند ابتسامه　　فأوْرى بملح من ملاحته جُرحي
فهل جاد لي عنها بلَمس عذارِهِ　　كما يلمس المحتاج كُمَّ أخي مَنْحِ

شَهِدَ الأصدقاءُ لا علىٰ لطافة هذا الكلام، بل علىٰ حسن سيرتهم وصفاء سريرتهم، وبالغ هو كذلك من بينهم وتأسف علىٰ طرح تلك الصحبة القديمة، واعترف بذنبه، ولما عرفتُ أنَّ الرغبة موجودة أيضاً من طرفه راسلته بهذه الأبيات وصالحته:

قطعة

أما كان عهدٌ بينَنا قبل بينِنا　　فَلِمْ يا حبيبَ القلب لم تَفِ بالوعدِ

عقدتُ من الدنيا عليكَ رغائبي   وما كان ظني أن تحولَ عن العهدِ
فعُدْ لي إذا ما رُمتَ صلحاً فإننا   سنحيا كما كنا سعيدَينِ بالودِّ

١٦ـ حكاية

كانت لرجل امرأة جميلة، فماتت وبقيت في الدار أُمُّها العجوز الخرِقةُ بسبب صَداق ابنتها المؤجل، وبقي الرجل متألمَ القلب من محاورتها، وبحكم الصداق لم يجد بداً من مجاورتها. فقال له أحد هذه الطائفة: كيف حالُك بفراق حبيبتك العزيزة؟ فقال: إن عَدمَ رؤية امرأتي لم يكن أصعبَ علي من رؤيةِ أمها.

رجز

قد بقيَ الشوكُ لِنهْب الوردِ   وَالصِّلُّ بعدَ الكنز ثاوٍ عندي
ما بينَ عينيَّ السنانُ يلمعُ   ولا أرىٰ وجه عدو يُفزِعُ
ألفَ صديقٍ ما استطعتَ حايدِ   كيلا تَرىٰ وجهَ عدو واحدِ

١٧ـ حكاية

لا أزال أذكر أنني في أيام الشباب ترددتُ علىٰ شارع لأتمتع بالنظر

إلىٰ محيا يَخلِبُ الألبابَ، وذلك في تـموز الذي شـدة حـره تـجفف الريق في الفم، وسَمومه يذيب المخ في العظم، فلم أستطع لضـعفي كإنسان أن أتحمل حرارة شمس الهجير فالتجأت الىٰ ظل جدار مُترقباً من يطفئ لي غُلة الظمأ بشربة ماء بارد، وبغتةً رأيتُ نوراً أشـرق مـن دِهليز بيت مظلم. أعني جمالَ وجهٍ تعجز الفصاحة عن بيان صباحَته، فكأنما هو صبح انبثق عن ليلٍ داجٍ، أو انه ماءُ عينِ الحياةِ انـدفق مـن الظلمات، بيده قَدَحُ ماءٍ مُثلج فيه مُذابُ السكر، فلم أدرِ أمُزجَ بـعرَق طلعته أو بماء ورد وجنته، أم تقطرت فيه قطراتٌ من ياسمين مـحياه. والخلاصة، أنني تناولتُ القدح من فتنة يده فشربتُه وتداركتُ من أولِ عمريَ الماضي ما أهرَقتُه.

شعر عربي الأصل

ظمأ بقلبي لا يكاد يُسيغه   رشف الزلال ولو شربتُ بحورا

قطعـة

إن عيناً ترىٰ محياً كهذا   كل صبح لها الهناءُ يَروقُ
شاربُ الخمر قد يُفيق وحتىٰ الـ   ـحشر مخـمورُ حسنِه لا يُفيقُ

١٨ـ حكاية

في السنة التي اختار فيها السلطان محمد خوارزمشاه الصلحَ مع مَلِك الخَطا دخلتُ جامع كاشْغَر، فرأيتُ صبياً ملاحتُه بغايةِ الاعتدال ونهايةِ الجمال كما قالوا بأمثاله:

قطعـة

كلُّ حينٍ من المعلم درساً يتلقاهُ في الهوىٰ فَضَاحاً
الجفا والدلالَ والظلمَ للعا شق والجدَّ تارةً والمُزاحا
لم تر العينُ مثلَه رُبَّما كا نَ مَلاكاً أو كوكباً وضاحا

بيده مُقدَّمةُ النحو للزمخشري، وهو يرددُ «ضربَ زيدٌ عمراً وكان المعتدي عمرا» فقلتُ: يا غلامُ، خوارزم وخَطا تصالحا، وزيدٌ وعمرو لا تزال الخصومة بينهما قائمة؟ فضحِكَ وسألني عن مولدي، فأجبته أرضُ شيراز. فقال: ماذا عندك من أقوال سعدي؟ فقلت:

شعر عربي الأصل

بليت بنحوي يصولُ مغاضباً عليَّ كزيد في الخصام على عمرو
علىٰ جر ذيل ليس يَرفع رأسَه وهل يستقيمُ الرفع مَعْ عامل الجرِّ

فاستغرق بالتفكير مَلياً وقال: إن غـالبَ أشـعاره فـي هـذه الأرض باللغة الفارسية، فتفضلْ بما هو أقربُ لفهمنا لأجل القائل «كلموا الناس علىٰ قدر عقولهم» فقلت:

قطعـة

مُذ بتَّ بالنحو مشغوفاً أخا هوسٍ محوتَ منا رسوم العقل يا أملي
شغلتنا بكَ من فرط الجمال ولَمْ تزلْ بزيدٍ و عمروٍ أنتَ في شُغُلٍ

وفي الصباح حين وطدتُ العزمَ علىٰ السفر رأيتُه قد أقبل راكضاً «ولعل أحدَ أفراد القافلةِ أخبرَه أن صاحبَك هو سعدي» فأخذ يتلطف، وعلىٰ وَداعي يتأسف، وقال: لمـاذا طِـوالَ هـذه الأيـام لم تـقل أنك السعدي كيْ أفي بحق الخدمة وأشد حِزامي لشكر قـدوم العـظماء؟ فقلتُ: «مَعَ وجودك لا أستطيعُ أن أُشيرَ الىٰ اسمي». فقال: وماذا عليكَ لو استرحتَ أياماً في هذه البقعة لنغتنم خدمتك؟ فقلت: لا أقدر بسبب هذه الحكاية.

رجـز

رأيتُ شيخاً عاكفاً في غارِ ناءٍ به عن صحبةِ الأشرارِ

فقلتُ قمْ واذهبْ لبعض المدْنِ   تُلقِ عن القلبِ حمولَ الحُزنِ
فقال كم حوراءَ فيها ذاتِ دَلْ   تزلَقُ رِجل الفيل منها بالوَحَلْ

قلت هذا وتعانقنا لِقُبَلِ الوَداع.

قطعة

إذا نلتَ من خِلٍ على الخدِّ قُبلةً   ففي ساعةِ التوديع تُمحى وتُدثَرُ
كتفاحةٍ، خدّا كلينا لدىٰ النوىٰ   قد اصفرَّ منها النصفُ والنصفُ أحمرُ

شعر عربي الأصل

إن لم أمت يوم الوداع تأسفاً   لا تحسبوني في المودة منصفاً

١٩ـ حكاية

رافَقنا في السفر إلىٰ الحجاز درويش مُعدَم، فتصدق عليه أحدُ أمراء العرب بمائة دينار لينفقَها علىٰ عياله، وباغَتت القافلةَ لصوصٌ (خَفاجَة) وسَلَبتْ أمتعتها وأموالَها، فناح التجار وأعولوا فلم يُجدِهم ذلك نفعاً.

بـيت

متىٰ نال لصٌ من سَليبٍ مرادَهُ   فهيهاتَ أن يَرثي لنوح سليب

إلّا ذلك الدرويش فإنه بقيَ علىٰ حاله رابطَ الجأش لم يَظهَر عليه أثر التغير. فقلت له: لعلَّ ما أعرِفُه عندَك لم يُسلَبْ. فقال: بلى. لقد سُلِبَ ولكن لم تكن أُلفتي له شديدةً بذلك المقدار حتىٰ يتألّمَ قلبي لفقدِه.

بـيت

فإياك من ربط الفؤادِ برَغبةٍ   فتعجز إن تطلُب لعُقدتها حلّا

فقلت له: إن ذلك الذي قلتَه مطابق لحالي، فلقد امترجتُ في عهد الصبى بشاب، حتىٰ كان صِدق مودتي له بهذا المثاب، إذ جعلتُ قبلةَ عيني جمالَه، ورأسمال عمري وصاله.

قطعـة

أفي السماء ملاكاً كانَ أو بشراً   فما على الأرض من في الحسن يحكيهِ

هيهاتَ أن أصطفي من بعد فُرقتهِ   خلّاً فمَنْ مثلُه في اللطف والتيهِ

وفجأة طوَّحَ به الأجلُ إلىٰ مهاوي الثرىٰ، وارتفعَ دخانُ أكباد أسرته إلىٰ عَنان السما، فجاورتُ تُربته أياماً، وكان من جملة ما قلته في فراقه هذان البيتان:

قطعة

ألا ليتني في حَين حُمَّ لك القضا   بسيفِ الردى قد أخمد الدهر أنفاسي

لئلا ترىٰ عيني سواكَ وها أنا   لدىٰ الرمس أحثو التربَ دوماً علىٰ رأسي

قطعة

ذاك الذي كان لا يأوي لمضجعِهِ   ما لَم يُعطّرْ بوردٍ أو بنسرينِ

عدا علىٰ وردِ خديه البِلى ومحا   بالشوكِ عن رمسهِ زهرَ البساتينِ

ولقد وطدت العزم بعد فراقه، وعقدت النية علىٰ أن أطويَ بساط الهوس بقيةَ عمري، وأن لا أدخل حلقةَ مجلسٍ طول دهري.

قطعة

كنفع البحرِ لا يوجدُ لولا مَوجُه المُردي   ولو لا الشوكُ ما ملَّت بناني من جَنى الوردِ

كم اختلتُ كطاووسٍ بجنةِ وصله أمسِ   وبانَ فبتُّ كالثعبانِ مطوياً علىٰ نفسي

٢٠ـ حكاية

حدثوا أحدَ ملوكِ العرَب عن مجنون ليلى واضطرابِ حاله وفتنتِه وأنه مع كمال فضله وبلاغته هام علىٰ وجهه في البادية وأفلتَ من يده زِمام إرادته، فأمر بإحضاره، فأُحضِرَ، فابتدَره بالملام قائلاً: ما الخلل الذي رأيتَه في شرف الإنسانية حتىٰ لزمت الطبيعَةَ البهيميةَ وتركتَ المعيشة الآدمية، فحكوا أن المجنون بكىٰ وقال:

شعر عربي الأصل

ورب صديقٍ لامَني في ودادها   ألم يرَها يوماً فيوضِحَ لي عُذري

قطعة

ليت الأُلى عابوا علي تدلهي   نظروك يا من قد أسرت ضميري
حتىٰ إذا فتنوا بحسنك قطعوا   أيديهمو شغفاً بغير شعورِ

وما دامت حقيقة حسنها تؤدي الشهادة علىٰ دعوى محبتها، فحسبي قوله تعالىٰ: ﴿فذلكن الذي لمتنني فيه﴾ ، فخطر ببال الملك أن يطّلع

علىٰ جمال ليلى حتىٰ يعرف ما هي تلك السَّحنة التي هاجت إلىٰ حد عظيم هذه الفتنة، فأمر بطلبها، ففتشوا عنها، فقادوها إليه وأوقفوها بباحة قصره بين يديه، فتأملها فإذا هي سمراء نحيفة الجسم، فبدَتْ حقيرة في نظره، ولا عجب فإن أدنىٰ خدام حرمه أبدعُ منها حسناً وأجمل زينة، فأدرك المجنون ذلك بالفِراسة فقال: أيها الملك، كان يلزم ان تنظر إلىٰ ليلى من نافذة عين المجنون حتىٰ يتجلىٰ لك بمحبتها سرُّ جمالها.

رجز

أراك بدائي لا تحِسُّ وشِقوتي فمن لي بخلٍّ ذي هوى وحنانِ
أكون وإياه لشكوىٰ صبابتي بنار الهوىٰ عودَين يَحترقانِ

شعر عربي الأصل

ما مر من ذكر الحمىٰ بمسمعي لو سمعت وُرْق الحمىٰ صاحت معي
يا معشر الخلان قولوا للمُعا فىٰ لستَ تدري ما بقلب الموجَعِ

قطعة

ما للأصحاء علمٌ بالأُلى مرضوا فلستُ أشكو الضنى يوماً إلىٰ أحدِ

مَن لم يذق لسعةً من عقرب ورأى   بَرحَ اللديغ انبرى للوم والفَنَدِ
يا صاح ما دمتَ لم تشعُرْ بحالتنا   فلا تكنْ لهوانا شرَّ منتقدِ
ما بالعذولِ كما بي من سَنا حُرقٍ   فالملحُ في يدهِ والجُرح في كَبدِي

٢١ـ حكاية

حكوا أن قاضي همدان سكر بمحبة ابن بَيطار، فألقت به نعلُ قلبه في النار، واستمر مدة من الزمن جاداً في طلبه، وحسب واقعه يقول في تَطلُّبه:

رباعية

وقدٍّ كفرع السرو لاح لناظري   فجزَّ طموحُ العين قلبي إلىٰ حتفي
فإن رمتَ ألّا تُسلم القلبَ في الهوىٰ   إلىٰ أي إنسان فغُضَّ من الطرْفِ

بيت

لم ألوِ عنك عنان حبي مثلما   لم تلتو الأفعىٰ إذا هي رضَّتِ

وسمعت أن الغلام اعترض القاضي وهو مار في الطريق، فكال له

الشتمَ والسبابَ بأقذع الألفاظ مقابلَ ما سمعه عنه بأذنِه من التشبيب، ورفعَ بيده حجراً ليضربه به، ولم يترك له أيَّ احترام، كلُّ ذلك والقاضي يقول لأحد رفاقه وكان من العلماء المعتبرين:

بيت

أُنظرْ إلىٰ عُقدة نكراءَ قد جَمعتْ كلَّ المحاسن في تقطيب حاجبِهِ

وكذلك يقولون في بلاد العرب «ضَربُ الحبيب زبيب»

بيت

علىٰ فمي لكْمةٌ بالجُمع من يدِهِ أحلىٰ من الشهد يبدو سائغاً بفمي

وكما سبق فإن رائحةَ ساحتِه فاحت من مَجمرَة وقاحتِه، شأنُ الملوك يتكلمونَ بمنطق العظمةِ والكبرياءِ ويطلبون الصلح في الخفاء.

بيت

يبدو لك العُنقود مُزاً طعمُه فاصبر عليه تجدْه حُلواً بالفمِ

قال هذا وعاد إلىٰ مَسند القضاء، فتقدم اليه جماعة من العدول الملازمين خدمتَه وقبلوا يديه واستأذنوه بالكلام قائلين: إننا نتكلم تأدية للخدمة، ولو أسأنا الأدب لأن الكبراء قالوا:

بيت

لا يجوز الكلام في كل بحث والخطا لا يجوز عنه السكوتُ

ومن حيث أنَّ شُكر سوابق نِعَم المولىٰ ملازمٌ لِعمر العبيد، فإنهم متىٰ رأوا أمراً في مصلحته ولم يخبروه به فقد ارتكبوا نوعاً من الخيانة، ولذلك فإن من الصواب ألّا تحوم حول هذا الطمع، وأن تطوي دونه بساط الوَلع، لأن منصب القضاء قوي منيع، فلْيُحذَرْ معه التلوثُ بهذا الخطأ الشنيع، وإن هذا الشخص قد رأيتَه وقبحَ حديثه قد سمعتَه.

قطعة

من لم يصن ماء الحياءِ بوجهه فحياء وجه الناس ليس يصونُ
ومن انتمىٰ خمسينَ عاماً للعلى فبزلةٍ يُمحى اسمه ويَهونُ

فارتاح القاضي لنصيحة أصدقائه، وأَثنىٰ علىٰ حسن رأيهم وحِفظ

ودادهم، وقال: إن نظر الأَعِزاء في صلاح حالي هو عين الصواب ومسألةٌ لا تحتاج إلىٰ جواب ولكن:

شعر عربي الأصل

لو أن حُباً بالملام يزولُ   لسمعت إفكاً يفتريه عذولُ

بيت

فلمني ما استطعتَ فلستَ تقوى   علىٰ غسل السوادِ عَنِ الزنوجِ

قال هذا وأحال علىٰ الغلام ناساً يتفحصون حاله، وبذل لاستمالته نعمة لا تحصىٰ، ولقد قالوا: كل من ذهبُه في الميزان فقوَّتُه في الساعد.

بيت

من لم يكن ذا قدرة لم يجدْ   ما عاش في الدنيا له مُسعفاً

بيت

يميل للعسجد الوهاج مُبصرُه   حتىٰ الحديد وقد عدُّوه ميزاناً

والحاصل أنه تيسرت له ذاتَ ليلة خلوة به، وفي نفس الليلة سعىٰ به الوشاة إلىٰ الوالي بأن القاضي في كل ليـلة تـعبث فـي رأسـه المـدامُ ويلعب علىٰ صدره غلام، وهو في هذا النعيم لا يفتأ ليله يترنم بهذه الأبيات:

قطعــة

يا ليلة لم تَصِحْ فيها الديوكُ وقد ... بات المحبونَ ضَماً تحت ديباجِ

ما أجمل الصُّدغَ حول الخد منعطفاً ... والخدُّ كوكبُ ليل مظلم داجِ

كأنْ هُما صولجان الآبنوسِ وقد ... نيطَتْ به كرة للقذفِ من عاجِ

حذارِ مادام طَرْفُ الشر في سِنة ... أن تقطعَ العمر في بَرح وإزعاجِ

مازلتَ في الفجر لم تسمع بمئذنة ... صوتاً ولم تُدعَ من طبل لإدلاجِ

فلا تدَع شفةً كالورد تَلثمُها ... من صوتِ ديك بلا جدوىٰ لإحراجِ

وبينا هو في هذه الحال إذ دخل عليه أحد أتباعه وقال: انهض وما دامتْ لك قدم تحملك فأسرعْ بـالهرب، فـإن الحسـادَ مـلكوكَ بـهذه الذِّلة، ولعلهم قالوا عنك حقاً ومادامتْ نار هـذه الفـتنة لم يشبَّ بـعد سعيرُها، فأطفئها بماءِ تدبيرك لئلا يتعالىٰ في غد شررها، ويـنتشرَ فـي العالم خبرها، فنظر إليه القاضي متبسماً وقال مترنماً:

قطعة

إذا أنشب الضرغام بالصيد ظُفرَهُ فإن نُباحَ الكلب ليس يَضيرُهُ
أُمِرُّ علىٰ خديه خدي تنعماً فخلِّ حسودي يَشتويه سعيرُهُ

وكذلك أخبروا الملكَ في تلك الليلة بأَن حادثاً منكراً وقع في مُلكك فماذا تأمر؟ فقال: الذي أعلمه أن القاضي معدودٌ من فضلاء العصر وأفذاذ الدهر، فربما أن خصومه خاضوا بحقه لِغرض، فلستُ بمصغ إلىٰ مثل هذا المقال ما لم أطَّلع بنفسي علىٰ حقيقة الحال، لأن الحكماء قالوا:

بيت

بباطن الكف من يلمس شبا خذِمٍ يعضّ بالسن ظهرَ الكف من ندمِ

وسمعت أن الملك اصطحب معه جماعة من خاصته، وفي السَّحَر كان عند وسادته، فرأىٰ شمعاً منظوماً وجميلاً مخموراً وشراباً مسكوباً وقَدحاً مكسوراً والقاضي في غفوة السكر ليس عنده خبر بما جرىٰ وبما سيجري، فايقظه الملكُ بلطف وقال له: قم فإن الشمس قد بزغت،

ففطن القاضي لما سيحل به فقال: من أَيِّ جهة بزغت؟ فأجابه الملك من جهة المشرق. فقال: الحمد لله حيث لا يزال بابُ التوبة مفتوحاً لقوله عليه الصلاة والسلام «لا يُغلق بابُ التوبة علىٰ العباد حتىٰ تطلُع الشمس من مغربها» وأعقب ذلك بقوله :استغفر الله وأتوب إليه.

قطعة

ألا إن نقصَ العقل مَعْ نحسِ طالعي هما أوقعاني في الخطيئةِ والبلوىٰ
فإما تعاقبني فتلك عقوبة لِجانٍ وإنَّ العفوَ أقربُ للتقوىٰ

فقال الملك: توبتك في هذه الحانة التي أيقنت فيها بهلاك نفسك لا تفيدك شيئاً. قال الله تعالىٰ ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسَنا﴾.

قطعة

أتنجي اللصَّ توبتُه لكي ينجو من العطبِ متىٰ في وجهه سُدتْ جميع الطُرق للهربِ
فللمُفرطِ في الطوِلِ قل استبقِ إذا تَجني قصيرُ القامة المسكينُ في منأى عن الغصن

أوَ بعدَ وجود مثل هذا المنكر الذي ظهر منك تتصور الخلاص؟

قال هذا وتعلق به الموكلونَ بالعقاب، فقال: بقيتْ لي كلمةٌ واحدة في خدمة مولاي. فسأله الملك: ما تلكَ؟ فقال:

قطعة

هيهات أجحد أو أملُّ مكارماً   سبقت وَثِقْ أني بعفوكَ عائذُ
مازال لي أملٌ وجودُك شاملٌ   أو رمتَ إتلافي فأمرُك نافذُ

فقال الملِك: أتيتَ بكلمة بديعة ونكتة غريبة، ولكن مما يمتنع في العقل ويخالف الشرعَ أن يخلِّصك اليوم فضلُك وبيانُك من مخالبِ عقوبتي، وأرىٰ المصلحةَ أن أقذف بك من أعلىٰ القلعة الىٰ أسفل الخندق ليعتبرَ بك الآخرون. فقال: أيها الملك أنا ربيب نعمة هذا البيت ولستُ أنا وحدي الذي ارتكبَ هذه الخطيئةَ، فاقذف من القلعة غيري حتىٰ أعتبرَ أنا، فتبسم الملك وعفا عنه، وقال للذين وشَوا به وسعوا لهلاكه:

بيت

ناءت بحمل العيب أنفسُكم   لا تطعنوا في غيركم أبداً

٢٢ـ حكاية منظومة

غلامٌ جميلُ الوجهِ والخُلق شفَّه ... هوىٰ غادة في الحسن ليس لها نِدُّ

إلىٰ البحر ناداها فلبَّتْ ليسبحا ... فراحا بتيار وأعياهما الجهدُ

فخف إلىٰ الإنقاذِ ملاحُ زورقٍ ... ومد يداً والموجُ يعلو ويمتدُّ

فصاح الفتىٰ أنقذ فتاتي وخلني ... وشأني فإن الموتَ ما عنه لي بدُّ

وقال وأبدي للحياة تَجهُّماً ... مُريعاً ووجهُ الموتِ أغبرُ مربدُّ

حديث الهوىٰ لا تستمعه من امرئً ... جَبانٍ بيوم الضيق ليس له ودُّ

فقبليَ كم ضحَّى محبٌّ بنفسِه ... لِصدق الهوىٰ والمرءُ بالصدق يَعتَدُّ

وكم أوضح السعديُّ للحُب منهجاً ... كما لاحَ في بغدادَ للعرب السعدُ

فأغلق عن الدنيا فؤادَك واسترحْ ... وجَفناً عن الأغيارِ قرَّحه السهدُ

إذا بالهوىٰ ليلى ومجنونُ خُلِّداً ... فعن قصتي بالعشق فليُنقَلِ الخُلْدُ

الباب السادس:

في الضعف والشيخوخة

١ـ حكاية

بينا كنت مستغرقاً بالبحث مع طائفة من العلماء في المسجد الجامع بدمشقَ، إذا بشاب دخل علينا من الباب وقال: أبينكم من يعرف اللغة الفارسية؟ فأشار الجماعة إليَّ. فسألته ما شأنك؟ فقال: شيخ سلخ مائة وخمسين ربيعاً تركته يعالج ألم النزع وهو يتكلم الفارسية ولم نفهم ما يريد، فلو أنك كلفتَ نفسك وذهبت معي إليه لنلت أجراً جزيلاً، إذ ربما أنه يؤدي الوصية. فلم أتردد، وسرنا إليه جميعاً، ولما جلست عند وسادته سمعته ينشد:

قطعة

أريد لأنفاسي امتداداً وفسحةً فأنّى وقد عيَّت بمخرجها أُفُّ
فمن سفرة العمر العزيز فواكها أكلنا ولم نشبع فقالوا لنا كفّوا

ترجمتُ للدمشقيين معنىٰ ما قاله بالعربية، فتعجبوا من طول عمره وتأسفه علىٰ الحياة الدنيا. وسألته: كيف ترىٰ نفسك في هذه الحالة؟ فأجاب: ماذا أقول وأنشد:

قطعة

ألا ترىٰ أيَّ آلام تَنال فتى من قلع ضرس أصابَتْها يدُ الزمنِ
قِسْ ساعةَ النزع ما حالُ الشقي وقد سُلَّتْ بها روحه قسراً من البدنِ

فقلت له أطرد شبَح الموت عن مخيلتك ولا تترك الوهم يستحوذ علىٰ طبيعتك، لأن الفلاسفة قالوا: المزاجُ مهما كان معتدلاً فلا يلزمُ أن يُعتَمد معه علىٰ البقاء، والمرضُ مهما كان مخوفاً فلا يمكن أن يدل دلالة قطيعة علىٰ الهلاك. فلو أمرتَ فدعونا طبيباً لمعالجتك لكان خيراً لك. فقال: هيهات وأنشد مرتجزاً:

رجـز

يُزخرف القصرَ الأميرُ المنعَمُ والقصرُ من أساسه يَنهدِمُ
قد ييأسُ الطبيبُ اذ يرى الخَرفْ من المريض إنْ مزاجُه انحرفْ
يحتضِرُ الشيخُ لقربِ الأجلِ والزوجُ تَطليه بدُهن الصندلِ
أجَلْ اذا ما انحرف المزاجُ فلا الرُّقى تُجدي ولا العِلاجُ

٢ـ حكاية

حُكيَ عن شيخ أنه قال: كنت عقدت قراني على فتاة بِكر، وخلوتُ معها بحجرة مزينة بالورد والزهر، وربطت نظري وقلبي بحبها، وهجرتُ نوم الليالي الطوال إذ خلوتُ بها، وأخذتُ أورِدُ لها اللطائفَ والنكاتَ لكي تستأنسَ فلا تحِس بالوحشة، وذات ليلة قلت لها: إن طالعك العالي كان لكِ مُسعداً، ولحْظَ دولة إقبالك كان مستيقظاً، إذ أوقعاك بصحبة شيخ حَنكته التجاربُ وعركته النوائب، فتحمل من الأيام حرَّها وقرَّها، وذاق من الليالي حُلوَها ومرَّها، وجرب جيدها ورديئها فعرف، حقَّ الصحبةِ، وقام بواجب شرط المودة، ولذا فهو مُشفِق راحم ذو حنان مع حُسْن في الطبع وعذوبة في اللسان.

قطعة

أحاول أن أرضيكَ جهد استطاعتي　　وإن تؤذني فالصفح مني لا عَتْبِ
وإن كنتَ كالببغاءِ تُغذى بسُكرٍ　　فروحي قَنْدُ من حَبةِ القلبِ

ولم يسلماكِ بيد شاب مُعجَب بنفسه عنيد غير ذي رأي سديد بخفة القدم كلَّ لحظة يطبخُ هوى بشكل جديد، ينامُ كل ليلة بمكان، ويَهيمُ كل يوم بإنسان.

بـيت

من البلبل الطماحِ لا تطلب الوفا　　فمن وردةٍ طوراً إلىٰ وردةٍ يَصبو

أما طائفة الشيوخ فيحيَونَ بالعقل والآداب لا علىٰ ما يقتضيه طيشُ الشباب.

بـيت

إصطحبْ إن وجدتَ أفضل مني　　فاصطحابُ الأنداد بالمرءِ يُزري

قال: وعلىٰ كثرة ما سِقتُ لها من النوادر علىٰ هذا النمط توهمتُ أن

قلبها وقع في قيدي وأصبحَ من صيدي، وإذا بها صعَّدت فجأة من قلبها نفساً فاتراً من فؤاد مُفعَم بالألم وقالت: إن جميع ما قلتَه لا يبلغ بميزان عقلي وزنَ كلمة سمعتها من قَهرمانتي، حيث كانت تقول: إن الشاب لو انه سهم في جنب المرأة لكان خيراً لها من الشيخ الهَرِم.

شعر عربي الأصل

لما رأَتْ بين يَديْ بعلها ... شيئاً كأرخىٰ شفةِ الصائمِ
تقول هذا معه ميِّتٌ ... وإنما الرُّقيةُ للنائمِ

رباعية

متىٰ غضبت يوماً علىٰ المرء زوجُه ... فكم فتنةٍ في الدار تعلو بلا عطفِ
إذا الشيخ لم تنهض (عصاه) لطعنةٍ ... فرفعُ العصا منه عجيبٌ علىٰ الإلفِ

والحاصل انه لم تكن الموافقة، فكانت النهاية المفارقة. ولما أكملتْ عِدتها عقد نكاحها علىٰ شاب عبوس الوجه صِفْرِ اليد رديءِ الطبع، فعانت منه الجَوْر والجفاء والألم والعناء، ومع ذلك فقد كانت توالي شكر النعمة لله فتقول: الحمد لله الذي انقذني من العذاب الأليم، وأوصلني إلىٰ هذا النعيم المقيم.

قطعة

بجنبكَ نيرانُ الجحيم تلذ لي ولا مع سواكَ العيشُ في الجنة الخلدِ
فتَنُ فمٍ من ذي مُحياً موردٍ ولا من يديْ شيخ شذا الوردِ

قطعة

اَلحلْيُ والديباجُ والعطر وما يُبقي علىٰ الوجه جمالَ جِدَّتِهْ
ذا زينةُ المرأة إن حققته وزينة المرء مِضاء آلتِهْ

٣ـ حكاية

كنت ضيف شيخ في ديار بكر عنده مال كثير وله غلام كالبدر المنير، فقال ذات ليلة: لم يولد لي طِوال عمري غير هذا الغلام، وذلك أن في هذا الوادي شجرةً يقصدها الناس للمناجاة في قضاء الحاجات، وكم من ليلة تضرعتُ بجذعها لمولاي جل وعلا حتىٰ وهبَ لي هذا الغلام. وسمعت أن الولد كان يقول لرفاقه خُفيةً: ما ضر لو عرفتُ مكان تلك الشجرة حتىٰ أدعو بأن يموت أبي.

حكمـة

بينما السيد يبتهج بعقل ابنه إذ طعنَ الولدُ فيه أنْ قد خَرِف.

قطعـة

مرت عليك دهور ما مررتَ بها　　　يوماً علىٰ قبر من رباك في الصِّغَرِ
مادمتَ بالخير لم تُسعف أباك فلا　　　تطمح بطرفك للابناءِ في الكِبَرِ

٤ـ حكايـة

سرت في يوم من الأيام سيراً حثيثاً لاغتراري بالشباب، ولما جنَّ الليلُ ألقيتُ نفسي من شدة الإعياء بسفح جبل، ومرَّ بي في آخر القافلة شيخ ضعيف فقال: أيُّ نوم هذا! قم فليس هنا محل النوم. فـقلت: لم تَبقَ لي طاقة علىٰ السير، فقد تورمتْ قدماي. فقال: أما سمعت بالمثل القائل: سير بإبطاء، خير من سرعة يُعقبها إعياء.

قطعة

تمهل ولا تعجل وإن شفك النوى　　　لمَنزل ليلى واتّعظ والزم الصبرا

يكل الجوادُ الأعوجيُّ بغَلوَةٍ مغيراً وتطوي العيسُ في مهلها القفرا

٥ـ حكاية

كان في حلقة عِشرتنا خفيف الروح طروب لطيف المعشر عذب اللسان، ما مر علىٰ قلبه الهم في يوم من الأيام، ولا فارق شفتيه الابتسام. ومضت مدة لم تتفق لي ملاقاته، وبعد ذلك رأيته متزوجاً قد شُغل بالأولاد، وإذ بمسمار نشاطه مكسور وورد هوسه ذابل منثور. فسألته: ما هذه الحالة؟ فقال: مادمتُ قد بُليتُ بالعيال فلستُ أعودُ ولداً أو أذوقُ طعم الراحة أبداً.

شعر عربي الأصل

ماذا الصبا والشيب غيَّر لمتي وكفىٰ بتغيير الزمان نذيراً

بيت

أنقض يديك من الشباب فقد مضىٰ ودع الظرافة للوليد العابثِ

رجز

لا ترجُ زهو الشباب الغض من هَرِمٍ هيهات يرجع ماء مر في الوادي

فالزرعُ لم يبقَ مزهواً بخضرته عند الحصاد فأسلِمْه لحصادِ

قطعة

أسفاً علىٰ زمن الشباب فقد مضىٰ ولكم بقلبي قد أضاء وأومضا
ولقد فقدت بفقده أسَديتي ورضيت عنه بجبن سِرحان الغضا

بيت

صبغت عجوزٌ شعرَها فسألتها أماهُ يا غَرَضَ المنونِ الطارقِ
بسواد شعركِ إن خَدعتِ فهل تُرىٰ تقويسُ ظهرك يستقيمُ لعاشقِ

٦ـ حكاية

رَفعتُ صوتي في يوم من الأيام علىٰ والدتي لنزق الصبى، فقبعت بزاوية تبكي وتقول: كأنك نسيت أَيام طفولتك حتىٰ عاملتني بكل هذه القسوة.

قطعة

تصدت عجوز لابنها عندما رأتْ شراسةَ نِمْرٍ في ضَخامةِ فيلِ

فقالت لو اذَّكرتَ ضَعْفَكَ في الصِّبا　　وأنت بحُضني مُغرِقٌ بعويلِ
لما كنتَ تجفوني بذا اليوم حينما　　قَويتَ وغال الموتُ أغلب جيلي

٧ـ حكاية

مرض ولد لغني بخيلٍ، فقال له أصدقاؤه: من المستحسن أن تختم له القرآن أو تُفديه بقُربان، فلعل الله أن يَمُن عليه بالشفاء، وبعد أن فكر طويلاً قال: ختم المصحف بالحضرة أولىٰ لأن القطيعَ مرْعاه بعيدٌ، فسمعَ بذلك أحدُ النبهاء فقال: ما وقع اختياره علىٰ القرآن إلّا لأنه يخرج من طرف اللسان، ومن بين حنايا الروح يخرج الذهب الرنّان.

قطعة

فليتَ هواديهم إذا ما دَعوتَهمْ　　تُسابق أيديهمْ لفعل المكارمِ
يُلَبُّونَ إن يدعو إلىٰ ختم مُصحفٍ　　وإن رُمْتَ فَلساً يخرسوا كالبهائمِ

٨ـ حكاية

قالوا لشيخ: لم لا تتزوج امرأة؟ فقال: ليست لي أُلفَة بالعجائز. فقالوا

له: أطلب لك شابة فإن لك مُكنة. فقال: اذا لم تكن لي بالعجائز أُلفة وأنا من قُرَنائِهِنَّ، فكيف أطمع بالشابة وأنا شيخ هِمٌّ؟!.

بيت

تريد عزماً بيوم العُرس لا ذهباً   فالعَزْدُ خير لها من ألف دينارِ

٩ـ حكاية منظومة

سمعتُ بأن شيخاً رام خُوداً   رَداحاً كي تعيدَ له الشباباً
فصادفها كجوهرةٍ أُحيطَتْ   بدُرج لم تُمِطْ عنها النقابا
وحين بنىٰ بها نامَتْ عصاه   بأولِ حملةٍ ورجا فخابا
وأوترَ قوسَه ورمىٰ بسهم   علىٰ الهدف الحصين فما أصابا
وليس كإبرة الفولاذ تُلفى   لشيخ كي يَشلَّ بها الثيابا
وراح لصحبه يشكو وَقَاحاً   مخازنَ بيته تَركَتْ يَبابا
وطارَ الشر بينهما فأعطىٰ   به (السَّعْدي) عن القاضي الجوابا
أَيثقب مُرعَشُ الكفين دُراً   فدعْ لومَ الفتاةِ وقلْ صَواباً

الباب السابع:

في تأثير التربية

١ـ حكاية

كان لأحد الوزراء ولد بليد فأرسله إلىٰ مربٍ من العلماء وأوصاه بالاعتناء بتربيته عساه أن يصبح من العقلاء. فعكف علىٰ تعليمه مدة، فلم يتأثر، فردَّهُ إلىٰ أبيه قائلاً: إن ابنك هذا بعد أن صيرني مجنوناً لا يمكن أن يكون من العقلاء.

قطعة

إذا جوهر التلميذ قد كان صافياً   سيبدي متىٰ ربيتَه خيرَ آثارِ

وما من حديد قد تأكَّل من صَدا ترقَّق سيفاً للردىٰ جدَّ بتارِ
أرىٰ الكلبَ إن يغسل بسبعةِ أبحر فليسَ تراه طاهراً غير هَرّارِ
حمارُ يسوعٍ لو مضىٰ نحو مكةٍ وعادَ فهل تلفيه غيرَ حمارِ

٢ـ حكاية

كان أحد الحكماء يبذل لأبنائه النصيحة علىٰ الدوام، فيقول لهم: يا روحَ أبيكم، تعلموا المعرفة إذ لا يصح الاعتماد علىٰ مُلك الدنيا وإقبالها، فالجاه والذهب لا يخرجان مع من ذهب، والدرهم والدينار معرضان للأخطار، فإما أن يسلبهما جملةً قاطعُ طريق، أو يأكلهما المالِكُ لهما بالتفريق، أما المعرفة فعين دائمة الجريان، ودولة موطدة الأركان، إذا زلَّت بصاحبها القدم لا يستولي عليه غم ولا ندم، إذ المعرفة في نفسها دولة، فحيثما حلَّ يكون بها مرموق القدر، ولا يجلس إلا في الصدر، وأما عديم العرفان فحيثما حل ذليلٌ مُهانٌ، لا ينال من الخبز كِسرة، ولا يعيش إلا بالحسرة.

بيت

لصعبُ نفوذُ الحكم مِن بعدِ مَنصبٍ كذلك الجفا صعبُ علىٰ مَنْ تَنعَّما

قطعة

أُثيرتْ فتنة بالشام يوماً ففر من الديار القاطنونا
فأبناءُ القرىٰ العقلاءُ جاءوا إلىٰ دار الوزارة يشتكونا
وابناءُ الوزير مَضوا لجهلٍ إلىٰ احدىٰ القرىٰ يتكففونا

بيت

إذا رمتَ ميراثاً فَرِثْ علمَ من مضوا فمالُ الأبِ الموروثُ يُتلِفه الصرفُ

٣ـ حكاية

كان أحد الفضلاء يعلِّم ابن ملك فيزجره تارة زجراً شديداً وأحياناً يضربه عند الاقتضاء ضرباً مُبرّحاً، فقدَّم الولد شكواه إلىٰ أبيه لعدم احتماله، وكشف ثوبَه عن بدنه وأراه آثار الضرب، فتألم قلبُ أبيه واستدعى الأستاذ، ولما مثل بين يديه قال له: أنت لا تجيز الجفاءَ

والتوبيخ بما يزيد عن الحد علىٰ أحد أفراد الرعية، فلماذا أجزتَ لنفسك ما فعلته بولدي؟ فقال الأستاذ: يليق بالإنسان ألّا يتسرعَ بإعطاء الحكم قبل إعمال الرويّة. والعَملُ المقبول لازم علىٰ كل أحد وخاصة على الملوكِ، لأن كل ما يصدر عن لسان الملك أو يدِه يكونُ علىٰ الدوام مضغةً بأفواه العوام، وأما أقوال العامة وأفعالُهم فليس لها أيٌّ اعتبار.

قطعة

اذا ما فقيرُ زلَّ ألفاً فربما　　　من الألف لم يفطَنْ لواحدةٍ واعي
وإن زلَّ مَلْك زلةً طار صيتها　　　فدارتْ علىٰ السبع الأقاليم في ساعِ

إذن تهذيب أخلاق أبناء الملوك «أنبتهم اللهُ نباتاً حسنا» أحقُّ بالاهتمام من العناية بتهذيب أبناء العوام.

قطعة

مَنْ ليسَ يقبلُ في عهد الصبا أدباً　　　لم يلقَ نجحاً بجُرفِ الشيبة الهاري
فالعودُ تحنيه رطباً كيفَ شئت وإن　　　يَيْبسْ فلم يستقم إلّا على النارِ

شعر عربي الأصل

إن الغصون اذا قوَّمتها اعتدلت   وليس ينفعك التقويمُ بالخشبِ

فجاء حسن تدبير الأستاذ وتقرير كلامه مقبولاً عند الملك، فأنعم عليه بخلعة سنية، ورفعه إلىٰ مرتبة عليّة.

٤ـ حكاية

نظرتُ معلم مكتب في ديار المغرب عبوسَ الوجه، مُرَّ الكلام، سيّئ الطبع مولعاً بأذية الخلق، شرِهَ النفس لا يبالي بالآثام، ينكّد عيش المسلمين بظله الثقيل في كل حين، ويُقسي قلبَ الإنسان من تلاوة القرآن، وقد كان في مكتبه لفيف من الولدان الأطهار والجواري الأبكار موثَّقينَ بقبضةِ جَفاه لا يسمح لأحدهم بالابتسام ولا بالنطق بالكلام، فتارة يضرب أحدهم ضرباً مبرِّحاً، ويضع ساق الآخر الفضية بالفَلقِ تارةً أخرىٰ وخلاصة القول اني سمعت أنهم وقفوا علىٰ طَرَف من خيانته، فصفعوا قفاهُ وطردوه وسلموا المكتَبَ إلىٰ رجل مُصلح تقي ذي قلب سليم حسن السيرة حليم لايتكلم الا عند الضرورة وإذاتكلم فلا يُجري علىٰ لسانه مايؤذي أحداً من العالمين. فخرجتْ

من رؤوس الأطفال هيبةُ المعلم الأول لدماثة أخلاق المعلم الجديد ورقة طبعه. فأصبح كل واحد منهم شيطانَ الآخر، فتركوا الاغتراف من علمه لاعتمادهم علىٰ حلمه، وأخذوا يصرفون أغلب أوقاتهم باللهو والعبث وبكسر بعضهم لوح درسه علىٰ رأس بعض كما قيل:

بيت

متىٰ رحم الأُستاذ أطفال درسه فكالقِردِ في الأسواق يحلو لها اللعبُ

وبعد اسبوعين مررتُ بذلك المسجد فرأيتُ المعلمَ القديمَ فرحاً مسروراً فقد أعادوه الىٰ مقامه الأول. فأقولُ لك مُنصِفاً بأنني تألَّمتُ وحوقَلْتُ وقلتُ: لماذا أعادوا إبليس مرة أخرىٰ لتعليم الملائكة، فسمعني شيخ مجرب، فتبسم وقال: ألم تسمع ما قيل:

قطعة

أرسلَ مَلْكُ طفلَهُ لما شدا للمكتَبِ
وفوق لوحِ فضةٍ خط لَه بالذهبِ
جَورُ المعلم يا فتىٰ أفضلُ من حُبِّ الأبِ

٥ـ حكاية

وقعت بيد ابن زاهد نعمة وافرة من تركة الأعمام، فانغمس بالفسق والفجور على الدوام، وتفنن بالتبذير وعدم الاهتمام، والخلاصة أنه لم يَبْقَ شيء من سائر المعاصي والمنكرات لم يرتكبه، ولا نوع من المسكرات لم يشربه. ونصحته مرة فقلت: أيها الولد، الدخلُ ماءٌ جارٍ، والصفوُ طاحونٌ دائر. أعني لا يسلَم كثير المصروف إلّا لمن له دخل مُعين معروف.

قطعة

بدخلك فاحتفظ إن قَلَّ واسمعْ   صدى الملاحِ إذ لكَ قد يُزَفُّ
إذا الأمطارُ لم تُصبحْ سُيولاً   بهذا العامِ دجلةُ قد تَجِفُّ

فتمسكْ يا فتى بالعقل والأدب واترك اللهو والطرب، لأنه متى نفدَتِ النعم حملْتَ أثقالَ المشقة والندم. فشغلَتِ الغلامَ لذةُ الناي والشراب عن الإصغاء إلى هذا الخطاب، واعترضَ على نصيحتي فقال: إن تنغيصَ راحةٍ عاجلةٍ بتوقع محنة آجلة خلافُ رأي العقلاء.

قطعـة

أَفِقْ لا يكدرْ صفوَ عيشك يا فتىٰ　　وأنت بأوج السعد خوفُ النوائبِ

بيومك فاحفَلْ واشرح الصدرَ بالصفا　　وغمَّ غدٍ فاتركْ لسوءِ العواقبِ

فكيف بي وأنا الجالس بصدر المُرُوَّة، الرابط عقدَ الفتوة، الناشر ذكرَ الأنعام علىٰ أَفواه الخواص والعوام.

رجـز

العلم المفرد في دنيا الكرمْ　　إنْ يربطِ الكنس علىٰ نقدٍ يُذمْ

من حسُنت سيرته بين البشرْ　　لا يَغلقُ البابَ بوجه مَن يَزُرْ

ولما رأيت إعراضه عن النصيحة وتيقنت أن أنفاسي الملتهبة لم تؤثر في حديده البارد، عدلت عن نصيحته، وأشَحْتُ بوجهي عن مصاحبته، وقبعتُ بزاوية السلامة، وتمسكت بقول الحكماء حيث قالوا: «بَلِّغْ ما عليك فإن لم يَقبلوا فما عليك».

قطعـة

تكرم علىٰ من لم يكنْ لك مصغياً　　بنصح وإن لم يدرِ ما قيمة النصحِ

فعما قليل يوهِنُ القيدُ ساقه   لإعراضه عما بذلتَ من المنْحِ
يقلِّبُ كفيه ألّا ليت أنني   أطعتُ لبيباً لا يُريد سوىٰ نُجحي

وماذاك إلّا أني بعد مدة من الزمن شاهدت عياناً ماكنت أتصور أن يقع من سوء المصير، فها هو قد أصبح يخيط الرقعة من الرقعة، ويدأب لجمع اللقمة، الىٰ اللقمة فانقبض قلبي لضعف حاله، فما رأيتُ من المروءة في مثل هذا الحال أن أجرح بالملامة قلبَه وأذرَّ الملح علىٰ الجرح، واكتفيتُ بما قلتُ في نفسي.

قطعة

يُسكِرُ اليُسرُ كلَّ فسلٍ دنيءٍ   لم يُفكِّرْ في العُسرِ وقتَ الرخاءِ
يَزدهي في الربيع بالوَرقِ الغُصـ   ـنُ فيَعرى لذاك عند الشتاءِ

٦ـ حكاية

سلم أحد الملوك ابنه إلىٰ مؤدب وقال له: ربِّ هذا الولد كتربيتك أحدَ أبنائك، فجدَّ المؤدب في تعليمه سنَةً، فما أتىٰ سعيُه بطائل. وأما أبناءُ المؤدِّبِ فقد انتهوا إلىٰ الغاية في الفضل والبلاغة. فعاتبَ الملك

المعلمَ قائلاً: لقد خالفتَ وعدك وما وفيت بشرطك. فقال المعلم: أيها الملك، التربية كانت متساويةً ولكن الاستعدادَ مُختلِف.

قطعة

من الحجر النقدان عدَّهما الورىٰ   وما كل صلد حين تَخبُرُه نقداً
فهذا سُهيلُ نورُهُ غَمرَ الدُّنى   ولكنَّما تأثيرُهُ لوَّن الجلدا

٧ـ حكاية

سمعتُ أن أحد الشيوخ المربينَ قال لأحد مريديه: لو أنَّ تعلق ابن آدم بربه كتعلقه بطلب رزقه لتجاوز مراتب الملائكة المقربين.

قطعة

لم يَنسكَ اللهُ مُذْ أنشاكَ من عَلقٍ   وكانَ في ظُلماتِ الرحْم مثواكا
أعطاك عقلاً وتدبيراً ومعرفةً   وحُسنَ سَمتٍ وإحساساً وإدراكاً
وأنبتَ العشر في الكفين ثابتةً   وساعدين لكسب الخير أولاكا
فالآن يا فَسلُ إذ أصبحتَ مُكتمِلاً   تظن من قدَّر الأرزاق ينساكا

٨ـ حكاية

رأيتُ أعرابياً يقول لابنه: «أيْ بُني، إنك مسؤول يوم القيامة عما اكتسبتَ، ولست بمسؤول لمن انتسبت» يعني أنهم يسألونك عن فعلك ولا يسألونك عن أبيك وأصلك.

قطعة

لِدودةِ القزِّ لم يُنمِ النسيج متىٰ   أمسىٰ ستاراً لبيت الله فاعتبرِ
فسَترهُ الكعبةَ الغراءَ أكسبهُ   كعزِّها حُرمةً من سائرِ البشرِ

٩ـ حكاية

ورد في تصانيف الحكماء أن العقربَ ليس لها ولادة معهودة كسائر الحيوانات، فربما أنها تأكل أحشاءَ أمها وتفري بطنها وتَسلُك طريقَ الصحراءِ، وإن تلك الجلودَ التي تُرىٰ في غيران العقارب لَمِنْ آثار أعمالها.

ولقد حكيتُ هذه النكتةَ مرة أمام أحد الكبراء فقال: إن قلبي ليطمئن لصدق هذا الحديث، ولعل الحالَ لا يكونُ إلّا هكذا، لأن

الذي يعامل أمه وأباه في صغره كهذه المعاملة، فلا جرم أنه في حال كبره يكون كذلك مقبولاً ومحبوباً!!

قطعة

أوصىٰ أبٌ طفلَه يوماً فقال له   إحفظ وصية شيخ مُرعش هرمِ
مَن لا وفاءَ له من طبعهِ فعلى   مر الزمان سيحيا غير مُحتَرمِ

لطيفة

قيل للعقرب: لماذا لا تخرجين للناس في الشتاء؟ فأجابت: ما هو الاحترام الذي أُلاقيه في الصيف حتىٰ أخرجَ أيضاً في الشتاء.

١٠ـ حكاية

حبلت أمرأة فقير ما عرف الولدَ مُدة عمره، فلما أخذها المخاض قال: إن الله وهب لي ولداً ذكراً فسأبذل للفقراء كل ما تَملِكه يدي إلّا هذه الخرقة التي تستر جسدي. واتفق أن وضعت امرأته غلاماً ففرح به وأولَم لأصدقائه حسب شرطه، ومرت أعوامُ طويلةُ الأمدِ، فعُدْتُ

بعدها الى دمشقَ ومررت بمحلة ذلك الفقير وسألتُ عن حاله، فقيلَ لي إنه أمسىٰ في غيابة السجن. فسألتُ عن السبب، فقالوا: إن ابنه شرب خمراً وفي أثناء سكره وعربدته أهرق دمَ رجل وفر من البلد، ولذلك وُضِعتْ بعنق أبيه السلاسلُ وأوثقتْ ساقه بالقيود. فقلت: يا لله إن هذا البلاءَ الذي حل به كان بسبب دعائه من الله وطلبه الولد.

قطعة

لو أن نساءً حاملاتٍ أخا الحجا ولَدن لنا بعد المخاض أفاعيا
إذن كنَّ خيراً من نساءٍ حواملٍ يَلدنَ أناساً لا تحب المعاليا

١١ـ حكاية

سألت أحد المسنِّينَ ـ لما كنتُ طفلاً ـ عن البلوغ فقال: ورد في مسطور الكتب أن له ثلاث علامات: سن الخامسة عشرة، والاحتلام، وظهور شَعَرِ العانة. وأما في علم الحقيقة فله علامة واحدة وهي أن يكون التقيد برضى الحق جل وعلا أَكثر من التقيد بحظ النفس، فكل من لا توجَد فيه هذه الصفة فالمحققون لا يَعدونه بالغاً.

قطعة

بيوم الأَربعين تُعد خلقاً وقبلاً كنت من ماءٍ مهينِ
وليس تُعد إنساناً إذا لم تُفِد عقلاً بسن الأَربعينِ

قطعة

فلا تَحسبَنْ أنَّ الهَيُولى بطبْعِها أفادَتْكَ لطفاً أو أعارتكَ مَنْطِقا
وهَلْ ظِلُّ إنسان يصيرُ أخا حجا إذا بان في الجدران رَسماً مُنَمَّقا
إذن أيُّ فَرْقٍ بين رسم بحائِطٍ وبين أخي فضلٍ إلى الفَلكِ ارتقىٰ
فلستَ لجَذْبِ المالُ تُحسَبُ عارفاً إن اسطعت فاجذب قلب غاوٍ الى التقى

١٢ـ حكاية

وقع في أحدى السنين لَجاج مابين مُشاة الحجاج، وكان (الداعي) من المشاة في ذلك السفَر. وإنصافاً فقد أحدث كلٌّ منا أثراً بوجه الآخر، ورأسه واستبدلنا بالعدل الفسقَ والجدالَ، غير مبالين بما أمر به الملِكُ المتعال، فسمعتُ جالساً في المحفة يخاطبُ عديلَه قائلاً: يا للعجب إن بَيدَق العاجِ بلغ إلىٰ غاية الشطرنج، فهل يصيرُ فِرْزاً

يا تُرىٰ. يعني أبالإمكان أن يصيرَ أبدع مما كان، فمشاة الحجاج أتوا من فِجاج البادية، ولكنهم صاروا أردأَ مما كانوا.

قطعــة

قُلْ لمن حج ماشياً لا يبالي بسباب يُفري جلودَ العبادِ
لا تكن كالبعير يحمل وَقراً وهو ماض يَلوكُ شوكَ القتادِ

١٣ـ حكاية

كان أحد الهنود يتدرب علىٰ (رمي النفط)، فقال له الحكيم لما رآه: يا من بنيتَ من القصب محلّك ليس هذا لُعبةً لك.

بـيت

إذا لم تُصب كَبْد الحقيقةِ لا تَقلْ وجانب جواباً لا تراه جميلاً

١٤ـ حكاية

أُصيبَ رجل فسل بمرض العينين، فذهب الى بَيطار وطلب منه أن

يداويه، فوضع بعينيه مما يضعهُ بأعين الحيوانات فعميتْ عيناه، ورُفع الأمرُ للقاضي فقال: ليس علىٰ البيطار غُرم إذ لو لم يكن هذا حماراً لما ذهب إلىٰ البيطار. والقصدُ من هذا الكلام أن كل من قدَّم عملاً عظيمَ المِقدار لعديم التجربة والاختبار وعاد عليه ذلك بالندم فإن العقلاءَ ينسُبون ذلك لخفةِ عقله وسوء الفهم.

قطعـة

ليس يعطي اللبيب ذو الرأي يوماً عملاً للوضيع جدَّ خطيرِ
أفمَنْ ينسج الحصيرَ خَليقٌ أن يعاني بالاسم نسجَ الحريرِ

١٥ـ حكاية

كان لأحد الكبراء ولد نبيه، فعدَتْ يد المنية علىٰ أبيه، فسئل ماذا تكتب علىٰ قبره للذكرى؟ فقال: عِزَّةُ آياتِ الكتاب المجيد وشرفُها أرفعُ مِن أنْ تكتب علىٰ مكانٍ مثل هذا يُمحى بمرور الزمان فتدوسه الأقدامُ بالنعال وتبول عليه الكلاب علىٰ أقربِ احتمال، فإن كان لابد من الكتابة فهذان البيتان:

قطعـة

آه أواه كلما لاح في البُسْـ ـتان روضٌ كم كان يشرح صدري
يا حبيبي، الربيعُ حانَ فأَقبلْ تُلْفِ روضاً من طينتي فوقَ قبري

١٦ـ حكايـة

كان أحدُ العباد يتعهدُ ذا نعمة بالزيارة، فرآه مرةً يعاقبُ عـبداً له وقد أحكمِ وثاق يده ورجله. فقال له: يا ولدي إنه مخلوق مثلك وقد جعله الله عزّ وجلّ أسيرَ حُكمك وأعلىٰ فضيلَتك عليه، فضع الشكر لله علىٰ النعمة بمحله، ولا تُجز لنفسك كل هذا الجفاء علىٰ مثله، إذ ربما يكون غداً عند الله أفضلَ منك وتكونُ أنتَ خجلاً مما فعلتَ به.

رجـز

عبدك لا تغضبْ عليه جِدا ولا تَجُرْ واطلُب إليه الوُدَّا
بِعشرةٍ دراهمَ اشتريتَه فهل ترىٰ بقدرةٍ خَلقتهُ
مَا الحكمُ ما الغرورُ ما التجبرُ والله منك يا غبيُّ أكبرُ

وفي الخبر عن سيد البشر عليه السلام «أن أعظمَ حسرةٍ تكون يوم

القيامة هي أن يفوز العبدُ الصالح بالجنة ويُلقى سيدهُ الفاسق في الجحيم».

قطعة

مادام عبدُك طوعَ أمركَ فليكُن بالرفق يؤخذْ لا بسوطِكَ يُجلدُ
إن الفضيحةَ في القيامةِ أن يُرى حُراً وأنتَ مع العصاةِ مُصَفَّدُ

١٧ـ حكاية

سافرتُ في إحدىٰ السنين من (بلخ) إلىٰ (شاميان) وكان الطريقْ مخوفاً تكمنُ فيه اللصوص، فرافقنا شاب كان هو الدليل، فرأيناه بَطَلاً في الشجاعة، له في رمي السهام ومصادمة الترس أوفرُ صِناعة، حتىٰ أن عشرة رجال تعجز عن إيتار قوسه، ولا يستطيع أشداءُ المصارعين أن يُجَدِّلوهُ علىٰ ظهره، إلا أنه نشأ في ظِلال النعيم، فما جرب الدنيا ولا شاهد الأسفار أو ركب الأخطار، وما جلجل بسمعه رعدُ طبول الشجعان، ولا شامَ بلحظه بروقَ صوارم الفُرسان.

بيت

بأسرِ العدى ما حاصَ في الغِلِّ عُنْقُه وفي الحرب لم يُمطَرْ بوبلِ سهامِ

واتفق أن صرتُ أتعاقبُ معَه كدأب الرفاق، وفي أثناء السير لم يَلقَ جداراً يريد أن ينقض إلّا هدمه بقوة ساعده، ولا رأىٰ شجرة عظيمة، إلّا اقتلعها بعزم مخالبه، وكان في غضون افتخاره يُنشد من أشعاره.

بيت

حدثوا الفيلَ عن صلابة زَندي وهزبرَ العرين عن بطشِ كفي

وبينا نحن علىٰ هذه الحال إذ ظهر لنا هِندياِنِ من وراء تَلْعة وقصدا قتالنا، بيد أحدهما عصا عجراء وبيد الآخر صخرة نكراء. فقلت للشاب: هيا للكفاح فماذا تنتظر؟.

بيت

هات ما في قواك من عَزَماتٍ فلِحتفي العدى وحتفِكَ تَسعى

فرأيتُ القوسَ والسهم وقعا من يده، وتمشتْ الرَّعدةُ في مفاصله.

بيت

ما كل من خرق الدروع بسهمِه في الروع تَثبُتُ للردى قدماهُ

فما رأيتُ لي حيلة إلّا أن أخلص من ثيابي وسلاحي وأمتعتي وأنجو بنفسي.

قطعة

إلىٰ أصعب الأعمال أَرسلْ مجرباً　　بأشراكه يصطدْ لك الأسد الورْدا
ودع عنك مفتول السواعدُ في الصبا　　يُرى قلبُه في حَومةِ الحرب مُنقدًّا
وإن الذي قد جرب الحرب عِلْمُه　　كحكم إمام الشرع مُعتَبرٌ جِدا

١٨ـ حكاية

رأيتُ ابنَ غني جالساً حولَ قبر أبيه وقد استرسلَ بالمناظرة مع ابن فقير يُباهيه قائلاً: صُندوقُ تربةِ أبي حَجري مُحكم مكتوب عليه بالنقش الملون كأزهار النيروز، وهو مفروش بالرخام مرصَّع بالفَيروز، فماذا بقي من الفخر لقبر أبيكَ المبني بلَبِنَتَينِ، المرشوش من التراب بقبضة أو قبضتين.

سَمعَ ابن الفقير هذا الفخرَ فقال: اسكتْ أيها الغبيُّ فإنه بينما يتحرَّكُ أبوكَ من تحت ثِقَل الأحجار يكون أبي قد وصل إلىٰ الجنة ونجا من النار. وفي الخبر عن سيد البشر «موت الفقراء راحة».

بيت

إن الحمار متىٰ خفّت حمولتُه   يطوي الطريقَ علىٰ الأيام مُرتاحاً

قطعة

يَخِفُّ على العاني الفقير مَماتُه   وقد عاش محروماً وعاش ذليلاً
ومن عاش في الدنيا بخير ونعمة   وفارقَها يلقَ الممات ثقيلاً
وإن أميراً بالقيودِ مكبلاً   لِأَبأسِ حرٍ لا يكونُ مَثيلاً

١٩ـ حكاية

سألت من أحد الكبراء عن معنى هذا الحديث «أعدى عدوك نفسُكَ التي بين جنبيك» فأجاب: السبب في ذلك هو أنَّ كل عدو تُحسِنُ إليه يُصبح لك صديقاً إلّا النفسَ فإنك كلما تَزيدُ في مداراتها تشتدُّ مخالفتُها لك.

قطعة

يَشأى الملائكَ من قلَّتْ ما كلُه   ومُكثِرُ الأكل عنه البَهْمُ تَرتفِعُ
بالأمرِ يصدَعُ مَنْ تُعني برغبتهِ   والنفسُ بالضدِّ بالترغيبِ تَمتنِعُ

جدال السعدي
مع المدّعي في بيان الغنىٰ والفقر

إن رجلاً بصورة الفقراء وليس علىٰ سيرتهم كان جالساً في مَحفِل، فأخذ يواصل الخِطَة الشنعاءَ فاتحاً دفتر الشكاية بـذم الأغـنياء، حتىٰ أنهىٰ الكلام إلىٰ هذا المقام، وهو؛ أنَّ يدَ قدرةِ الفقراء بالعجز مغلولة ورِجلَ إرادةِ الأغنياء بالشُّح مكسورة.

بـيت

لم تُلف في أيدي الكرام دراهمُ   من بؤسهم وذوو الغنى بُخلاءُ

وحيث كنتُ رَبيَّ نِعمة الكبراء لم يعجبني منه هذا الهُراء. فـقلتُ: أيها الصديق! الأغنياءُ مدخول الفقراء، وذخيرةُ المعتكفين في الزوايا

بلا مِراء، فهم مقصد الزائرين وكهف المسافرين، وهم الذين يتحملون الأثقال لأجل راحة الآخرين، لا تمتد أيديهم إلىٰ طعام إلّا مع ذوي العلاقة والخدام، وفضلةُ مكارمهم موصولةٌ بالأرامل والشيخان والأقارب والجيران.

قطعة

اَلوقفُ والنَّذرُ والإعتاقُ أجمعُها لهمْ ويَعرِف ذاك الضيفُ والجارُ
بركعتين تُرىٰ هل أنتَ تفضُلُهمْ بِها لِعجزكَ عندَ الناس أوطارُ

فالقدرة علىٰ الجود والقوة علىٰ السجود متيسرة للأغنياء، لأن مالهم مزكى، ولباسهم طاهر منقّى، وعِرضهم مصون، وقلبهم فارغ من الشؤون، لهم قوة علىٰ الطاعة باللقمة اللطيفة، ولهم صحةُ العبادة بالكسوة النظيفة، ومن الواضح أن المِعدة الخالية لا تأتي بقوة، واليد الخالية لا تنهض بمروَّة، فمن الرِّجْل المقيدة أيَّ سير تُريد، ومن البطن الخاوية أيَّ خير تستفيد.

قطعة

قَلق الوساد يَبيتُ من لكفافه لم يُلْفِ في وضَح النهار طريقا

في الصيف تَلقى النملَ يجمَعُ رزقه كيلا يُعاني في الشتاء الضيقا

فالتفرغ لا يتصل بالفاقة، واجتماع الخاطر لا يُتَصورُ عَقدُه مع ضيق اليد، فشتان بين اثنين أحدهما مُرتبط بوقت صلاة العِشاء، والآخر قابع ينتظر العَشاء، فأين هذا من ذاك؟

بيت

ذِ الرزق بالله والأذكارِ مشتغلُ وفاقد الرزق بالأفكار مَشغولُ

فعبادة هؤلاء أقرب إلىٰ محل القبول، لأنهم مستجمعون الحضور، غيرُ مشتتي الأفكار ولا مضطربي القلوب لانتظام أسباب معيشتهم، لذلك تراهم أبداً مرتبطين بالأذكار، والعربُ تقول: «أعوذ بالله من الفقر المُكِبّ ومجاورة من لا أُحب» وفي الخبر عن سيد البشر «الفقر سواد الوجه في الدارين». فقال عند ذلك: ألم تسمَعْ ما قاله عليه الصلاة والسلام «الفقر فخري وبه افتخر» فقلت له اسكتْ، فإن إشارةَ سيد العالم عليه السلام لطائفة الفقراء، المرادُ منها فُرسانُ ميدانِ الرضى، المستسلمون لسهام القضا، لا أولئك المرتَدون لِباسَ الأبرار، المتهافتون علىٰ نيل لقمة مصيرها إلىٰ الإدرار.

رباعية

أيا فارغاً كالطبل مالكَ حيلة ... علىٰ بُلغَة ماذا يُبلغك السخفُ
تجنبْ طريقَ الكسب من غير وجههِ ... ودَعْ سُبْحةً مقدارُ حباتها ألـفُ

فالفقير الجاهل لا يستريح حتىٰ ينتهيَ به الفقر الىٰ الكفر «كاد الفقر أن يكون كفراً، لا يمكنهم بلا وجود النعمة كسوةُ العاري، ولا السعي في خلاص الأسير من العدو الضاري. وأين لِمثْلِنا أن يَصِلَ إلى مَرتبة ذوي الغنى، ومن أين لليد السفلىٰ أن تتفوق علىٰ اليد العليا. ألا ترىٰ ما أخبرَ به الحقّ جلّ وعلا في محكم التنزيل عن نعمة أهل الجنة ﴿أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم﴾ حتىٰ تعلم أن المشتغلين بالكفاف محرومون من دولة العفاف، ومُلكُ الفراغ المقسوم تحت حجر خاتم الرزق المعلوم.

بيت

لا يحلمُ الظمآن في نومه ... إلا بعينٍ ثرَّةٍ جاريهْ

أينما يذهبُ يرىٰ تحمل الشدة ومذاق المرارة يوقِعانه بالشرَهِ في

الأعمال المخيفة، ولا يتورع من تَبِعات ذلك خشيةَ الآثام. فلا يخاف عقوبةَ الآخرة، لأنه لا يفرق بين الحلال والحرام.

بيت

إذا ما رَجمتَ الكلبَ يوماً بطوبةٍ   جرى فَرِحاً إذ راحَ يحسَبها عظما
ورب لئيم راءَ نعشاً فظنه   خواناً لهُ فما أقبحَ اللؤما

أما صاحب الدنيا فإنه بعين عناية الله ملحوظ، وبالحلال عن الحرام محفوظ، ومع أني لم أُتِمَّ بعدُ تقريرَ هذا الكلام ولم آتِ علىٰ بيانه ببرهان فإني أتوقع منك الإنصافَ وطرحَ الخلاف، فهل أبصرتَ محتاجاً موثَقَ الأكتاف أو سيِّئ طالع ثوى في سجن الاعتساف، أو سِتْرَ معصوم تمزّق، أو كفّاً من معصم تُقطَّعُ، إلّا بعلة الفقر؟ فبسبب الضرورة أوثق في المضايقِ أُسودُ الرجال، وتحملت أعناقهم ثِقلَ الأغلال، ومن المحتمل أن تطالب الفقيرَ نفسُه الأمارة بالعصيان، إذ لم يكن تحصينها منه بالإمكان، لأن البطن والفرج توأمان، أعني اثنين في بطن واحد، ما نهض هذا إلّا وقام ذلك علىٰ القدم. ولقد سمعتُ أنهم ضبطوا فقيراً بحدَث خبيث علىٰ فعل يَخجَلُ به ويُحكَم برجمه. فصاح: أيها المسلمون، ليس عندي ذهب فأتزوج ومالي قوة فأصبر،

فماذا أصنع؟ «لا رهبانية في الإسلام»، وإن جملة موجبات الحشمة وجمعية الأفكار في باطن أرباب النعمة أنهم في كل ليلة يعتنقون دُمية، وكل يوم علىٰ رأسهم غلامٌ، يدُ الصبح الوضاء من صَباحته علىٰ الفؤاد من الوجل، وقدم السَّرْ المائس من الخجل غائصةٌ في الوحَل.

بيت

بأكباد من حبوه أنشبَ ظُفرهُ فأصبح كالعناب لونُ أنامِلهْ

فمحالٌ مع وجود طلعته أن يحوموا حول المناهي أو يقصدوا مفاسد الملاهي.

بيت

أقلبُ أباحَ الحورَ نهبَ شِغافه بملتفتٍ يوماً إلىٰ دُمية الحرب؟

شعر عربي الأصل

من كان بين يديه ما اشتهى رُطَبُ يغنيه ذلك عن رجم العناقيدِ

أغلب فارغي الأيدي تتلوث أذيال عصمتهم بالمعصية، وأكثر الجائعين يختطفون الخبز كما تختطفه الكلاب الضارية.

بيت

إذا ما عقورُ نال من لحم فاطِسٍ فعن جنسه أو نوعه غيرُ سائلِ

فكثيراً ما وقع (المستورون) بعلة الفقر في عين الفساد، وأطاروا شرف العرض والدين في ربح السمعة السيئة بين العباد.

بيت

مع الجوع لا تبقى لتقواك قدرة ويُفلت بالإفلاس منها عِنانها

فما أنهيتُ الكلام الىٰ هذا المقام حتىٰ أُفلِتَ زِمام طاقة الفقير من يده، وسلَّ علي صارم منطقه، ودفع جوادَ فضيحته في ميدان وقاحته، وصال عليَّ قائلاً: لو سلمنا لك المبالغة التي أجزتها لنفسك في وصف أولئك الأثرياء والكلمات المشتتة التي لممتها في ذم هؤلاء التعساء، فهل يَتصورُ الوهم أن هذه الطائفة لسم الفاقة تِرياق، أو مفتاح لخزينة الأرزاق؟ إن شر ذمة المتكبرين والمغرورين والمعجبين بأنفسهم

والمتجبرين والمشتغلين بالمال والنعمة والمفتَتِنِينَ بالجاه والثروة لا ينطقون إلّا بالسفاهة، ولا ينظرون إلا بالكراهة، ينسبون العلماء للتكْدِيَة، ويرمون الفقراء العديمي الحيلة بالعيوب، وماذاك إلّا بغرور المال الذي ملكوه، وعزة المنصب الذي تخيّلوه، وبهذا يجلسون فوق الجميع، ويرون أنفسهم أفضلَ من جميع الخلق، وباستحكام الغرور منهم في الرأس، لا يرفعون رأس أحد من الناس، ما لَهم علمٌ بقول الحكماء حيث قالوا: كل من نقص بالطاعة وزاد بالنعمة عن الآخرين فهو بالصورة غني وبالمعنىٰ فقير.

بيت

علىٰ عالمٍ إما تكبّر جاهلٌ غنيٌ فقل: هذا حمارٌ مُحمَّلُ

قُلتُ لا تجز لنفسك ذم أرباب النعَم، فهم أهل الجود والكرم. فقال: ركبت شططاً، وفُهتَ غلطاً، إذ ما فائدة العبد المحتاج إذا كانوا سحابَ آذارٍ ولا يُمطرون، وشمساً وعلىٰ أحد لا يُشرقون، وراكي خيل ولا يجولون، لا يضعون قدماً لأجل الله في طاعة، ولا ينفقون درهماً إلّا بالمن والأذىٰ، يجمعون المال بالمشقَّة ويحتفظون به من الخسة، ويموتون بالحسرة. وقد قالت الحكماء: فضة البخيل تخرج حيناً من

التراب وتعودُ معه الىٰ التراب.

بيت

بالكدح يَجمع طول العمر ثروتَه　　وتنتهي دونَ ما كدح لوارثِهِ

فقلتُ ما عثرتَ علىٰ بخل أرباب النعمة إلّا بسبب التكْديةِ، وإلّا فإن كل من جانَبَ الطمعَ فالكريم والبخيل عنده سِيان، فالمحَكُّ يعرف ما الذهب، والمتسول يعرف مَنِ البخيل. فقال: لِنقُلْ في تجربة ذلك، فإنهم يضعون علىٰ أبوابهم من يتعلق بالعباد، وينصبون الغلاظ الشداد كيلا يُعطوا إجازة حتىٰ للعزيز، ويدفعون بأيديهم في صدر صاحب التميز، ويقولون: ما في الدار أحد، وبالحقيقة فقد صدقوا في ما يقولون.

بيت

لو كانَ ذا فطنةٍ ما قال حاجبُه　　لزائرٍ عُدْ فما في الدار من أحدِ

فقلتُ: لهم العذرُ في ذلك، فقد زهِقَتْ أرواحهم من كثرة أيدي المتوقعين، وتراكم رقاع المتسولين، ولئن صار رملُ الصحراء دُرراً فمُحالٌ في العقل أَن تمتلئَ أعينُ الفقراء.

بيت

لا تمتلي عينُ طماع بكنز غنى   والبئر بالطل ليسَ الدهر تمتلئُ

حاتم الطائي كان مقيماً في البادية، ولو أقام في إحدى الحواضر لَعدِمَ الحيلة في دفع زحمة المتسولين، ولمزق الثوبَ الذي يستر بدَنه من تسكع العاطلين. فقال: إنما أنا مترحم علىٰ حالهم. فأجبته: بل أنت متحسر علىٰ مالهم. وبينا نحن في هذا الكلام، وكل منا مُستوثِق علىٰ الآخر بالزمام، كنتُ أسعى في دفع كل بَيدَقٍ يَسوقُه، وكلما قال: شاه ستَرتُ عليه بالفِرْز، فانقطعَ طريقُه حتىٰ صرف جميع ما نَقدَ من كيسِ همّته، ورمىٰ آخرَ سهم في جعبتِه.

قطعة

فلا تَقَعْ واتبعْ هُدى النَّصيحِ   بهوَّةٍ مِنْ حملةِ الفصيحِ
بالمالِ والعرفانِ صِلْهُ تَتَّقِ   شرَّ الكلامِ الخادعِ المنمَّقِ

وبعد النزاع الطويل لم يبق له دليل، فأطال يد التعدي، وأخذ يهرف بما لا يعرف، وسنة الجاهلين معلومة، وهي أنهم متىٰ عجزوا عن

الدليل حركوا للمناظر سِلسلة الخصومَة، كآزَر عابدِ الأصنام لما انقطعتْ حُججه مع إبراهيمَ عليه السلام نهض للحرب وقال: ﴿لئن لم تنته لأرجمنك﴾[1]. فقابلني عند ذلك بالسباب، فرددت عليه بسقط الكلام، ومزّق طوقي، فتعلقت بلحيته.

قطعة

أوقعتُه ولَوى عُنْقي فأوقعَني والناسُ من خلفنا تجري وتبتسمُ
والخلقُ أجمعُ من أُنثىٰ ومن ذكر لما رأوا عَجباً من أَمرنا وَجَموا

ونهاية القصة، أننا رأينا أَن نرفَع هذا الخلافَ إلىٰ القاضي، ونرضى بعدل حكمه حتىٰ يرىٰ حاكمُ المسلمين من أمر المصلحة ما يَرىٰ ويوضح الفرقَ بين الأغنياء والفقراء، فلما رأىٰ القاضي هيئَتنا وسمع منطقنا أطرق متفكراً، وبعد التأمل الطويل قال لي: يا مَنْ أثنيتَ علىٰ الأغنياء واستحسنت جَفوةَ الفقراء اعلمْ أنه لابُد في الروض من وجود الشوك مع الوردِ، ومع الخمر لابد من الخُمار، وفوقَ الكنز الدفين يلبدُ التنين، وفي مَغاصِ الدرر الصحاح يكمُن التمساح. فلدغة الأجل خلفَ لذةِ الدنيا متوارية، ونعيم الجنةَ محفوف بالمكاره المردِيَة.

١- مريم: الآية ٤٦.

بيت

وما الرأيُ في جَوْر الحسود مع الهوىٰ ولم يُلْفَ وِرْدُ دونَ شوكٍ لمنْ يَجْني

أما نظرتَ في البستان الجذعَ اليابس والغصنَ الريان، فكذلك في زمرة الأغنياء الشَّكُورُ والكفور، وفي حلْقةِ الفقراء المتضجِّرُ والصبور.

بيت

لو أمطرتْ لؤلؤاً إذ أمطرتْ بَرَداً لأصبحَ الدرُّ في الأسواق كالوَدعِ

فالمقربون من حضرة الحق جلّ وعلا هم الأغنياءُ الفقراءُ السيرة، والفقراءُ الأغنياءُ بالهمة. وإن أعظم الأغنياء من اغتم لغم الفقراء، وإن أفضل الفقراء من لا يتعلق بأذيال الأغنياء. قال الله تعالىٰ: ﴿ومن يتوكل علىٰ الله فهو حسبه﴾. وبعد ذلك حوَّل وَجْهَ عِتابه عني إلىٰ الفقير وقال: اسمع يا من قلتَ إن الأغنياءَ مشغولون بالمناهي سُكارى بالملاهي. نعمْ يوجَد منهم طائفة كالذين قلتَ عنهم قاصرةُ الهمة كافرةٌ بالنعمة يكسَبون ويكنزون ولا يأكلون ولا يُعطون، لو أنهم مطر مثلا لما هطلوا أو كانوا يُرسلون علىٰ الدنيا الطوفانَ، علىٰ مُكنتهم يعتمدون،

وبها عن محنة الفقير لا يسألون، ومن الله تعالىٰ لا يخافون، ويقولون:

بيت

إن أغرقَ الفقرُ ـ كالطوفان ـ مَنْ بَئِسوا   فنحن كالبطِّ لا نخشى مِنَ الغرقِ

شعر عربي الأصل

وراكباتٍ نياقاً في هوادجها   لم يلتفتنَ إلىٰ من غاصَ في الكُثُبِ

بيت

إذا ما دِنيءٌ حادَ عن رأسِه الردى   فليسَ لو اجْتاحَ الوجودَ بمُغْتمّ

وكما أن قوماً علىٰ هذه الصفة التي بينتُها، فهناك طائفة أخرىٰ واضعة موائِدَ النهم، معطية صلاتِ الكرم، مربوطة الأوساط للخدمة، مفتوحة الحاجب للتواضع، فهم الراغبون في المعالي والمغفرة، وأصحاب الدنيا والآخرة، أولئك كعبيد حضرة ملك العالم المؤيد من عند الله المظفر المنصور علىٰ عداه مالك أزمة الأنام حامي ثغور الإسلام وارث ملك سليمان أعدل ملوك الزمان مظفر الدين أبي بكر بن زنكي أدام الله أيامه ونصر أعلامه.

قطعة

لمْ يفعلِ الأبُ لابنِه مِعشارَ ما   أسدَتْ يداكَ إلىٰ البرية من نِعَمْ
لما أرادَ الله نِعمةَ خلقِهِ   أولَئكَ رحمتُه مقاليدَ الأمَمْ

فعندما أوصل القاضي الكلامَ إلىٰ هذا المقام وكرَّ بجواد المبالغة عن حد قياسنا رضينا بما قضى وتغاضينا عما مضىٰ ولزمنا طريق المداراة في العذر عما جرى، وكلانا بالتدارك وضعَ رأسَه علىٰ قدم الثاني، وقبّلنا بعضنا في الرأس والوجه، وكان ختمُ الكلام بعد الأيْن بمِسْك هذين البيتين:

قطعة

أَخا البؤس لا تَشْكُ الزمانَ وَجَوْرَهُ   فإن تكثر الشكوىٰ تَمُتْ سيِّئَ الجَدِّ
ويا ذا الغنى كُلْ ما استطعتَ وَهَبْ وجُدْ   لدنياك والأخرىٰ تَنلْ غايةَ المجدِ

الباب الثامن:

في آداب الصحبة

حكمة

جمعُ المال لأجل راحة العمر وليس العمرُ لأجل جمع المال. سألوا عاقلاً: من هو حسَنُ الحظ ومن هو سيئة؟ فأجاب: حسن الحظ ذلك الذي زرع فأكل، وسيّئ الحظ الذي كنز ما جمع وارتحل.

بيت

ولا تصلِّ على من لم يُفدْ أحداً والعمرَ ضيعه في جمع ما تركَهْ

نصيحة

نصح موسىٰ عليه السلام قارونَ بقوله: ﴿أَحسن كما أحسن الله إليك﴾ فما سمعَ، وسمعت النصيحةَ عاقبتُه.

قطعة

قل للذي لم يُفد خيراً بما كسبَتْ   يداه من ذهب هل فُقتَ مَن ذَهبا
إن رمتَ تَنعَمُ بالدنيا وبهجتها   فأكرمِ الخلقَ يُكرمك الذي وهبا

تقول العرب

«جُدْ ولا تمنن، فإن الفائدةَ عليكَ عائدة» يعني: هَبْ ولا تتبع هبَتك بالمنة، لأن فائدة الهبة عائدة عليك وحدك.

قطعة

إن المكارم إذ تطولُ جذورُها   تعلو إلىٰ أوج السِّماكِ فروعُها
إن رمت تنعمُ بالثمار فلا تَدعْ   مِنشارَ منَّتِكَ الرهيبَ يروعُها

قطعة

أُشكرْ إله الورىَ من إذْ هداك إلى أنْ تفعلَ الخيرَ لم يُحرمْك نعمتَهُ
ولا تَمُنَّ علىٰ السلطان في عمل لَهُ بهِ الفضلُ إذ أولاكَ خدمتَهُ

حكمة

اثنان جهدا بلا جدوىٰ وسَعيا بلا فائدة؛ الأول من جمع مالاً وما أكل، والثاني من تعلّم العلمَ وما عمِل.

رجز

مهما درستَ العلم كيما تكتمِلْ تُعَدُّ فيه جاهلاً بلا عمَلْ
وهل يُعد عالماً بين البشرْ إذا من الكتب حمارٌ قد وُقِرْ
متىٰ درى الحمارُ مبتورُ الذنَبْ بظهره تُحمل كتْبٌ أو حطبْ

حكمة

العلم لأجل تقوية الدين، لا للتعيش في الدنيا أيها المسكين.

بيت

ألا كلُّ من باعَ العلومَ وزهدَهُ   سيبقىٰ نقيَّ الكف يوم حَصادِهِ

حكمة

العالِم بلا تقوىٰ، كأعمىٰ يحمل السراج «يهدي ولا يهتدي».

بيت

هباءً يُضيعُ العمرَ من ليس يشتري   بأمواله حمداً ويُذهبها سدى

حكمة

المملكةُ من العقلاء تكتسبُ الجمال، ومن الأتقياء تتحلىٰ بالكمال، والملوكُ أشدُّ احتياجاً إلىٰ نصيحةِ العقلاء من احتياجِ العقلاء إلى التقرب من الملوك.

قطعة

نصحتك فاسمع يا مليكُ فلن ترىٰ   نظيراً لما أُوليك في باطن الكتُبِ

لغير ذوي الألباب لا تُعط منصباً وإلّا فقد تُمسي مليكاً بلا لُبِّ

حكمة

ثلاثة أشياء ليس لها ثبات: المال بلا تجارة، والعلم بلا مداولة، والمُلك بلا سياسة. الشفقة على الطالحين ظلم للصالحين، والعفو عن الظالمين جَوْر على البائسين.

بيت

إذا أنتَ عاملتَ الخبيثَ برأفةٍ فلا بِدعَ إنْ يوماً يشاركْكَ في الحكم

حكمة

لا يصحُّ لك أن تعتمدَ على صداقة الملوك، ولا يلزمُ أن تَغترَّ بحسن صوتِ الأحداث، لأن ذاك يتبدَّل بخيال الأوهام، وهذا يتغير عند الاحتلام.

بيت

صُنِ القلبَ عن حِبٍ له ألفُ عاشقٍ وإلّا فللهجران هَبْ ذلك القلبا

حكمة

كل سرٍ تملِكُه لا تهتكْه أمامَ صديق، إذ ما يُدريك أنه في يوم ما يكون لك عدواً، وكل ضَرَرٍ تقدر عليه لا توصِلْه إلىٰ العدو، إذ ربما صار لك صديقاً، وكل ما تَوَدُّ إخفاءَه لا تُطلعْ عليه أحداً ولو كان عندَك مُعتَمداً، إذ ليس هناك أحدٌ أشفق عليك من سِرِّك.

قطعة

بالصمت فَضلٌ فكنْ بالسر محتفظاً   والخل لا تَدْعُه بالسر ينبعثُ
والعين ما اسطعتَ فاسدُدْ رأسَها فإذا   فاضتْ ستصبحُ نهراً سدُّه عبثُ

بيت

إذا القولُ لا يُرضيك سراً فلا تدَعْ   مجالاً في كل نادٍ ومحفِلِ

حكمة

العدو الضعيف الذي يُبدي لك الطاعةَ ويُظهرُ الصداقةَ ليس له

قصد من ذلك إلّا أن يعودَ قوياً. قالوا: من ليس له اعتماد علىٰ وفاء الأصدقاء كيف يركَنُ الىٰ تملق الأعداء. كل من يَعُدُّ العدوَّ الصغير حقيراً يشبه الذي يُهمل الجذوةَ الصغيرةَ فَتعودُ سعيراً.

قطعة

أخمِدْ لظى النار إمّا كنت مقتدراً　　فالنارُ إن تَعلُ لا تبقي ولا تذرُ
ولا تدَعْ للعدى قوساً فتوتِرَها　　فمِنْ سهام العدى لا يَنفعُ الحذرُ

نصيحة

تَكلَّم بين العدوَّين بِما لا يُعقبكَ خجلاً إذا أصبحا صديقين.

قطعة

بينَ الاثنين الوغى نارُ فلا　　تَغذُها باللؤم جزلَ الحطبِ
إن صفا قلباهما عدتَ إذن　　بسوادِ الوجه أو بالحربِ
مَن يُثرْها بين شخصين فلا　　بُدّ أن تَحرقَهُ باللهبِ

قطعة

تكلَّمْ مع الأصحاب سراً ولا تدَعْ　　عدوك يُرهفْ سمعَه وهو جذلانُ

وزنْ كلَّ حرف قبل نطقك واحترسْ   فمنْ خلفِ جُدران المنازل آذانُ

حكمة

كُلُّ من صالح أعداءَ الأحباب يكون قد رغِبَ في أذية الأصدقاء.

بيت

انفض يديك من الصديق متى بدا   في جنب خصمك جالساً في محفلِ

حكمة

إذا تردَّدتَ في إمضاء أمرين فاخترْ ما يعودُ عليك تنفيذهُ بأخف الضررين.

بيت

مع السَّهلِ في الأقوال لا تُبدِ مُشكلاً   ومع من يُريد الصلحَ لا تطلبِ الحربا

حكمة

مادام العمل يمكن أن يحصل بالذهب فلا يجوز لك أن تُلقي النفسَ في العطب.

بيت

إذا ما يَدُ لم تَستطعْ أيَّ حيلةٍ فغيرُ حرام قطعُها بحُسامِ

نصيحة

لا ترحمْ ضعفَ العدو لأنه إذا أَصبح قوياً لا يرحمك.

بيت

بضعف العدى لا تَلْوِ بالفخر شارباً ففي كل عود إنْ حَرقْتَ دُخانُ

لطيفة

كُلُّ من يقتل شريراً فإنه ينقذُ الناسَ من بلاه ويخلصه من عذاب الله.

قطعة

هِبةُ الفتى خير ولكن لا تَضَعْ بجراح من يؤذي الخلائقَ مَرْهما

لا ترحم الثعبانَ واحذرْ أن تُرىٰ منهُ علىٰ أبناء جنسِكَ أظلما

تحـذير

كثيراً ما وقعَ (المستورون) بعلة الفقر في عين الفساد وأطاروا شرفَ العرض والدين في ريح السمعة السيئة بين العباد.

قطعـة

علىٰ رأيِ العدوِّ حذار تجري فتَقرع بعد ذا سِنَّ الندامهْ
وحِذْ عما يراه وإن تراءى أَمامَك كالقناةِ في الاستقامَهْ

حـكمة

الغضب إن زاد عن حده يأتي بالوحشة، واللطف في غير حينه يَذهبُ بالهيبة، فلا تتخاشنْ كثيراً فتنفِّر الناسَ منك، ولا تَلِن جداً فيجترئ الناسُ عليك.

رجـز

اللينُ والشدة إن يُلتزما كالجرحِ يُشفى إن وضعتَ المرهما
فلا تكنْ ما اسطعتَ صلداً قاسياً والقَدْرَ لا تنقصْه نقصاً مُزرِيا
لا ترتفعْ عن قَدْرِكَ المحدودِ ولا تَذِلَّ ذِلَّةَ العبيدِ

قطعـة

قد ناشَدَ الأبَ راعٍ لم يزل حَدَثاً   هبْ لي نصيحةَ ذي رأي وتجريبِ
أجابَه: كُنْ قوياً يا بُنيَّ على   قَدْرٍ به تتوقى صَوْلَةَ الذيبِ

حـكمة

اثنان للمملكة والدين عدوان ؛سلطانٌ بلا حلم وزاهدٌ بلا علم.

بـيت

لا دام فوق سرير الملك منتصباً   مَلْكٌ إذا لم يكن عبداً لِمولاهُ

حـكمة

يليق بالملك ألَّا يتناهى به الغضبُ علىٰ الاعداء، ولا يعتمد علىٰ الأصدقاء؛ لأن نار الغضب تَعلقُ بصاحبها في الأول، وبعد ذلك يتصل شررها بالخصم أو لا يتصل.

رجـز

لا يلزم الإنسانَ وهو ابنُ الثرى   أن يُظهرَ الكِبرَ علىٰ هذي الورى

فابنُ التراب إن تناهى في الغَضَبْ فليس من طينٍ ولكن من لَهَبْ

قطعـة

سَعيتُ لِعابد في (بَيْلقانٍ) فقلتُ من الجهالة نَقِّ روحي
فقال: أيا فقيهُ اصبحْ تراباً أو ادْفِن كلَّ فقهكَ في ضَريحِ

مطايبة

رديءُ الطبع موثقٌ أبداً بيدِ عدو، فحيثما يتوجه لا يـجد خـلاصاً من براثن عقوبته.

بـيت

أَينجو رديء الطبع من شر نفسه فهيهات لا ينجو وإن جاوز الشعرى

نصـيحة

إذا رأيتَ التفرقة وقعَتْ في عسكر الأعداء، فاجمَعِ الأصـحاب، وإذا رأيتهم قد أجمعوا أمرهم، فاحذرْ من تشتيت الشمل، وهيِّئ الأسباب.

قطعـة

مَعَ الصحب فاجلسْ وادِعَ النفسِ آمناً   اذا ما الأعادِي بينهم وقع الخلفُ
وإما تراهم أجمعوا الأمرَ بينهم   فأوتر قِسيَّ الحرب واهجمْ ولا تعفُ

تنبيه

العدوُّ متىٰ أعيَتْهُ الحيلةُ حرَّك لكَ سلسلةَ الصداقة، فيعملُ في أثنائها ما لا يقدر علىٰ عمله في أثناء العداوة.

نصـيحة

دُقَّ رأسَ الأفعى بيد العدو، إذ لايخلو الحال من إحدىٰ الحسنيين، فإذا غلبها أمنتَ شرها، وإذا غلبته نجوت من شره.

بـيت

في الحرب لا تأمَنِ الخصمَ الضعيف فقد   يَفري حشا الليث إنْ مِنْ روحه يَئِسا

نصـيحة

لا تُذِعْ نبأً تعلمُ أنه غير سار، حتىٰ يجيءَ به غيرُك.

بيت

هاتِ بُشرىٰ الربيع يا بلبلَ الروض وخلِّ النعيبَ للغربانِ

تحذير

لا توقفِ الملكَ علىٰ خيانة أحد ما لم تثقْ كل الثقة بالقبول، وإلّا كنت كالساعي إلىٰ حتفه بظلفه.

بيت

أَحْكمِ الرأيَ ثم قُلْ بعدَ هذا حين تُلفي لما تقولُ سميعاً

مطايبة

كلُّ مَنْ يستنصحُ رأيَه فهو بأشد الحاجة إلىٰ مَنْ ينصحُه.

ملاطفة

لا تغتر بخداع العدو، ولا بغرور المادح؛ لأن ذاك ناصبٌ فَخَّ مكرِه، وهذا فاتحٌ فمَ طمعهِ، فالأحمق يَطيبُ له الثناءُ كالذبيحةُ تُنفَخُ من كُراعها لتظهر سمينة.

قطعة

بمدح فصيح لا تُغرَّ أخا الحجا ولو بقليل النفع يرضى ويرغبُ
فيا رُبَّ يوم ليس يَبلُغ قصدَه لَديْكَ فَيبدي ألف عيب ويُطنِبُ

تربية

المتكلمُ مادامَ لم يُنبِّهه أحدٌ علىٰ عيوبه فكلامه لا يقبل الصلاحَ في أُسلوبه.

بيت

بقولك لا تغتر أو حُسنِ سَبْكه فظنُّكَ لا يكفي ولا مَدحُ جاهل

ملاطفة

كلُّ إنسان يرىٰ لعقله الكمالَ ولأبنائه الجمال.

قطعة

أُثيرَ نِزاعُ أمسِ ما بينَ مسلم وبين يهودي ضَحِكت له جِدّا

دعا المسلمُ اللهمَّ إن جُزتُ عَقدَهُ   أمتني يهودياً أو امسخه لي قردا
وأقسم بالتوراة ذاك بأنه   يموت على الإسلام إن زوَّر العقدا
ولو جُنَّ كل الناس ما شكَّ جاهلٌ   بأنَّ له عقلاً يعيش به فَردا

مطايبة

عشرة من الناس يأكلون على سفرة واحدة، وكلبان لا يمكن أن يتقابلا على جيفة هامدة، فالحريص لو ملك الدنيا فهو دائماً جوعان، والقانع أبداً برغيف الخبز شبعان.

بيت

العين لم تُملأ بكنزَيْ عسجدٍ   والجوفَ يملأُهُ زعيفُ واحدُ

رجز

إن أبي أجَلُه لما انقضى   قدَّم لي نصيحةً ثم مضى
فقال لي: الشهوةُ نار تُتقى   لا تذكِها للنفس كيلا تحرقا
مادمتَ لا تُطيق نارَ الآخرهْ   بالصبر أطفئ نارَ هذي الغادرة

حكمة

كلُّ من في حالةِ المقدرة لا يفعل الجميلَ، سيواجِهُ عند العجز

الشدةَ وهو ذليل.

بـيت

مَن باتَ يؤذي الورىٰ فالنحسُ طالِعُهُ إذ ليس في الخطب يُلْفي صاحباً أبداً

حـكمة

الروحُ في حماية نَفس واحد، والدنيا وجودٌ بين عدمين، والبائعو دينهم بدنياهم هم الحميرُ، فبماذا يَرغبون إذ باعوا يوسف، قال الله تعالىٰ: ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم ألّا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾.

بـيت

نكثتَ بعهد الحب إذ غشك العدى تأمَّلْ تشاهدْ مَنْ وصلْتَ ومَنْ تجفو

حـكمة

لا عمل للشيطان مع المخلصين ولا للسلطان مع المفلسين.

قطعة

من لم يُصلِّ فلا تقرضه خَـردلةً ولو تراءى دخانُ الجوع من فـيه

مادام فرضُ الذي انشاه لم يَـفِهِ   فـليسَ يسألُ عـن قَـرضٍ فـيوفيه

حـكمة

كل شيء يأتي عاجلاً لا يمكن أن يثبت على الزمن.

قطعـة

يَضْنعُ الكأسَ في مَدى رُبع قَرنٍ   عاملُ الصين بعدَ بذل الجهودِ
وببغدادَ ألفَ كأسٍ بعامٍ   فاعرفِ الفرقَ عند قبضِ النقودِ

قطعـة

يسعىٰ إلىٰ رزقه فرخُ الدجاج ولا   يقوى علىٰ الفهم طفلُ العام فاعتبرِ
هذا بإسراعه ما نالَ مَفخرةً   وذا تريُّثه أدَّى إلى الفِكَرِ
قدْرُ الزجاج رخيصٌ من تكاثُرِه   واللَّعلُ نزرُ فأمسىٰ جِدَّ مُعتَبرِ

حـكمة

الأعمال بالصبر تتيسر، والمستعجلُ يقع علىٰ رأسه فيُكْسَر.

قطعة

بعينيَّ في البيداء أبصرتُ مَنْ مشى   على مَهَلٍ أعيا الذي مَرَّ مُسرعا
وكم قطعَ الخيلَ الجيادَ طرادُها   وقد مَرَّ حادي العيس بالركب مزمعا

مطايبة

لم يكن للجاهل أفضلُ من صمته، ولو انه يعرف هذه المصلحة لما عُدَّ جاهلاً.

قطعة

إن كـنتَ لم تـمتلِكْ فـضلاً ولا أدباً   فاحبس لسانك واعرف كيفُ تُصلحُهُ
فالمرءُ مِقولُه بالنطق يُخجلهُ   والجَوْزُ خِفّتُه بالكف تَفضَحُهُ

قطعة

رأىٰ أبلَهٌ تعليمَ جَحش فلم يزل   يُغاديه في دأبٍ مدى العمر دائمِ
فقال له يوماً حكيمٌ مؤنِّباً   ألمْ تخشَ يا مأفونُ لَومةَ لائمِ
إذا عنكَ لم تَروِ البهائمُ مَنطقاً   فخذ أنتَ درساً من سكوت البهائمِ

قطعـة

سيأتي كثيرُ من كلامِكَ خاطِئاً   إذا لم تُطلْ قبلَ الجواب التأمُّلا
فصُغْ ما استطعت القول للناس حُليةً   أو اقبعْ ولا تنهقْ بحملك مُثقلا

مطايبة

كل من ناظر من هو أوسعُ منه علماً ليشهدَ الناسُ له بالفضل فإنما ينادي ببحثه علىٰ جهله.

بـيت

اذا ساق للناس الحديثَ أخو الحجا   فلا تعترضْ حتىٰ ولو كنتَ عالماً

لطيفـة

كل من يجالسُ الأشرارَ فلن ينال خيراً مدى الأدهار.

قطعـة

إذا ما مَلاك والرجيم تصاحبا   تعلَّمَ منه مكرَ كل رجيمِ

فلا ترجُ خيراً من لئيم وهل تَرى … علىٰ الدهر ذئباً خاط جلدَ بهيم

نصيحة

لا تفش عيوب الرجال الخافية، فإنك تسبب لهم الفضيحة، وتسبب لنفسك عدم الاعتماد.

تنبيه

كل من درس العلم وما عمل به فهو كمن حرث وما بذر.

عبرة

من الجسد الخالي من الإحساس لا تأتي طاعة، والقشر الفارغ من اللب لا يُعد في البضاعة.

تنبيه

ليس كل من يرغب في المجادلة يكون مستقيماً في المعاملة.

بيت

لها قامة كالغصن تحت إزارها … وتبدو عجوزاً در دبيساً متىٰ تَعرى

حـكمة

لو ان الليالي كلها ليلة القدر لما كان أيٌّ قَدْرٍ لليلة القدر.

بـيت

لو ان كلَّ حصاةٍ درةٌ لغدى   در النحور إذن في القدر كالمدَرِ

حـكمة

ليس كل من هو حسَنُ الصورة يكون حسـنَ السـريرة، إذ القـيمة باللب لا بالقشور.

قطعـة

يجوز بيوم واحد تَسبرُ الفتى   فتعرف أقصى ما يُجيدُ من العلمِ
وإياكَ أن تغترَّ إذ سُوء طبعهِ   ببضعِ سنين ليس يبدو لذي الفهمِ

تخويـف

كل من لج بالعناد مع العظماء فإنما أهرق من نفسه الدماء.

قطعة

أبصرتَ نفسَك كالشخصين في عظم صدقتَ فيما تَرى إذ كنت ذا حَوَلِ
يا فاتح اللعب مع كبش النطاح أفِقْ كيلا يحطمَ منك الرأس في الجَدلِ

نصيحة

ملاكمة الأسد ومصادمة الحسام ليستا من عمل العقلاء.

بيت

إياك أَنْ تلقى القويَّ متحارباً واضمم يديك الى الجناح وسلِّم

تحذير

الضعيف الذي يتحاربُ مع القوي يُعين عدوَّه علىٰ هلاك نفسه.

قطعة

أيطيق الكماةَ من قد تربى في ظلال النعيم يوم النزالِ
لا تَمُدنَّ ساعداً يا أخا الجهـ ـل ضعيفاً لِبُرثن الرئبالِ

توبيخ

كل من لا يسمع النصيحة باهتمام يستحوذ عليه هوى استماع الملام.

بيت

إن كنت لا تهوى نصيحةَ ناصح   فمتىٰ سمعتَ صدى الملامةِ فاصمُتِ

لطيفة

عديم الفهم لا يقوى على نظر صاحب العرفان، ككلاب السوق متىٰ رأت كلب صيد نهضت لحربه ولكنها تُكثر النباحَ ولا تجسر علىٰ التقرب منه.

تحذير

السِّفِلَةُ إذا لم يقدروا علىٰ مقابلة أحد بالمعرفة فإنهم بخبثهم يمزقون جلده في الغيبة.

بيت

في الغيب يطعنُك الحسودُ لضعفه   وتراه يُبدي في الحضور لك الودا

شكاية

لولا جور البطن لما وقع طائر بالفخ، بل ما كان الصياد يسعى لنصبِ الشرك.

عبرة

الحكماء يطيلون مِطال الجوع، وبعد ذلك يأكلون ما اتَّفق؛ والعبَّاد ينتهون عند نصف الشبع؛ والزهاد غايتهم سد الرمق؛ والشبان حتىٰ يُرفع الطبق؛ والشيوخ حتىٰ يكدهم العرق؛ أما السكارى فحتى لا يبقى في المعدة محل لنفَس، ولا علىٰ المائدة رزق لأحد يُلتمس.

قطعة

عابد البطن ليلتان تراه   فيهما لا يذوق طعم الرقادِ
حين يعيبه الاتِّخامُ والاخرى   حين يخلو الوفاض من أي زاد

وعظ

المشورة مع النساء فساد، والسخاء للمفسدين من خطأ الأسياد.

بيت

مَن يرحمِ الذئبَ ذا النابِ الحديد يَجُرْ   جداً علىٰ النعجة البلهاءِ والراعي

نصيحة

كل من كان عدوه تحت قبضته ولم يقتله، فقد قتل نفسه.

بيت

أفعى على حجر وعندك مثلُه   فأرى فسادَ الرأي أن تتردَّدا

ويرى جماعة من العقلاء أن المصلحة بخلاف هذا الرأي قائلين: إن التأمل في قتل الأسرىٰ أولىٰ وأحرى، لأن الاختيار باق، فيمكن القتل ويمكن العتق. أما القتل بلا تأمل فيحتمل أن يفوِّت النفعَ ويكون تداركُ مثل ذلك ممتنعاً.

رجـز

يُمكِنُ قتلُ الحي لكنْ عَودُه إلى الحياة ثانياً لا يمكنُ
لا يرجع السهمُ إذا رميته للقوس واصبرْ فالتأني أحسنُ

نصيحة

الحكيم الذي انخرط في سلك الجهال يجدر به ألّا يتوقَع العـزةَ والإقبال، فإن الجاهل اذا غلَب الحكيمَ بالكلام فليس بالعجيب، كما أن كَسْر الجوهرِ بالحجر لا يُعد في الغريب.

بـيت

ما بصمتِ الهزارِ من عَجَبٍ إن يَبِتْ والغُراب في قفصِ

قطعة

اذا ما جفَتْ ذا الفهم أوباشُ عصره فلا يقتلنْهُ الحزنُ من سوء ما يلقى
فإما حصاةٌ حَظَّمت كأسَ عسجد فقيمةُ كلٍ ليس تهوي ولا ترقى

لطيفة

لا تعجب من العاقل إذا لم يكن كلامه مسموعاً بين زمرة الأجلاف، فإن صوت العود لا يظهر مع ردار الطبل، ورائحة العبير تتغلب عليها رائحة الثوم.

قطعة

ألا إنما الجهالُ ترفع صوتَها   بغير حياء في النوادي لكي تعلو
ويخفت صوت الناي والركب سادرُ   بأجواز عرض البيد إن قُرع الطبلُ

حكمة

الجوهر نفيس ولو وقع في النجاسة، والغبار خسيس ولو تصاعد إلى الفلك، والاستعداد بلا تربية خسارة، والتربية لغير المستعد آمال ضائعة، والرماد وإن علا نسبه لعلو جوهر النار حيث أنه لم يسم بنفسه فهو والتراب سواء، وقيمة السكر ليست من القصب بل لخاصية فيه.

قطعة

ولو لم يكن (كنعان) بالطبع فاضلاً لما ازداد قدراً من نبوة نسله
فحِليتُكَ الآداب لا أصل جوهر فآزرُ إبراهيمُ من بعض أَهله

لطيفة

المسكُ هو ذلك الذي يُخفي نفحُهُ شذا الأزهار لا ما يحدثك عنه العطار. العالمُ كعلبة العطار، صامتٌ تلمع منه المعرفة والجاهل، كطبل الحرب عالي الصوت فارغ القلب.

قطعة

ذو العلم ما بين جهال لَه مَثَلُ مستحسَنٌ من أُولي خُبْر وعِرْفانِ
كمصحف بين شبان زنادقة أو غادة دِلْبرٍ ما بين عُميان

نصيحة

الحبيب الذي لا تعلق به اليد إلّا بمدة العمر لا يليق بكَ إيلامه من نفَس واحد بالهجر.

بـيت

بدهر طويل يصبح اللعل جوهرا　　فإياكَ لا تحطِمْهُ في لحظة عَمدا

تشبيه

العقل الموثق بيد النَّفْس كالرجل الضعيف بيد المرأة القوية.

بـيت

أغلِق علىٰ الدار أبواب السرور إذا　　صوت النساء تعالى في نواحيها

حـكمة

الرأي بغير قوة مكر وخداع، والقوة من غير رأي حمق وجنون.

بـيت

صُنِ المُلْك بالتدبير والعقل إنما　　سلاحُ لحرب الله مُلكُ أخي الجهل

تربية

الكريم الذي يأكل ويعطي، أفضل من العابد الذي يصوم ويخفي.

مطايبة

كل من ترك ا لشهوة لأجل قبول الأنام، وقع من شهوة الحلال في شهوة الحرام.

بيت

إذا عابد لله ما اعتزل الورى فماذا بمرآة الظلام إذنْ يرى

لطيفة

القليل علىٰ القليل يصير كثيراً، والقطرة علىٰ القطرة تعود سيلاً غزيراً، أعني أولئك الذين ليس لهم اقتدار يجمعون قطع الأحجار حتىٰ ينتهزوا وقت فرصة فينتقموا بها من دماغ الظالم لإزالة الغصة.

شعر عربي الأصل

وقطر على قطر اذا اتفقت نهر ونهر الىٰ نهر اذا اجتمعت بحر

بـيت

من قطرة قطرة سيل جرى وكذا   من حبة حبة كم أُفعِمَ الْجُرُنُ

حـكمة

لا يليق بالعالم الفاضل أن يصفح بحلمه عن سفاهة الجـاهل؛ لأن الخسارة علىٰ الطرفين، إذ تنقص هيبة هذا، ويستحكم جهل ذاك.

بـيت

إذا عاملت في لطف سفيهاً   أبان لك التكبر والعنادا

موعـظة

المعصية اذا صدرت من كل أحد لا تكون مقبولة، فصدورها من العالم مصيبة كبرىٰ، لأن العلم سلاح لحرب الشيطان، وشاكي السلاح في الأسر أشد خجلاً من الجبان.

قطعـة

الجهولُ الفقيرُ خيرُ لعمري   من عليم ملطخ بالعيوبِ

ذاك أعمىٰ بمفرق الطرق ثاوٍ وبعينيه ذا هَوىٰ في قليب

مطايبة

كل من لم يأكل الناسُ خبزَه في حياته، لا يذكرون اسمه بعد مماته.

حكمة

كان يوسف عليه السلام في سني القحط لا يَشبَعُ حتىٰ لا ينسىٰ الجياع، فإن الذي يعرف لذة العنب في الطعم المرأة الأرملة لا صاحب الكَرْم.

قطعة

ألا إن من يحيا بخير وراحة بحال جياع الناس ليس له علمُ

بلى ليس يدري ما بهم غير بائس ألح عليه الفقر وانتابه السقمُ

قطعة

أيا من علىٰ ظهر الجواد وقد رأى حماراً بحمل الشوك قد غاص في الطينِ

ظننتَ دخان الجار قد ثار للقرى فذاك دخان ثار من كبْدِ مسكينِ

وعظ

لا تسأل عن حال الفقير الضعيف سنةَ القحط إلّا بهذا الشرط، وهو: أن تضع المرهم علىٰ جُرحه وتُلقي أَمامه ما يخفف ألم قَرحه.

قطعة

إذا رأيت حماراً غاص في وحلٍ فاعطف عليه وخل الرأس في العملِ
واربط حزامك للانقاذ مجتهداً ولا تقل كيف هذا غاص في الوحل

وعظ

شيئان في العقل محالان، أن تأكل أكثر من الرزق المقسوم، وأن تموت قبل الأجل المحتوم.

قطعة

لا يُرَدُّ القضاءُ من ألف آهٍ وبشكوى ظُلامةٍ أو بشكرِ
أَمَلاكُ الرياح يَغتمُّ إن يُطـ ـفأْ سِراج لِأيِّمٍ ذاتِ فقرِ

نصـيحة

يا طالب الرزق اجلس وهو يأتيك، ويا مطلوب الأجل لا تـهرب فذاك لا ينجيك.

قطعـة

إن تسعَ للرزق أو تقعد هُديتَ فقد   مضى ـ بما كان مقسوماً لك ـ الأزلُ
وإن تكنْ بين شِدقي ضيغم فأرى   أنْ لستَ تُؤكَلُ مالم ينته الأجلُ

حـكمة

كل ما لم يُقسم لا يصل الى اليد، وما قُسم يُنال ولو كان في أي بلد.

بـيت

خاض (الاسكندرُ) بحر الظلماتِ   وسِواهُ عَبَّ من (عين الحياةِ)

حـكمة

بدون نصيب لا يَظفر الصياد من دِجْلةَ بحوت، والحوت ما لم ينته

أجَله في اليابسة لا يموت.

بيت

ذو الحرص يَعدو وراء الرزقِ منتحباً   والموتُ من خلفه يَعدو ويبتسمُ

تشبيه

الغني الفاسق حجر مَطلي بالنُّضار، والفقير الصالح محبوب ملوث بالغبار، هذا خرقة موسىٰ المرقعة، وذاك لحية فرعون المرصّعة، وجه شِدَّة الصالحين بالفرج مغبوط، ورأس دولة الصالحين في الهبوط.

قطعة

كلُّ ذي دولة وصاحبِ جاهٍ   ليس يَهوى رعاية المحْدودِ
خبِّروهُ بأنه لن يُلاقي   عزةً بعدها بدار الخلودِ

لطيفة

الحسود بنعمة الحق ما أبخله، علىٰ أنه عدو لمن لا ذنب له.

قطعة

رأيتُ أخا جهلٍ يُمزق دائباً إهابَ أخي جاه وبوسعِه شَتما
فقلتُ له إن كان حظك سيئاً فما ذنبُ ذي الحظ العظيم فلا تعمى

قطعة

أَلا لا تَرُمْ حرب الحسود فإنه وطالعَه المنحوس ما عاش في حربِ
ولستَ بمحتاجٍ إلى حرب من لَه عداوةُ نفسٍ لا تُريح من الكربِ

تشبيه

التلميذُ بلا إرادة عاشقٌ بلا ذهب، والسائح بلا معرفة طائر بلا جَناح، والعالِمُ بلا عمل شجرة بلا ثمر، والزاهد بلا علم دارٌ بلا باب.

نصيحة

المرادُ من نزول القرآن تحصيلُ السيرة الحسنة لا ترتيل السورة المدوَّنة، والعامي المتعبد مسافر على القدم، والعالِم المتهاون فارس عاجز، العاصي الذي يرفع يده لله أفضل من العابد الذي تملَّك الكِبرُ

من رأسه فأرداه.

بـيت

يَفضُل (القوَّاس) ذو الطبع اللطيفِ شيخَ فقهٍ في الأذى جِد مَخوفِ

مطايبة

قالوا لشخص ماذا يشبه العالِم بلا عمل؟ فقال: زنبوراً بلا عسل.

بـيت

أَلا أَبلغ الزُّنبورَ ذا اللؤم حكمة إذا عسلاً لم تُعطِ بالسم لا تؤذي

تشبيه

رجل بلا مروءة امرأة بلا تَفريق وعابد بالأطماع قاطع طريق.

قطعـة

أيا لابِساً ثوبَ الرياءِ مُبَيضاً وصيتُكَ في الآفاق سوَّده الإثمُ
ألا اقصُرْ عن الدنيا يديك فإنما سواءٌ لديها طال أو قَصَر الكُمُّ

لطيفة

اثنان لا تخرج حسرتُهما من الصدر، ولا قَدمُ تغابنُهما من وحَل القهر، تاجر كُسِرَ مركبُه فغرق، ووارث جلس مع السكارى.

قطعة

يُبيحُ دمَ المُثري الفقيرُ لجهلِه إذا لم يجد يوماً سبيلاً لمالِهِ
فلا تصحب الشخص الذي ازْرَقَّ ثوبُه إذا لم تُرد صبغ الثيابِ كحالهِ
ولا تَقْرب الفيَّالَ أو فابن مثله مكاناً يعيش الفيلُ تحت ظِلالهِ

نصيحة

خلعة السلطان وإن تكن عزيزة فثوبُك الخلِق أعز منها، وعيش الأكابر وإن كان لذيذاً ففُتاتُ الخبز الذي في جرابك ألَذُّ منه.

بيت

الخَلُّ والكُراث من كدِّ الفتى خير من الجفنات في دُور القِرى

حكمة

مما يُخالف رأي الصواب وينقض عهود أولي الألباب استعمالُ الدواء بالظنون، والذهاب في طريق مجهول بلا دليل ورفقةِ قافلة. سألوا الإمام المرشد محمد الغَزالي: كيف وصلتَ في العلوم إلىٰ هذه المنزلة؟ فقال: لأن كل شيء لم أعلم حقيقته لا أرىٰ من العيب أن أسأل عنه.

قطعة

شفاءَكَ ترجوه وترتاحُ إن تَجِدْ   طبيباً بجَسِّ النبض جاء بحاصلِ
وعن كل ما لم تدر فاسأل فإنما   دليلٌ على العرفان ذُل التساؤل

حكمة

كل ما تدري بأنكَ ستعلمُه، فلا تعجل بالسؤال عنه؛ لأنك تُكسِب الحكمة خسارةً بضعف الهمة.

قطعة

لما رأى لقمان داوداً وقد   لان الحديدُ بكفه كالمُومِ

ما قال: ماذا أنت تصنعُ إذ رأىٰ   أمراً سيُوصِلُه إلىٰ المفهومِ

أدب

من لوازم الصحبة وآدابها أن تُخلي الدار أو تتفق مع أصحابها.

قطعـة

علىٰ مقدار طبع المرء حدِّث   إذا تلفي لقولك منه مَيلا
متىٰ يجلس ومجنوناً حصيفٌ   فلا يروي سوىٰ أخبار ليلىٰ

مطايبة

كل من جلس مع الأشرار يُتهم بطريقتهم وإن لم يَقتد بـطبيعتهم، وكذلك من ذهب الىٰ الحانة بـقصد الصـلاة لا يـنسبه إلّا إلىٰ شـرب الخمر مَنْ يراه.

قطعة

ولما اخترتُ صحبةَ غير كُفءٍ   وسمتُ بميسم الجهال نفسي

فرحتُ لعالم وطلبتُ نُصحاً فجاوبَ إذ لُصِقت بكل جبسِ
لو أنَّك عالم تُمسي حماراً أو أنَّك جاهل فإلىٰ الأخسِّ

عـبرة

حِلْم الجمل كذلك معلوم، فإنه ينقاد بالزمام لأي غلام، فيمشي مائة فرسخ في موافقته ولا يلوي العنق عن متابعته، غير أنه إن ظهر أمامه وادَ مخوف يكون موجباً لهلاكه وأراد الطفل بالجهل أن يسير به من ذلك المحل فتراه يقطع الزمام من يد الغلام ولا يُطاوعه بعد ذلك. فبوقت الخشونة تكون الملاطفة مذمومة. قالوا: لا يصير العدو بالملاطفة صديقاً، بل يزيد طمعه بأن يرىٰ تفريقاً.

قطعـة

لمن يُبدي اللطافةَ كن تراباً وذُرَّ بعين من خَشُنَ الترابا
ولا تَرفُقْ بقاسي الطبع واعلم إذا صَدِئَ الحديدُ فلن يذابا

أدب

كل من أدْرَج باللغط سيرةَ الخلق في الوسط لِيُظهر رأسَ مال فضلِه

فما أوضحَ إلا مَرتبةَ جهله.

قطعة

ذكيُّ القلب من أعطىٰ جواباً لسائله علىٰ قدر السؤالِ
ومَن يمزحْ وإن ينطقْ بصدق فدعواه تُعد من المحال

أدب

كان لي جرح يستره ثوبي، وكان حضرة الشيخ رحمه الله يسألني في كل يوم، كيف جرحك ولم يسألني أين هو. فعلمت أنه كان يحترز، إذ لا يليق بكل عضو أن يُصرح بذكره. كل من لا يَزِن الكلام يقع بالجواب في الملام.

قطعة

ما دمتَ لم تدر ما عينُ الصواب فلا تفتح بنطقك ما بين الأنام فما
فالسجن بالصدق خير من هوى كذب يُنجي من القيد إذ ما تخدع الأمما

تشبيه

الكلمة الكاذبة تبقىٰ ضربة لازب ربما ينالها الشفاء، لكِنْ علامتُها

تأبىٰ الخفاء، كإخوة يوسف عليه السلام صارو مَوْسومين بكذب الكلام، ولم يُعتمد صدقُ قولهم بعد ذلك المقام. قال الله تعالىٰ: ﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾.

قطعة

إذا اعتادَ قول الصدق دوماً أخو هدى   وأخطأ كان العفوُ من صحبه سهلا
ومن كان قولُ الكذب ديدَنه وإن   يَفُهْ صادقاً لا يحفلون به أصلا

مطايبة

الإنسان في الظاهر أجل الكائنات، والكلب أذل الموجودات، وباتّفاق العقلاء أن الكلب الحافظ للنعمة أفضل من ناكر الجميل من بني الإنسان.

قطعة

أرىٰ الكلبَ لاينسىٰ الجميلَ بلقمة   وإن يلق منكَ الجورَ والطردَ والضربا
ولو عاش في نُعماكَ ذو اللؤم دهره   عليكَ لِأدنىٰ هَفوة يُعلنُ الحربا

لطيفة

من النفس المسمَّنة لا يأتي صاحب معرفة، والذي بلا معرفة لا يصلح للرئاسة.

قطعة

على الثور لا تحزن إذا مات إن يكن أَكولاً نَؤوماً لا يفيدك في الحقلِ
فإن رمتَ تقني الشحم واللحم مثله تعش كحمار بل أذلّ من النعلِ

تربية

جاء في الإنجيل: يا ابن آدم، إذا أغنيتك تنشغل عنّي، وإذا أفقرتك تجلس ضيّق الصدر؛ فأين إذن تجد حلاوة ذكري لتسارع إلىٰ عبادتي وشكري.

قطعة

إذا كنتَ في نُعمىٰ فأنتَ بغفلةٍ وإن كنتَ في بؤسىٰ فجرحك في القلب

وما دمت في السرّاء والضرّ هكذا   فقل لي متىٰ تُعنىٰ بنفسك للربِّ

عبرة

بإرادة الذي لا شبيه له، ينزل ملك عن عرش سلطنته، ويُحفظ آخر ببطن الحوت.

بيت

بأحسن حال من بذكراك يأنسُ   وإن غاب في حوت كما غاب يونسُ

حكمة

إن يسل سيف القهر العلي يُخفي الرأس كل نبي وولي وإن تحركت إشارة اللطف في أي حين يتصل الطالحون بالصالحين.

قطعة

إذا بخطاب القهر في الحشر أخذنا   فماذا اعتذار الأنبياء لدى الحشر

فإمّا تُزح عن وجه لطفك ستره فكل شقيّ بات يرجوك في خير

وعظ

كل من لا يلزم طريق الصواب بتأديب الدنيا، يوثق في تعذيب العُقبىٰ. قال الله تعالىٰ: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنىٰ دون العذاب الأكبر﴾.

بيت

وكل عظيم شأنه النصح فانتصح بذا القيد أو هيّئ لشقوتك القيدا

عبرة

سعداء الطالع يتناصحون بالحكايات والأمثال من آثار المتقدمين، وبهذا السبب يضرب الأمثالَ بوقائعهم طائفة المتأخرين.

قطعة

على حبَّة بالفخ ما حام طائرٌ رأىٰ غيره في الفخ أصبح واقعا

فخذ من مصاب الناس وعظاً ولا يكن مصابُكَ منه الناس توعَظ فاسمعا

حكمة

ما حيلة الذي نقلوا أُذْن رغبته في الاستماع، وكيف يَشرد من أوصلوه بقيد السعادة الىٰ خِطة الارتفاع.

قطعة

ألا إنّ أهلَ الله يُشرق ليلُهم وإن كان دَيْجوراً كما تشرق الشمسُ
وما سَعِدوا من قوةٍ بِسواعِدِ ولكن بفضل الله تَبتهِجُ النفسُ

رباعية

لمن أشتكي إذ ليس غيرُك حاكماً وأيُّ يد تعلو على يَدكَ العُليا
وما ضل من في الكون كنت لعِقله دليلاً ومن تُضْلِله هيهات أن يُهدىٰ

عبرة

الفقير الحسن الختام خير من الملك الرديء العاقبة بالآثام.

بـيت

الغَمُّ تعقبه الأفراحُ دائمةً   خير من الصفو يأتي بعده الكدرُ

لطيفة

للأرض من السماء النثارُ، وللسماء من الأرض الغبار، وكل إناء بالذي فيه ينضح.

بـيت

اذا كان طبعي جاءَ عندك سَيئاً   فطبعَكَ لي أظهره في غاية الحسنِ

أدب

الحق جل وعلا ينظر ويستر بالمنح، والجار لا يرى ويخدش بالجرح.

بـيت

ولو كان ما تُخفي السرائرُ بادياً   لما ارتاحَ ناسُ من ملامة ناس

مطيبة

الذهب يخرج من معدنه بحفر المعدن، ومن يد البخيل يَقلع نفسَه ما أمكن.

قطعة

لِم يأكلوا ما خَبَّأوه وقد رأوا   ما أَمَّلوا خيراً من المأكولِ
أُنظر فقد بقِيَ المؤَمَّلُ بعدهم   ذَهباً وقد ذهبوا لِشَر سبيلِ

أدب

كل من لا ينعم على من هو تحت يده، يوثِقه جور الأقوياء من عضده.

رجز

ما كل من في ساعِدَيه قوة   يَقوىٰ على قبل الضعيف المعدمِ
إياكَ أن تؤلم قَلبَ عاجز   فتُبتلىٰ بجور طاغ فارْحَمِ

حـكمة

العاقل عندما يرى الخلاف في الوسط يقفز، وحين الصلح في البين يثبت ويـرتكز، إذ هـناك السـلامة عـند السـاحل، وهـنا الحـلاوة فـي الوسط للناهل.

حكمـة

لعب النرد إن كان ينبغي فيه الثلاثة مع الستة للقاصد، فالذي يجيء مع الثلاثة لا يكون غير الواحد.

بـيت

مراعي الحمىٰ خير من الجَريِ في الوغَىٰ ولكن عنانُ الخَيل ليس بأيديها

تضرّع

كان أحد الفقراء يقول: يـارب ارحـم الطـالحين، فـإنك رحـمت الصالحين بخلقك إياهم صالحين.

حكمة

الذي رقم العَلم على الثوب الجديد ووضع الخاتم في اليد اليسرىٰ هو جمشيد. فسَألوه: لِمَ منحت كُلَّ الزينة للشمال مع أن لليمين خاصية الإفضال؟ فقال اعلموا وأنا لا أمين أنَّ زينة اليُمن تكفي اليمين.

قطعة

وما رام أفريدون نقشَ خيامِه   وتطريزَها إلا بأيدي بني الصينِ
وأهلُ التقىٰ والفضل زانوا نفوسَهم   وأرواحَهم بالعلم والحلم والدينِ

حكمة

قالوا لكبير مَكين: مع هذا الفضل الذي اختصت به اليد اليمين، لماذا يَخُصون اليد الشمال بالخاتم الثمين؟ فقال: أو ليس من المعلوم أن صاحب الفضل هو المحروم.

بيت

مَن أبدعَ الحظ والأرزاق قَسَّمها   يُعطي لك الفضلَ أو يُعطي لك الذهبا

ملاطفة

نُصح الملوك مسلمٌ لواحد لا يُداخِله الرهب، وهو الذي لا يخاف علىٰ رأسه ولا يكون له أمل بالذهب.

قطعة

سواء لدىٰ من وحَّد الله إن يُقدْ إلىٰ النطع أو ينفخْ ببدرة عَسجدِ
فلا آمل فضلاً ولا راهبُ رَدىً فذلك أسُّ الدين عند الموَحِّدِ

لطيفة

الملِكُ لأجل دفع شر الظالمين، والنائب لمن يَكرعُ من دماء المستضعفين، والقاضي لمصالح المتشاكين وما انفصل عنه الأخصام وكانوا بالحق راضين.

قطعة

إذا كان دفع الحق يلزم يا فتىٰ فباللطف أحرىٰ أن تؤديه لا الحربِ
فأعطِ خراج الملك عن طيب خاطر وإلّا فغَصباً بالإهانة والضربِ

مطايبة

كل من تضرس سنه فالحموضة هيِ السبب، إلّا القاضيِ فلحلاوة المُكتسب.

بـيت

بخمس خِيارات لئن تَرشِ قاضياً فكِدْساً من البطيخ تُثبتُ في الحقلِ

لطيفة

ماذا تصنع العجوز إن لم تتب بالزنا؟ وكيف للمُحتسِب المعزول أن يؤذيِ الخلق بالعنا؟.

بـيت

فكبح جماح النفس يجدر بالفتى ومَن شاخ ماتَتْ في الفِراش رغائِبُهْ

حـكمة

سألوا حكيماً: على قدر ما اشتهر من هذه الأشجار التي خلقها الله

تعالى عالية ذات ثمار، لم يطلق الناس اسم (المعتوق) إلّا علىٰ السرو مع أنه ليس له ثمر كسائر الشجر فقال: لكل من تلك دخل معين ووقت معلوم، فتارة تزهى بوجوده، وتارة تذبل بعدمه، والسرو ليس له هذا التقلب بل هو زاهٍ في جميع الأوقات، وهذه هي صفة الأحرار.

قطعة

لا تَهوَ ما عشتَ شيئاً لا ثباتَ له   فكم جَرتْ دِجلة من بعد (هارونِ)
فان قدرت فكن كالنخل ذا كرَمٍ   أوْ لا فكالسرو حُرّاً في البساتينِ

وعظ

اثنان بالحسرة ميتان؛ الأول: مَن ملك وما أكل، والثاني: من علم ولم يعمل.

قطعة

لا ترى ذا البخل ممدوحاً وإن   يَخْلُ من عيب رَموه بالعيوبِ
وأخو الجود وإن يُذنب فقد   يَغفِرُ الجودُ له كلَّ الذنوبِ

خاتمة الكتاب

قد تم كتاب (روضة الورد) والمستعان علىٰ ذلك هو الله الفرد وحيث اجتمع فيه ما جرىٰ التلفيق به من شعر المتقدمين ولو علىٰ طريق الاستعارة كرسم المؤلفين:

بيت

لئن تلبس عتيقاً فهو خيرُ من الثوب الجديد المستَعارِ

وكان غالب كلام السعدي ناشراً للطرب ممزوجاً بالطِّيب النـدي، كاد عديمُ النظر والبيان يكون طويل اللسان قائلاً: ليس من عمل العقلاء إذهاب لب الدماغ باطلاً أو تناول دخان السراج بغير فائدة تجتلىٰ؛ لكن أولياء الله الذين آراؤهم لامعة لا تخفىٰ عليهم من وجوه هذا الكلام الدررُ الساطعة بالمواعظ الشافية التي خرجت في سلك العبارة مع اللطافة والمداواة بمر النصيحة المختلطة بشهد الظرافة لكيلا يسأم طبعُ المخاطب المَلولُ ولا يكون محروماً في دولة القبول.

قطعة

لقد نصحنا بعد أن عملنا سنين لا تُعد وانتَهينا
إن لم يَجدْ ذا رغبة في الفراغْ فما علىٰ الرسول إلا البلاغْ

تم

نبذة من تاريخ
حياة السعدي

إن من يتتبع آثار هذا الشاعر العظيم الذي طبقت شهرته الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، يستطيع أن يستخلص تاريخ حياته بسهولة مما تركه بين أيدي الناس يتداولونه ويتدارسونه فيما بينهم، معجبين مأخوذين بهذه العبقرية الفذة التي لا يجود الزمان بمثلها إلا في فترات قليلة بين حقبة وأُخرىٰ من الدهر بعيدة المدىٰ متطاولة الأمد. وإن الذين أرّخوه وعنوا بآثاره استخلصوا تاريخ حياته من دواوينه الشعرية ومن نثره الساحر، خصوصاً في كتابه الخالد (كلستان) وفي ديوانه الفاتن (بوستان).

أما اسمه الكامل فهو الشيخ مشرف الدين بن مصلح الدين

السعدي، أحد النجوم اللامعة في سماء الأدب الايراني، فلقد بلغ أعلىٰ درجات الفصاحة في اللغة الفارسية، كما ان نظمه ونثره يعدان أحسن مثال في السلاسة والبلاغة. أما ولادته فكانت سنة ٦٠٦ هـ علىٰ الأغلب.

ويزعم بعضهم أن الشاعر كان في رعاية الأتابك سعد بن زنكي، الذي أرسله الىٰ بغداد لإتمام علومه. وأغلب الظن أن الشيخ قد عزم علىٰ السفر الى تلك المدينة للتحصيل، لما رآه من الحروب والاضطرابات في نواحي فارس، وقد كان من نتائج هذا السفر، ومن التقائه بعلماء بغداد وعظمائها، أن كان لكل هذا تأثير لا حد له في نفسية شاعر شاب، وفي أفكاره كذلك.

وقد كانت بغداد في ذلك الوقت، دار العلم، حضر فيها دروس أساتذتها، كالشيخ شهاب الدين السهروردي، وهو من كبار رجال الصوفية، وأبي الفرج بن الجوزي، وأمثالهما.

ثم عاد السعدي بعد بضع سنوات من تحصيله في هذه المدينة، الى موطنه في إيران، وقد تعرض الى هجمات المغول، ولم تنج مدينة شيراز نفسها ـ وهي موطن نشأته ـ من الثورات التي وقعت بين أحفاد الخوارزمشاهيين وبين الأتابكة، فتأثرت نفسيته بذلك، ورغب في أن

يطوف العالم ويجوب نواحيه، فقام في رحلات طويلة، وزار مكة ودمشق، وبلغ شمالي افريقيا، وأقام مدة في الشام، وعاشر أهل تلك البلاد من الطبقات العليا الىٰ الطبقات الدنيا، واختلط بالعلماء، والعوام، والصوفية، والسنيين، والملاحدة، والبراهمة. وقد تزود من كل ما تحمله أفكارهم. ولم يفارق دمشق العزيزة عليه إلّا في سنة ٦٤٣ هـ، كما يغلب علىٰ الظن، حين ابتليت بالقحط والغلاء والجراد وجفاف مياه العيون والأنهار، فرثاها أبلغ رثاء، وبكاها أحر بكاء، وخرج منها هائماً علىٰ وجهه في بادية القدس، فأوقعه سوء حظه أسيراً بيد الفرنجة، وافتداه صديقه الحلبي وزوّجه ابنته، فتخلص منها لوقاحتها ورحل عن حلب، وهذا آخر العهد به في ديار الشام.

وبعد هذا السفر الطويل، عاد الشيخ الى موطنه شيراز، مزوداً بالخبرة، ممتلئ النفس بالأفكار الناضجة، والعقائد العميقة، فلما بلغها وجدها تحت حكومة الاتابك، أبي بكر بن سعد سنة «٦٢٣هـ - ٦٨٨هـ» فوجد البسطة في الرزق، والأمان في الحياة، وفي ذلك الموطن وجد السعدي الفراغ، والميل الىٰ التصنيف، فألف ذخائر المعارف، ونفيس الآداب، بعد أن أمضىٰ عمراً طويلاً في التنقل بين البلاد.

ومع أن الشاعر قد طبقت شهرته الآفاق منذ نشأته، وسمع عن فضله منذ شبابه، وجرت أشعاره علىٰ الألسنة، فإن أهم ما قام به في ذلك العهد ـ أي أواخر عهد السلطان الأتابك أبي بكر ـ أنه نهض للتأليف والتدوين. وأول منظوماته الهامة والمشهورة هي «بوستان» وهذا الديوان يشتمل كله علىٰ قصص شعري غاية في الإبداع، وهو في هذا الديوان شاعر إنساني ومعلم أخلاقي، وبعد سنة من إتمامه، ألف مصنفه الآخر «كلستان» وهو أجود ما كتب في النثر الفارسي، وأُسلوب كلستان يطابق عنوانه «روضة الورد».

وتنتظم فيه القصص، والأمثلة، والحكم، والنصائح الإخلاقية والاجتماعية في عبارات لطيفة متينة حتىٰ لتستطيع أن تقول إن الكلستان شعر منثور، أو نثر مجرد عن الزوائد والحشو.

أما غزليات السعدي فيمكن أن نقول إنه مبتكر فيها، فقد تضمنت أبدع الإحساسات، في روح الصوفية، فلم يبلغ شاعر آخر ما بلغه فيها. مع أنه يتضح من حكايات السعدي وحكمه أنه اندمج في زمرة رجال الصوفية، لكن لم يكن من أولئك الذين نفضوا أيديهم من شؤون الحياة، ولا من الذين لجأوا الى الاعتزال، بل كان له لطافة أفكارهم، واشراق نفوسهم، في حياة معتدلة، وعمل متزن.

وكان تأثير السعدي في الناحيتين الأدبية والأخلاقية لا حدّ له، ليس في إيران وحدها، بل في العالم أجمع، فإن بعض الشعراء المشهورين الذين جاءوا بعده ـ كحافظ الشيرازي وعبد الرحمن الجامي ـ قد وضعوه موضع التقدير والاعجاب، وأحلوه بينهم محل الفضل والإجلال.

وقد بلغت شهرة السعدي أطراف العالم، ونقلت آثاره في النثر والنظم الى جميع اللغات الحية، وكانت محل إعجاب الأمم وتقديرها.

وتوفي الشيخ بين سنة «٦٩٠هـ و٦٩٤هـ» في شيراز، ودفن بها.



المشرق للثقافة و النشر

شابك: X-١٨-٨٢٤١-٩٦٤

ISBN 964-8241-18-X